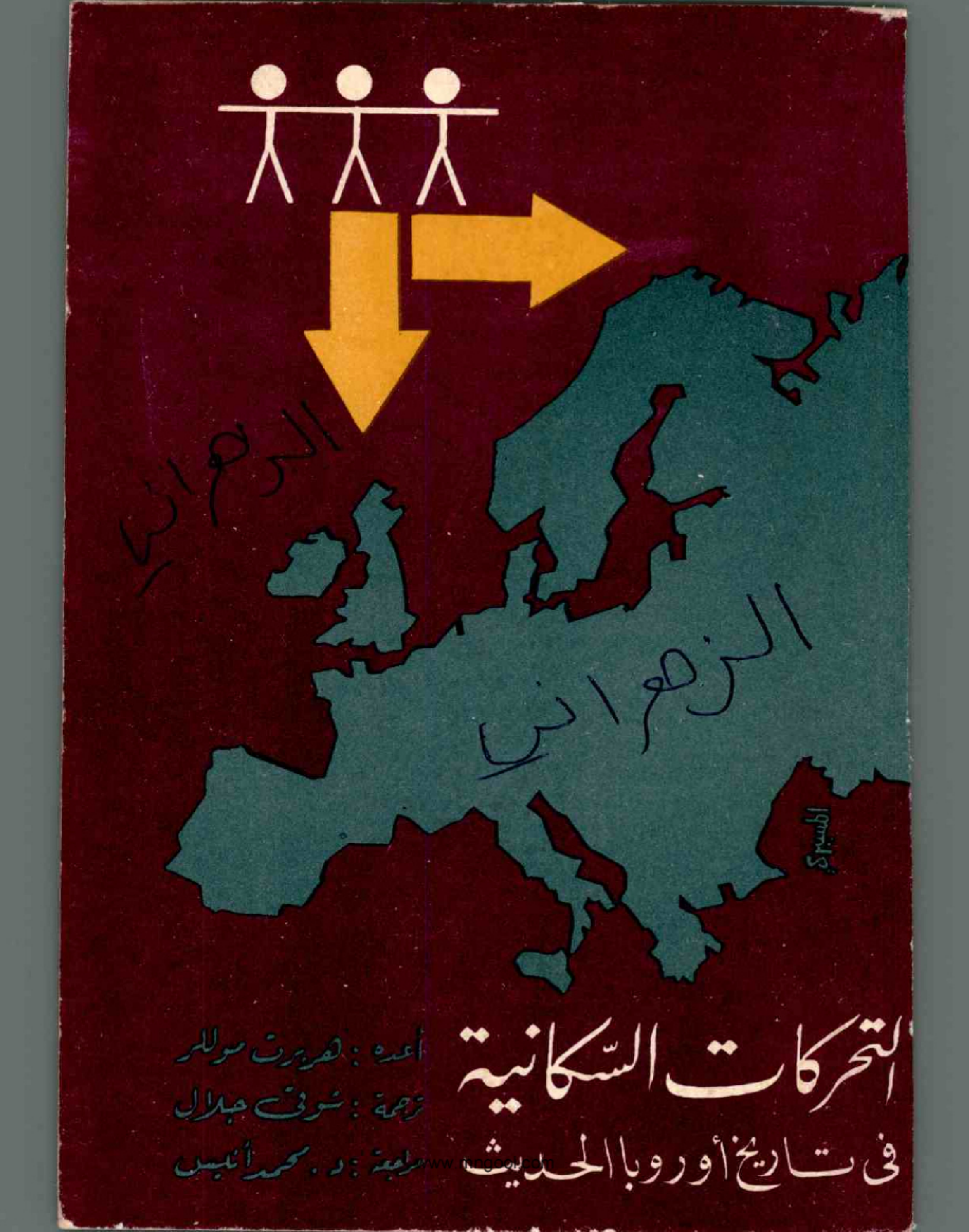


الزهراني
الزهراني
التحركات السكانية
في تاريخ أوروبا الحديث
أعده : هربرت موللر
ترجمة : شوقي جلال
مراجعة : د. محمد أنيس

التحركات السكانية في تاريخ أوربا الحديث

إعداد : هربرت موللر
ترجمة : شوقي جلال
مراجعة : د. محمد أنيس

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

هذه هى الترجمة العربية لكتاب :

POPULATION MOVEMENTS IN MODERN EUROPEAN HISTORY

Edited by

Herbert Moller

محتويات الكتاب

الموضوع الصفحة

مقدمة

« يتعين على الباحث الذى يريد أن يصوغ فكرة صحيحة عن حالة مجتمع ما فى فترة زمنية معينة أن يهدف أولا الى التثبت من عدد أفراد هذا المجتمع » . هذا هو ما يقوله ماكولى فى الباب الثالث الشهير من كتابه « تاريخ انجلترا » . ولكن ما يثير الدهشة أنه منذ أن قال ماكولى عبارته هذه لم يتم سوى عدد قليل جدا من الأبحاث فى ميدان الديموجرافية التاريخية . ونحن لا نعثر على كتاب باللغة الانجليزية عن تاريخ السكان فى العالم . كما لا يوجد كتاب يستحق القراءة عن سكان أمريكا . ولم يصدر حتى الآن كتاب يعالج مشكلة السكان فى أوروبا فى العصر الحديث وهى موضوع كتابنا هذا .

ولكن ما هى دلالة الاتجاهات السكانية بالنسبة لتاريخ العام؟ ثمة اجابات متناقضة الى حد ما تجيب على هذا السؤال . فأولئك الذين ينتمون الى العقيدة الماركسية لا يعولون أهمية كبيرة على السكان ، ذلك لأنهم يردون كل ما يحدث فى الحياة الاجتماعية الى علة أساسية واحدة وهى نظام وملكية وسائل الانتاج . وثمة آخرون يعتقدون أن التصنيع والمعرفة التكنولوجية يحددان المجتمع بحيث يمكن اغفال أى عامل آخر حتى فى عصرنا هذا وهو عصر « الانفجار السكانى » . ثم هناك أيضا مؤرخو الديبلوماسية ممن

لا ينتمـون الى أى من هاتين النظريتين ولكنهم ألفوا العمـل على أساس مجموعات من الوثائق الهامة ، سواء منها ما نشرأولم ينشر ويخرجون منها بدراسة تتسم بقصر النظر حول موضوع البحثالذى لا يستند الى مصدر ما • ويمكن القول بوجه عام ان من العسـير علينا أن نلم بالعوامل الحقيقيـة المؤثرة فى التاريخ ، كالعوامل التى تؤثر على حياتنا الاجتماعية الراهنة ، كما هو الحال بالنسبة للاشتقاقات اللفظية • ولكننا نقول كما قال لورد بيكون فى كتابه « تطوير التعليم » • « ان المستكشفين الذين يظنون أن ليس ثمة أرض عنـدما لا يرون شيئا آخر غير البحر انما هم مستكشفون غير محنكين » •

وثمة نظرية على النقيض من ذلك تماما ترى أن عدد السكان هو المفتاح لفهم التاريخ • فهناك بعض الكتاب من أصحاب العقليـة المالتوسية الضيقة يرون أن نمو السـكان والحد منه يمثل وحده مشكلة المشاكل الاجتماعية • وثمة مفهوم عن التاريخ يقع فى هذه الخطيئة التى تفسر كل شيء بعلة واحدة وهو المفهوم الذى عبر عنه بالحاج والتر بريسكوت ويب فى كتابه « الحد العظيم » • وطبقـا لهذا فان الحضارة الغربية فى مسارها، ابتداء من الاكتشافاتالكبرى حتى يومنا هذا ، انما كان يحددها فى كل مرحلة هامة من مراحـل سيرها ، عامل ديموجرافى واحد وهو الحدود غير الثابتـة بكل ما تحتويه أراضيها الشاسعة من موارد ، ثم الحدود الثابتة مع نهاية القرن التاسع عشر •

ونظرا لأهمية تجنب مثل هذه المواقف المتطرفة فى تفسـير الامور بردها الى علة واحدة لا يزال من واجب المؤرخ أن يدرك بأن ثمة مجموعة معينة من الوقائع هىوقائع أساسية أكثر من غيرها • اذ بدون هذا الادراك ستتحول دراسة التاريخ وكتابته الى دراسة

غير هادفة للآثار القديمة ، وهى الدراسة التى تعتبر كل شيء ذا أهمية عابرة وليس ثمة شيء له دلالة حقيقية . ان تفسير أى حدث تاريخى معقد أو حركة أو فترة تاريخية ، انما يعتمد على المامنا ببعض العوامل الأساسية . ولا ريب فى ان مشكلة السكان هى أحد هذه العوامل الأساسية التى تحدد الطريقة التى يعمل بها كل مجتمع كما تحدد سماته الرئيسية . واذا كانت الديموجرافيا تعنى بدراسة عـــدد السكان الذين يعيشون فوق مساحة معينة من الارض بكل ما تحتويه من موارد للثروة فانها تعنى كذلك ببعض العوامل الدينامية مثـل نسب المواليد والوفيات والزواج ، وتركيب المجتمع من حيث العمر والجنس ، والهجرات داخل حدود معينة أو عبر هذه الحدود ، وغير ذلك من السمات المميزة للسكان مثل التجمعات السلالية وتوزيع قوة العمل .

ويجب على المؤرخ أن يستخدم البيانات الديموجرافية حسـب سياقها التاريخى الاجتماعى . اذ أنها تتقاسم اهميتها الأساسية مع عوامل أخرى مثل البيئة الجغرافية للمجتمع الذى نحن بصـــدده وتقسيمه الطبقى وثروته المدخرة وحظه من المعرفة وكذلك مهاراتـه العملية . وفضلا عن ذلك فان مشكلة السكان مثلها مثل العـوامل الأساسية الأخرى ، ليست قوة مسـتقلة بذاتها . ويأمل بعض دارسى التاريخ أن نعرض العامل السكانى ، ان كان ذا قيمة ما ، باعتباره عاملا يحدد الحياة الاجتماعية دون أن يكون للحياة الاجتماعية أثر عليه . الا أن المشكلة السكانية ليست قوة محركة لا تتغير بتأثير غيرها . انها ليست قوة مماثلة للطاقة الشمسية التى تكون سـببا فيما يقع من أحداث على الأرض دون أن يكون لهذه الاحداث أثـر عليها . ومن ثم فان مشكلة السكان بعبارة أخرى يمكن اعتبارهـا معاملا متغيرا مستقلا عن العملية الاجتماعية أو متوقفا عليها . وسواء

أكان الوضع السكانى يحتـــل مكانه فى أول سلسلة العلل أو فى آخرها فان ذلك أمر عرضى يتحدد وفقا للبيانات التى بين أيدينـــا والمشاكل التاريخية التى نريد تفسيرها • فاذا حدث مثلا أن فقد مجتمع ما نسبة مئوية كبيرة من شبابه بسبب الهجرة أو الحرب فان سكان هذا المجتمع يتميزون بفائض فى عدد النساء وهنا يمكن بحق أن نعزو الى الموقف الديموجرافى ـ باعتبـــاره عاملا متغيرا مستقلا ـ كل ما يطرأ على المجتمع فى مجال تركيب قوة العمل وما يحدث من خلل فى سوق الزواج ، وكذلك بعض التغيرات السلوكية الا أن الوضـــع السكانى يمكن النظر اليه فى سياق أحداث أخرى باعتباره عاملا متغيرا تابعا ، وذلك اذا ما كانت معــــدلات الزواج والمواليد والوفيات خاضعة كلها لتأثير الناتج السنوى للمحصول كما هو ملاحظ كثيرا فى المجتمعات الزراعية • ويمكن كذلك أن يكون العامل الديموجرافى جزءا من عملية تغـذية عكسـية دائرية أو حلزونية مثل ما حدث فى أمريكا ابان القرن الثامن عشر عندما أدت الزيادة السريعة للسكان الى التفاوت فى نصيب الافراد من الغـلة الانتاجية الاقتصادية وذلك بســـبب وفرة الايدى العاملة بالاضافة الى التقدم فى مجال التخصص فى العمل • وقد شجع هذا التقدم الاقتصادى على حدوث زيادة جديدة فى السكان عن طريق الزواج المبكر وارتفاع نسبة المواليد وجذب المهاجرين ، عبيدا وأرقاء ، مما ساعد بدوره على تقدم انتاجية البلاد •• ومن ثم فان الوضع السكانى يعمل غالبا كقوة مساعدة ومنشطة داخل العملية الاجتماعية ، ومن هنا يكون له أثره الذى يزيد من سرعة هذه العملية ، ويكون له قوته الضاغطة على المجتمع لدفعه الى السير بسرعة فى هذا الاتجـــــاه أو ذاك •

ودراسة السكان تزود المؤرخ ببيانات كمية تحتل غالبـــا وضعا استراتيجيا فى مجال التحقق من صــــدق أو زيف الفروض

التاريخية • ومن ثم فانها تساعد على تقديم تفسيرات تاريخية أكثر تماسكا حيث يمكن وضعها موضع الاختبار • حقا • ان البيانات أو الاحصاءات السكانية القديمة والتي يمكن ان نخرج منها بمعلومات كمية وفيرة ليســـت كافية الى حد كبير في أغلب الاحوال ولا يمكن مقارنتها من حيث الدقة ببعض البيـــانات الحديثة المماثلة لهـا في طبيعتها • الا ان هذا ليس سببا يدعونا الى الفزع وذلك ، أولا : لأن التقديرات التقريبية تفى بالحاجة فى كثير من عمليات العرض التاريخى ، كما وأن الدقة الكبيرة فى التقدير الرقمى لا تؤثر فى النتائج التى نصل اليها تأثيرا يذكر • وقد يكون من دواعى الاطمئنان هنا ، أن نذكر أن الاحصاءات السكانية فى الولايات المتحدة ليست احصاءات دقيقة تماما • ففى عـام ١٩٥٠ أحصى رجال التعداد ١٥٠٦٩٧٣٦١ نسمة واكتشف مكتب الاحصـاء عند مراجعة هذا العدد أن حـوالى ١٣٠٠٠٠٠ نسمة قد تم احصاؤهم مرتين ، وأن حوالى ٣٤٠٠٠٠٠ لم يدخلوا ضـمن الاحصاء على الاطلاق • ولقد كان معدل الخطأ فى كل الاحصاءات الأوروبية السابقة على عام ١٨٥٠ يزيد كثيرا على معـدل الخطأ فى احصاء الولايات المتحدة لعام ١٩٥٠ وهو ١½٪ • كما وأن أكثر الأرقام السابقة كانت تقوم على أساس احصاءات متميزة للأفراد أو الأسر • ومن ثم فان الارقام القديمة لتعداد السكان تخضع لمعامل خطأ كبير ، فضلا عن أنها تفتقد تماما فى أغلب الأحيان أهم البنود النوعية للمعلومات التى يجمعها الآن رجال الاحصاء المحدثين • ومع ذلك فان البحث المحلى سيساعدنا ، وسوف يساعدنا بكل تأكيد ، على اكتشاف كثير من البيانات الديموجرافية الهامة •

ثانيا : فان المواد التى نحصل عليها حتى وان كانت غـير وافية فقد تكون لها قوة توكيدية ـ اذا ما أمكن تعزيز كل ما قد تتضمنه هذه المواد ببيانات مستقلة • ومن ثم ، وعلى هـــذا النحو فان عدد السكان فى مرحلة تاريخية معينة ، وفى منطقة معينة ،

يمكن أن يصبح جزءا من مجموعة كبيرة ومتنوعة من المعلومات التى يساند بعضها بعضا مثل التغيرات التى تطرأ على مساحة المنطقة المنزوعة وكمية المطر وسجلات الدفن ونقوش المقابر واحصائيات الأجور والأسعار والبيانات الخاصة بالتصدير والاستيراد والتقارير الخاصة بالضرائب وعدد المهاجرين ... الخ .

وهنا نجد ميدانا لأفكار تستحق البحث يمكن بواسطتها توسيع نطاق معرفتنا عن الماضى بدرجة كبيرة .

ثالثا : وهو الأهم ، الاعتقاد بأن الأرقام المطلقة من حيث هى كذلك ليست أهم ما يعنينا . اذ أن أى رقم مطلق ليس له معنى فى ذاته . فاذا عرفنا أن تعداد سكان فرنسا فى زمن معين كان ٢٠ مليون نسمة فان هذه المعلومات تعتبر غير ذات معنى ما لم نعرف رقما آخر على الأقل يساعدنا على عقد مقارنة ما . ومن ثم نستطيع بذلك أن نقارن بين وضع فرنسا فى زمن معين ووضعها فى تاريخ سابق أو لاحق لهذا الزمن وبذلك نستطيع أن نتفهم تطور هذا البلد ، أو نستطيع أن نقارن تعداد سكان فرنسا بسكان بلد آخر وأيا كانت المقارنات التى نقوم بها فان اهتمامنا لا يتركز على الارقام المطلقة من حيث هى كذلك بل على أهميتها النسبية ، ويمكن تقديم تفسيرات ملائمة على أساس بيانات ناقصة . وكل هذه الاعتبارات لا تنفى بطبيعة الحال حاجتنا الى الوصول بكل الاحصائيات التاريخية دون استثناء الى أعلى درجة من الدقة .

الدورات الديموجرافية :

تم ترتيب المختارات التى نعرضها فى هذا الكتاب على أساس زمنى ، بحيث يمكن ابراز معالم دورات التاريخ الديموجرافى لأوروبا وتبدأ الدورة الأولى من القرن السادس عشر الى منتصف القرن

السابع عشر ، وعرضنا خصائصها المميزة فى المقال الاول . وبدأت الدورة الثانية فى العقدين الرابع والخامس ١٦٣٠ – ١٦٥٠ استنادا الى بعض التغيرات الاقليمية . وامتدت حتى أعوام انهيار النظام القديم رغم حدوث بعض الفوارق الاقليمية من حيث التاريخ الزمنى

وتبدأ الدورة الثالثة تقريبا من عام ١٧٧٠ الى عام ١٨٣٠ أو ١٨٥٠ . وتعرف تقليديا باسم عصر الثورة الصناعية . وقد عرضنا هذه الفترة ، وهى فترة محاولة اعادة التنظيم ، فى أربع مقالات، تناولنا فيها مشكلة السكان فى انجلترا أو آراء مالتوس التى سادت فى هذا العصر ، ومأساة أيرلندا . وحتى نستكمل الصورة تناولنا كذلك بلدا زراعيا وهو السويد والتى كانت فى ذلك العهد بعيدة من كل النواحى عن « ورشة العالم » .

وتتناول المقالات الثلاث التالية لتلك المظاهر المختلفة تماما للموجة السكانية الطاغية فى القرنين التاسع عشر والعشرين . ويبرز المقال الأول منها بعض التغيرات التى طرأت على المناخ الثقافى والفكرى . ويبحث الثانى عملية نمو المدن ، ويتعقب الثالث هجرة الأوروبيين الى البقاع المختلفة من العالم .

وثمة مختارات ثلاثة شملت التطورات التى حدثت داخل الشعوب الأوروبية فى القرنين التاسع عشر والعشرين . ويعالج كل منها التطورات الديموجرافية فى ثلاث بلدان كبرى من بلدان القارة الأوروبية وهى : فرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتى .

وتعالج المقالتان الأخيرتان المظاهر العالمية لمشكلة السكان . فتعالج أولاهما الموقف الديموجرافى فى أوروبا بعد الحرب . أما المقال الأخير فانه يفسر النمو السكانى على النطاق العالمى ودلالته بالنسبة للعالم الغربى .

دراسات احصائية :

جدول (١)

تقدير التعداد السكانى فى أوروبا وأمريكا الشمالية والعالم خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٦٠٠ ــ ١٩٠٠ مقدرا بالمليون

التاريخ	١٦٠٠	١٦٥٠	١٧٠٠	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
العالم	٦٠٠	٦٤٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٥٠	١٢٠٠	١٦٠٨
أوروبا	١٠٠	١٠٣	١١٤	١٤١	١٨٤	٢٦٦	٣٩٠
البرتغال	١٫٤		٢٫٣	٢٫٨	٣٫٤	٣٫٩	٥٫٤
اسبانيا	٨٫٠		٨٫٠	٩٫٠	١١٫٥	١٥٫٠	١٨٫٦
إيطاليا	١٣٫٣	١١٫٥	١٣٫٤	١٥٫٥	١٨٫١	٢٤٫٣	٣٢٫٥
فرنسا		١٩٫٠	٢٠٫٠	٢٤٫٦	٢٨٫٢	٣٥٫٨	٣٩٫٠
انجلترا وويلز	٤٫٥		٥٫٨	٦٫٥	٩٫٠	١٧٫٩	٣٢٫٥
سكوتلندا	١٫٠		١٫٠	١٫٣	١٫٦	٢٫٩	٤٫٥
إيرلندا			٢٫٧	٣٫١	٥٫٠	٦٫٥	٤٫٥
النرويج			٠٫٧	٠٫٨	٠٫٩	١٫٤	٢٫٢
فنلندا					١٫٠	١٫٦	٢٫٦
السويد	١٫٠			١٫٨	٢٫٣	٣٫٥	٥٫١
الدانيمرك	٠٫٥			٠٫٨	١٫٠	١٫٥	٢٫٥
هولندا	١٫٢				٢٫٢	٣٫١	٥٫٢
بلجيكا	١٫٤				٣٫٠	٤٫٤	٦٫٧
سويسرا	١٫٠			١٫٢	١٫٧	٢٫٤	٣٫٣
ألمانيا (حسب مساحتها عام ١٨٧١)	١٨٫٠	١٣٫٠	١٦٫٠	١٩٫٠	٢٤٫٥	٣٥٫٤	٥٦٫٤
براندنبرج ــ بروسيا			١٫٣	٣٫٥	٦٫٢	١٧٫٠	٣٧٫٥
النمسا وملحقاتها مثل بوهيميا ومورافيا	٥٫٥		٧٫٥	٦٫١	٩٫٦	١٢٫٩	١٨٫١

التاريخ	١٦٠٠	١٦٥٠	١٣٠٠	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
المجـــر			١,٦	٦,٥	١٠,٠	١٣,٣	١٩,٣
مملكة هابسبورج			٩,١	١٢,٦	٢٣,٣	٣١,٤	٤٥,٤
بولنــدا	٣,٢	٢,٣			(٧,٨)		(٢١,٣)
روسيا الأوروبية			١٧,٠		٣٨,٠	٦١,٠	١٠٣,٣
أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا)	١,٠	١,٠	١,٠	١,٠	٦,٠	٢٦,٠	٨١,٠

يبين لنا جدول ١ توزيع السكان فى أوروبا لكل نصف قرن، هذا باستثناء دول البلقان وبعض المناطق الصغرى التى لم يكن من المستطاع الحصول الا على النزر اليسير من المعلومات الخاصة بها · لذلك لم نذكر العدد الاجمالى لكل سكان أوروبا بسبب نقص هذه البيانات · وأكثر الأرقام المذكورة هى أرقام تقريبية ؛ أما بالنسبة لأرقام الفترات الأولى فهى أرقام تقديرية الى حد ما ·

وتمثل الخطوط الأفقية عدد السكان فى كل بلدعلى حدة · وتبين لنا فى بعض الحالات النمو الحقيقى للسكان فى كل بلد كما وأنها فى حالات أخرى تعكس لنا تغير الحدود وما يقابل ذلك من زيادة أو نقص فى تعداد السكان · وتبدو هذه التغيرات فى مساحة الأرض واضحة بوجه خاص بالنسبة لبلدان براندنبرج – بروسيا وأراضى النمسا الخاصة بمملكة هابسبورج وبولندا التى فقدت وجودها السياسى المستقل عام ١٧٩٥ والامبراطورية الروسية التى ضمت فى النهاية كل أوروبا الشرقية وسيبريا والجزء الأكبر من آسيا الوسطى ·

واستقينا معلوماتنا الواردة فى جدول (١) من مصادر كثيرة · وقام بالجانب الأساسى من هذا العمل جوليوس بيلوتش الذى نشر مقالتين عن تاريخ السكان فى أوروبا فى مجلة « العلوم الاجتماعية» العدد الثالث (عام ١٩٠٠) · وصدرت بعد ذلك ثلاثة تقييمات هامة للسكان فى أوروبا والعالم استفاد منها كل المؤلفين الآخرين بعد ذلك كمصدر لمعلوماتهم مثل هابك فى كتابه « سكان العصور

الوسطى والحديثة » المعجم اليدوى للعلوم السياسية الدولية ــ الجزء الثانى ــ (الطبعة الرابعة ــ ١٩٢٤) ص ٦٧٠ ــ ٦٨٧ ٠ و أ٠ م٠ كارسوندرز » « سكان العالم (١٩٣٦) ٠ و و ٠ م ٠ ويلكوكس « النمو السكانى فى العالم منذ ١٦٥٠ » وكتاب « الهجرات العالمية» لمؤلفه و ٠ م ٠ ويلكوكس المجلد الثانى ــ ١٩٣١ ص ٣٣ ــ ٨٤ ٠

وثمة دراسات أخرى اقليمية لعدد من البلدان وهى سبيلنا الوحيد للوصول الى صورة أكثر وضوحا ٠ وكشفت هذه الدراسات فى أكثر الحالات عن أن أعداد السكان قديما كانت أعدادا منخفضة الى حد كبير ٠ وقد تم تعديل الأرقام الواردة فى جدول (١) على هذا الأساس ٠

ويبين لنا جدول ٢ حركة السكان فى القرن العشرين ٠ ويمكن الاستفادة منه فى هذا المجال بالاضافة الى المقال الذى أسهم به الأستاذ أ ٠ ف ٠ ك ٠ فى هذا الكتاب تحت عنوان « السكان والسياسة فى اوروبا » ٠ ولم نذكر العدد الاجمالى لسكان أوروبا وذلك لأن الأرقام الواردة كلها أرقام دائرية بالاضافة الى حذف كل الوحدات السياسية الصغيرة التى يقل تعدادها عن ٥٠٠٠٠٠ نسمة واضفنا الى حجم السكان فى كل بلد على حدة معدل النمو السنوى لكل مائة شخص طبقا للمعلومات التى تيسر لنا الحصول عليها عن عامى ١٩٦٠ ــ ١٩٦٢ ٠ وجدير بالذكر أن اثنتين من هذه القيم هما قيمتان سلبيتان ٠

واعتمدنا أساسا فى كتابة الجدول ٢ على المصادر التالية :

« الـكتاب السنوى الديموجرافى لعام ١٩٦١ الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٦١ و « الدليل السكانى » مجلد ٢٩ لعـام ١٩٦٣ المجـلدات السابقة ٠ وكتاب « السكان فى أوروبا فى أعوام ما بين الحربين لمؤلفه دادلى كيرك الصادر عام ١٩٤٦ ٠ وكتاب « الأراضى الفضاء والسكان فى تاريخ العالم » والذى قام بتصنيفه كل من أ٠ كيرشتين ، و أ٠ و٠ بوتشولتس ، و ٠ كولمان ــ المجلد الثانى ــ ١٩٥٥ ٠

ـ جدول ٢ ـ

تعداد السكان فى أوروبا والولايات المتحدة والعـــالم مقدرا بالمليون

السنة ٨	١٩٠٠	١٩٢٠	١٩٤٠	١٩٦٠	آخر نسبة مئوية عن معدل النمو السكانى
العالم (حسب تقدير هيئة الأمم المتحدة	١,٦٠٨	١,٨١١	٢,٢٤٩	٢,٩٩٥	
أوروبا والاتحاد السوفيتى	٢٢٩	٤٨٧	٥٧٦	٦٤١	
بريطانيـــا	٣٧,٠	٤٢,٨	٤٦,٧	٥١,١	٠,٤٧
شمال إيرلنـــدا	٤,٥	١,٢	١,٣	١,٥	٪٣٩
جمهورية إيرلندا		٣,١	٢,٩	٢,٨	٪٥٨
فرنسا	٣٩,٠	٣٩,٢	٤٢,٠	٤٥,٥	٪٩٨
إيطاليـــا	٣٢,٥	٣٧,٩	٤٣,٨	٤٩,٤	٪٦٨
المانيا (عهد الرايخ)	٥٦,٠	٦١,٨	٦٩,٨	٧٣,٥	
المانيا الاتحادية وبرلين الغربية				٥٦,٢	١,٢٣
هولنـــدا	٥,٢	٦,٩	٨,٩	١١,٦	١,٣٥
بلجيكا	٦,٧	٧,٤	٨,٣	٩,١	٪٥٨
دانمـــرك	٢,٥	٣,٣	٣,٨	٤,٦	٪٦١
النرويج	٢,٢	٢,٧	٢,٩	٣,٦	٪٠٩
السويد	٥,١	٥,٩	٦,٤	٧,٥	٪٦٣
فنلندا		٣,٤	٣,٧	٤,٥	٪٨٧
النمسا		٦,٤	٦,٧	٧,٠	٪١٩

السنة	١٩٠٠	١٩٢٠	١٩٤٠	١٩٦٠	آخر نسبة مئوية عن معدل النمو السنوى السكانى
سويسرا	٣,٣	٣,٩	٤,٢	٥,٤	١,٧٥
اسبانيا	١٨,٦	٢١,٣	٢٥,٩	٣٠,٤	٠,٨٤
البرتغال	٥,٤	٦,٠	٧,٧	٨,٩	٠,٥٥
اليونان	٢,٥	٥,٠	٧,٣	٨,٣	٠,٩٤
جملة تعداد الدول غير الشيوعية				٣٠٧,٤	
ألمانيا الديمقراطية وشرق برلين				١٧,٣	٠,٦٢
بولندا		٢٦,٨	٣٤,٨	٣٠,٠	١,٧٣
تشيكوسلوفاكيا		١٣,٦	(١٥,٥)	١٣,٧	٠,٩٨
المجر	١٩,٣	٨,٠	٨ ٩,٢	١٠,٠	٠,٣٢
رومانيا	٦,٧	١٥,٦	٢٠,٠	١٨,٤	١,١٢
بلغاريا	٤,٠	٤,٨	٦,٣	٧,٩	٠,٩٢
ألبانيا		٠,٨	٨ ١,١	١,٦	٣,١١
يوغوسلافيا		١٢,٠	١٥,٩	١٨,٥	١,٠٩
الاتحاد السوفيتى بما فيه آسيا السوفيتية	(١٣٩,٠)	١٣٦,٩	١٧٣,٨	٢١٤,٤	١,٧٢
إستونيا		١,١	١,١		
لاتفيا		١,٦	١,٩		
لتوانيا		٢,١	٢,٦	٨	
جملة الدول الشيوعية				٣٣١,٨	
الولايات المتحدة	٧٦,٠	١٠٥,٧	١٣١,٧	١٧٩,٣	١,٥٨

معدلات الأجور والأسعار دليل على الضغط السكانى فى القرن السادس عشر *

بقلم : أ.هـ. فيلبس براون
و
شيلا . ف . هوبكينز

كان القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر فترة قلق فى تاريخ الحضارة الغربية · وعرفت هذه الفترة بكثرة الأفاقين والمتشردين والمرتزقة من الجنود ؛ وسادها الشك الذى روج له مذهب انكار التعميد وكذلك حركات اليأس ، والشك فى أبسط جوانب العقيدة الدينية · وكان هناك فى الحقيقة خوف مشترك بين عامة الناس وهو الخوف الذى كان شكسبير يشارك فيه غالبية أبناء عصره · واتسع نطاق الفوارق التى تمايز بين دخول

* أعيد نشر هذا المقال عن مجلة « ايكونوميكا » السلسلة الجديدة ــ ص ٢٤ ــ عدد ٩٦ (نوفمبر ١٩٥٧) ص ٢٨٩ الى ٣٠٦ · وقد حذفت منه بعض الفقرات باذن من المؤلفين وهيئة التحرير المشرفة على مجلة ايكونوميكا .. نسخة طبق الاصل ــ ١٩٥٧ ــ بمدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية .

الأفراد • وأسهم هذا في تقويض دعائم التضامن الاجتماعي داخل المدن ، كما أسهم في خلق حالات التوتر السياسي والديني التي تميز بها هذا العصر • ويقدم لنا المقال التالي توضيحا كميا للظروف الديموجرافية التي كانت تقوم عليها الحياة الاجتماعية والسياسية في هذه الفترة •

* * *

سبق لنا أن عرضنا في عدد سابق (١) تقييما أوضحنا فيه أن ما يساوي ملء سلة من السلع الاستهلاكية والتي كان يشتريها عامل البناء الانجليزي بأجره اليومي بدأ يتناقص تدريجيا ابتداء من عام ١٥١٠ حتى انكمش في عام ١٦٣٠ الى ما يساوي خمس ما كان عليه في القرن الخامس عشر • ونظرا لأن عامل البناء كان يعاني من ذلك ، ويمكن النظر اليه باعتباره ممثلا للأجراء غير الماهرين الى حد كبير ، اذن يحق لنا أن نعتقد بأن هذا التدهور لم يكن قاصرا فقط على مجال البناء بل أصاب بالتالي كل الأجراء الآخرين كذلك • ولقد كان الوضع بمثابة كارثة • وعلى قدر علمنا فان ما حدث ليس له مثيل في كل تاريخ الأجور • ورغم ذلك فان المرء قد يقرأ الكثير عن أحداث القرن السادس عشر دون أن يرد أي ذكر لما حدث • وربما كان السبب في ذلك أنه لم يحدث انفجار ضخم يدفع المؤرخين الى البحث عن سبب لنشأته يكمن في ضائقة اجتماعية كبيرة • ترى هل حدث حقا أي شيء بمثل القسوة التي توحي بها الارقام ؟ وان كان قد حدث شيء كهذا فما هو السبب ؟

---

(١) « سبعة قرون من أسعار السلع الاستهلاكية مع مقارنتها بمعدلات اجور عمال البناء » مجلة ايكونوميكا عدد نوفمبر ١٩٥٦ وقد استقيت سلسلة الاجور الواردة فيها من مقالنا « سبعة قرون من أجور البناء » ايكونوميكا ـ اغسطس ١٩٥٥ •

- ١ -

من المؤكد أن أولئك الذين عملوا قبلنا على دراسة موضوعات مماثلة قد وجدوا نفس الشيء ، وعلى نفس الدرجة تقريبا . فقد قال مالتوس على سبيل المثال ـ رغم أنه كان يستخدم فقط أسعار الحبوب ـ في كتابه « مبادىء الاقتصاد السياسى » (٢) مايلى :«ثمة حقيقة واضحة لا يتطرق اليها الشك كانت سائدة منذ أواخر عهد هنرى السابع الى أواخر أيام حكم اليزابيث .. اذ انخفضت ـ لدرجة لم يسبق لها مثيل ـ كميات القمح التى كان يتقاضاها العمال كأجور مقابل عملهم حتى أصبحت فى أواخر القرن لا تزيد على ثلث كمية القمح التى كانوا يحصلون عليها أيام هنرى السابع » .وكان ثورولد روجر أكثر تأكيدا فى حديثه حين قال : « سبق لى (٣) أن بينت أن أولى الحوليات المسجلة قد أشارت الى أن ظروف العامل الانجليزى كانت ـ خـــلال ما يقرب من ثلاثة قرون ـ ظروف رخاء وأمل ، ثم تدهورت بعد ذلك تدهورا شديدا خلال قرن من الزمان ولأسباب مفهومة تماما بحيث أصبح العامل عاجزا للغاية من الناحية العملية . وبلغت ظروفه هذه أحط درجاتها مع نشوب الحرب العظمى بين الملك والبرلمان . » واستخرج كنوب وجونس فى دراستهما عن المعمار دليلا للأجر اليومى للعامل (٤) واستندا فى ذلك على معدل الاجور الذى حددته اكسفورد وكامبريدج ولندن بريدج . وقارناه

---

(٢) ت . د . مالتوس : « مبادىء الاقتصاد السياسى » الطبعة الثانية ١٨٢٦ ـ الباب الرابع ـ ص ٢٢٠ .

(٣) ج . أ . ثورولد روجر « ستة قرون من العمل والاجور » ١٨٨٤ ـ الباب التاسع عشر .

(٤) د . كنوب و ج . ب . جونس « المعمار فى العصر الوسيط » ١٩٣٣ ـ ص ٢٠٤ ـ ٢١٥ وتذييل أ .

بدليل لأسعار الطعام استخرجاه من دراسات ثورولد روجر بأن جمعوا عددا من المجمــوعات تتألف من اثنتى عشرة سلعة ابتداء من القمح الى الحمام وبأوزان متساوية · ووجدوا أن كمية الطعام التى كان فى استطاعة عامل البنـاء أن يشتريهـا بأجره اليومى خـــلال الفترة الواقعة ما بين ١٥٩٣ ـ ١٦٣٢ تعادل من ٣٨ الى ٤٠ فى المائة من كمية الطعام التى كان يشتريها فى الفترة الواقعة بين عامى ١٤٥١ ـ ١٤٧٥ · وفى تقديرنا الخاص أنها تساوى ٤٠٪ من ثمن شراء سلة كاملة من السلع · وقام كلابهام بدراسة أولية اكتشف فيها أن الاجر اليومى للعامل الذى يعمل فى الارض قد تضـــاعف تقريبا خلال القرن السادس عشر بينما ارتفعت أسعار الغذاء الى ما يساوى ستة أمثالها تقريبا : « ويبدو أن هذا شىء يدعو لليأس فقد كان شيئا سيئا للغاية بكل تأكيد · » (٥)

ويمكن لنا أن نضيف الى ذلك دليلا آخر حيث أن القـــوة الشرائية للأجر اليومى لعامل البناء فى فرنسا والالزاس انخفضت خلال هذه الفترة ذاتها بنفس الدرجة تقريبا ·

والأجور والأسعار الفرنسية مأخوذة عن فيكونت دائينيل · وليس من العسير علينا أن نستعيد جداوله المتعلقة بهذا الموضوع(٦) وقد استخرج متوسط الاسعار الذى حصل عليها من هنا ومن هناك من كل أنحاء فرنسا ، وكدس سلعا متباينة للغـاية تحت عناوين واسعة ومبتكرة مثل « الأسماك » أو « المـــلابس » أو « الخمور » ·

---

(٥) سير جون كلا بهام : « الموجز فى تاريخ بريطانيـا الاقتصـــادى » ١٩٤٩ ـ ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ٢١١ ·

(٦) ف · سيميانـد : « ابحـاث قديمـة وحديثـة عن الحركة العـامة للاسعار من القرن السـادس عشر حتى القرن التاسع عشر» ـ ١٩٣٢ ص ١٢٢ ـ ١٢٥ ·

ومع ذلك فقد استطاع أن يجمع قرابة ٥٦٠٠٠ تسـعيرة على مدى ستة قرون ثم أعطانا متوسط هذه الاسـعار موزعا على فترات كل منها ٢٥ عاما • واذا نظرنا الى هذه المتوسطات حسب هذا التوزيع فاننا نجد شيئا من الاتساق في النتائج التى حصل عليها • وثمة مجموعات أخرى أكثر تلاحما واتصالا مأخوذة كل منها من مقاطعة بذاتها مثل مقاطعة بواتو و دوا و ايل دى فرانس (٧) • وقد عرضت هذه المجموعات لتكشف لنا بعض التباين من حيث التوقيت الزمنى لحركات الاسعار ومداها • ولكنها تتلاقى مع غيرها من حيث أنها تكشف عن انخفـاض القوة الشرائية لمعدل الأجور انخفاضا كبيرا خلال القرن السادس عشر • وعندما نجد تشابها كبيرا بين التغيرات التىتشير اليها جداول دافينيل ، رغم أنها غريبة فىذاتها ، والتغيرات التى حدثت في انجلترا والألزاس فاننا نصل الى قاعدة تكون بمثابة شاهد يبرر لنا الاستنتاج التالى : « انه لأمر بعيد الاحتمال أن تصل بنا بيانات خاطئة الى نتائج متماثلة لدرجة مثيرة للغاية • ولكن اذا ما تأكدت صحة هذه البيانات فان من شأنها أن تؤكد لنا النتيجة التى انتهينا اليهـا • وبوسـعنا أن نضيف الى ذلك أن المجموعات الانجليزية بالنسبة للفترة السابقة التى خرجنا بها من المجموعات الانجليزية بالنسبة للفترة السابقة على تاريخ المقارنة المعروضة هنا بوقت قليل أى فى عام ١٤٠١ •

واستقينا الأجور والأسعار الخاصة بمنطقة الالزاس من المجلدين اللذين نشرهما أبيه أنوويه فى عامى ١٨٧٦ ــ١٨٧٨ • وتماثل دراسـته عن الالزاس في جوهرها دراسة توروولد روجر عن جنوب

---

(٧) ح • أ • نيف «الاسعار والرأسمالية الصناعية فى فرنسا وانجلترا» ١٥٤٠ – ١٦٤٠ مجلة التاريخ الاقتصادى – ٧ –١٩٣٧ – واعيد طبعها ضمن « مقالات فى التاريخ الاقتصادى » ١٩٥٤ التى اشرف على اصدارها ا • م كاروس ويلسون •

انجلترا التى استخرجها آنذاك من الحسابات الموجودة بأرشيف كولمار وبال خاصة حسابات الأديرة والمستشفيات وسجلات المجالس البلدية والتقارير الخاصة بحالة الأسواق · ونشر كل ما حصل عليه تفصيلا مع بعض التعليقات التى تتسم بالحذر والحرص ، ولكن تسجيلاته عن أسعار القرن الخامس عشر ناقصة وقليلة فيما عدا أسعار الحبوب ، كما وأن تسجيلاته عن الأجور لا تتعدى عام ١٦١٠ ·

ومعدلات الأجور التى استخدمناها هنا هى أجور ثلاثة أنماط من الحرفيين فى فرنسا هم البناءون والنجارون وعمال النقش والطوب والبياض ــ وعمال البناء والنجارة فقط من الالزاس · والأجور التى أشرنا اليها فى كلتى المنطقتين هى الأجور اليومية دون حساب لمصاريف الأكل ·

ولكى نتتبع حركة أسعار السلع الاستهلاكية فقد راعينا بدقة وبقدر المستطاع تشابه العناصر التى تتكون منها الوحدة المركبة التى استخدمناها فى انجلترا ، ماعدا الوحدة التى تتعلق بالمشروبات حيث كانت تعنى فى انجلترا فى أكثر الأحوال (الملت) بينما كانت تمثل فى فرنسا والالزاس النبيذ فقط · لذلك فقد حولنا عشر نقاط من ٢٢½ نقطة من وزنها الى المواد النشوية · وفضلا عن ذلك فلم يكن بين أيدينا بالنسبة لمنطقة الالزاس قوائم كافية عن الأسماك أو الجبن أو النسيج · وكان عدد العناصر التى تتكون منها هذه المجموعات أقل بوجه عام من عددها فى انجلترا · ولم تكن كل هذه العناصر التى تتكون منها هذه المجموعات من السلع التى يتيسر الحصول عليها فى كل وقت على مدى القرون الثلاثة ·

ولكن الأجر اليومى لعامل البناء فى كل هذه البلدان الثلاثة كان مع نهاية القرن السادس عشر لا يساوى الا أقل من نصف ما كان يشتريه العامل بهذه القيمة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر · وكان هذا الهبوط فى القيمة الشرائية فى فرنسا

والألزاس أكبر منه فى انجلترا . وتتفق مجموعات الأسعار فى انجلترا والألزاس فى بيانها لهذا التدهور الحاد فيما بين عامى ١٥٠٩ و ١٥١٣ . أما المجموعات الانجليزية والفرنسية ، وهى المجموعات الوحيدة التى تيسر لنا الحصول عليها لما بعد عام ١٦٠٥، فانها تتفق معا فى الاشارة الى توقف الاسعار عن التدهور حتى عام ١٦٠٠ ثم ظهور بعض الانتعاش فيما بعد عام ١٦٣٠ .

وها هنا نجد بعض الأسباب القوية التى تبرر لنا الاعتقاد بان وضع عامل البناء فى المناطق الثلاث قد ساء لدرجة محزنة . ولكن هل ساء وضعه حقا بنفس القدر الذى توحى به تقديراتنا ؟ ان المناقشة السالفة أعطتنا بعض الأسباب التى تدعونا الى الاعتقاد بأننا بالغنا فى ذلك . اذ أن بعض المنتجات مثل الخبز والبيرة لم ترتفع أسعارها بنفس القدر الذى ارتفعت به أسعار الحبوب والملت : مع أنه من المفروض أن ثمن الرغيف مثلا لا يغطى فقط تكاليف الحبوب بل يغطى كذلك أجور طحنه ونقله وخبزه . ولكن نظرا لأن أسعار هذه العمليات كلها لم ترتفع بنفس القدر الذى ارتفعت به أسعار الحبوب فان سعر الرغيف لم يرتفع بالتالى بنفس القدر . وهذه نقطة هامة . فلو أن الأثمان التى كان يدفعها العامل الأجير عند شرائه بالتجزئة تساوى ثلثى تكاليف الجملة للطعام والمواد الاساسية والثلث الآخر للأجور فان الدليل الانجليزى لأسعار التجزئة الذى يتخذ من عامى ١٤٥١ ــ ١٤٧٥ سنة أساس نبدأ من ١٠٠ سيرتفع الى ٣٨٠ فقط مع نهاية القرن السادس عشر بدلا من ٤٧٥ كما هو مبين فى دليلنا . ومن ثم فان سلة السلع ستصل الى مايربو على ٥٠٪ من حجمها الأصلى بدلا من ٤٠٪ . ولقد شهد القرن السادس عشر تقدما هاما فى طرق التصنيع . وكل هذه الأمور توضح لنا السبب فى أن كمية النقود والتى تعادل مصاريف الأكل اليومى لعامل البناء والتى تم ادراجها ضمن الحسابات الانجليزية ارتفعت من ٢ شلن عام ١٤٩٥ الى ما لايزيد عن ٥ شلن فى عامى

١٥٩١ ـ ١٦١٠ ، بينما كان يجب أن ترتفع لتصل الى ٩½ شلنا اذا كان لابد لها وأن تساير ارتفاع الأسعار حسب ما هو وارد فى دليل الأسعار الذى قدمناه نحن . ومن الممكن كذلك أن نجد الدخل السنوى النقدى فى انجلترا وقد زاد كثيرا عن المعدل اليومى الذى ذكرناه . وذلك لأن العمال تكاتفوا من أجل خفض ساعات العمل وكمية العمل المحددة يوميا ، ومن ثم أمكنهم الحصول على مزيد من الأجر الاضافى . وثمة سبب آخر وهو خفض عدد أيام الأجازات حسب ما قرره نظام الاصلاح ـ ويقدر كنوب وجونس أن كل هذه الاجراءات قد زادت من عدد أيام العمل فى السنة بما يساوى الخمس .

لذلك فان مايعادل الأجر السنوى للأجير من سلع التجزئة انخفض كما هو وارد فى دليلنا عما يعادل الأجر اليومى للأخير من المواد الغذائية والمؤن بسعر الجملة . ورغم ذلك فان هبوط الأسعار يظل كبيرا جدا ولا يزال يطرح علينا مشكلة البحث عن السبب فى عدم حدوث أى اضطراب . وربما يرجع السبب جزئيا الى أن هذا الهبوط انما كان هبوطا من مستوى مرتفع للمعيشة فانه رغمضخامته فقد ظل الأجير قادرا على أن يقيم أوده . وقد أشار مالتوس (٩) الى ذلك بقوله : « ان الأجور التى يشق علينا فهمها قبل غيرها هى أجور القمح المرتفعة فى القرن الخامس عشر قبل أجور القمح المنخفضة فى القرن السادس عشر » . ولكن تبقى بعد ذلك أهم نقطة يجب أن نوليها اهتمامنا وهى أن كثيرا من الأجراء كانوا يمتلكون أرضا وكانوا يزرعون جزءا كبيرا لطعامهم الخاص . ولولا ارتفاع قيمة الايجار لما وقعوا فى حالة الفاقة المتزايدة . وكان هناك تدرج يبدأ من المالك الصغير الذى يكتفى ذاتيا وقد يؤدى أحيانا بعض الأعمال الموسمية

(٩) المبادىء ــ الطبعة الثانية ، ص ٢٤٢ .

ليزيد من دخله ، الى العامل الذى يعتمد أساسا على أجره ولكنه يزرع قطعة أرض الى جانب ذلك وينتهى بالعامل المعدم · ومن ثم فان هذا الأخير هو الذى أحس بوطأة العاصفة وحده ·

ولقد كانت عاصفة حقا · وليس ثمة شك على ما يبدو فى أننا كنا نواجه حالة فقر متزايدة · اذ أن مستوى المعيشة فى قطاع معين من السكان العاملين فى منطقة تمتد من الراين الى التيمس ، كان يتدهور باطراد على مدى قرن من الزمان أو يزيد · ويندر أن نجد مثيلا لذلك فى أى زمن آخر · ولكن لماذا حدث هذا فى تلك الفترة بالذات ؟

— ٢ —

وجد ثورولد روجرس « أسبابه المعقولة تماما » فى اسلوب الطبقة الحاكمة الذى كان يتعمد استغلال العامل وقهره · ولكن هل لنا أن نتصور وجود مثل هذه السياسة فى كل من المناطق الثلاث ، وأنها أدت الى نفس النتيجة خلال هذه الفترة ذاتها ؟

ولكن مالتوس وجد أن السبب يرجع الى عامل آخر ظهر فى عدد من المناطق فى وقت واحد · وقال فى هذا الصدد (١٠) : كانت الأجور فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، والتى كانت تقدر عينيا بالقمح ، أجورا غير عادية ومن ثم لم يكن من المستطاع أن تكون أجورا ثابتة ودائمة · ولا يتضح لنا ذلك فقط عن طريق مقارنتها بالعهود السابقة أو اللاحقة على هذه الفترة ، وانما أيضا عندما نضع فى اعتبارنا كميتها العملية · فالايراد الذى يعادل فى قيمته نصف بوشل من القمح يوميا كان يمكن لصاحبه أن

(١٠) المبادىء — الطبعة الثانية — ص ٢٤٢ ·

يتزوج فى سن مبكرة وأن يعول أسرة كبيرة • وهذه الكمية تعادل نفس دخل العامل فى الولايات المتحدة •• واذا وضعنا فى الاعتبار ارتفاع أجور القمح فى تلك الفترة ارتفاعا غير مألوف ، وأنهـا اذا انخفضت فلابد وأن تنخفض تدريجيا اذن فلابد وأن العامل المؤثر كان له تأثيره القوى والمستمر طوال فترة طويلة خلال هذا القرن • وارتفعت الأصوات التى تضج بالشكوى من التخلخل السكانى فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر بينما أصـبحت الوفرة الزائدة عن الحاجة من السكان من الأمور المعترف بهـا فى نهاية القرن السادس عشر • والحقيقة أن هذا التغير فى حالة السكان وليس اكتشاف المناجم الأمريكية ، هو الذى هيأ الظروف لخفض أجور العمل التى يتقاضاها العمال عينيا على هيئة قمح ، انخفاضا ملحوظا •

ونحن نعرف على الأقل أنه كان من الممكن فى تلك الفترة أن تطرأ زيادة على السكان • وسبق أن أشير وبتحفظ كبير الى أن تعداد سكان انجلترا وويلز كان يتراوح ما بين ٢½ و ٣ مليون نسمة حوالى عام ١٥٠٠ كما يشار بنوع من التأكيد الى أن هذا التعداد قد وصل فى عام ١٧٠٠ (١١) الى ٥ر٨ مليون نسمة • ومعنى هذا أن تعداد السكان ازداد بما يقرب من الضعف خلال قرنين من الزمان •

وليس لزاما علينا أن نسلم بتقدير مالتوس للسبب المباشر لنمو السكان فى القرن السادس عشر • والحقيقة أن السـجلات

---

(١١) كلابهام : نفس المرجع المذكور — ص ٧٨ ، ١٨٦ —

الموجودة بين أيدينا عن تعداد السكان فى النرويج والسويد فى القرن الثامن عشر تتفق مع السجلات الخاصة بانجلترا وويلز من حيث الاشارة الى أنه « فى الوقت الذى ارتفعت فيه نسبة المواليد فقد انخفضت نسبة الوفيات » (١٢) وهذه الحقيقة تدعم الاكتشافات الخاصة بكل بلد على حدة ، كما توحى لنا بوجود سبب مشترك . اذ ربما يكون انخفاض نسبة العدوى بالجراثيم أو الفيروس تفسيرا محتملا يفسر لنا انخفاض نسبة الوفيات التى تحدث فى نفس الوقت تقريبا فى عديد من البلدان ذات الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية المختلفة . وهذا من شأنه أن يوعز الينا برأى عن القرن السادس عشر . فلو كان الايراد المرتفع هو الذى أدى حقيقة الى زيادة السكان عن طريق الزواج المبكر ، اذن يلزم علينا أن نفسر لماذا ظلت تلك الأجور كما هى تقريبا طوال تسعين عاما ، أى من عام ١٤٢٠ الى عام ١٥١٠ (١٣) على وجه التقريب ، دون أن يكون لأثرها على السكان اى رد فعل عليها . والامكانية البديلة هى انخفاض نسبة الوفيات وأن السبب فى انخفاضها عامل آخر غير عامل الدخل.

ولو افترضنا حدوث زيادة كبيرة فى السكان فى انجلترا فى أوائل القرن السادس عشر فاننا نستطيع أن نرى كيف يمكن أن تترتب عليها تلك النتائج التى نراها الآن حقيقة واقعة . فلقد زاد ناتج الطعام والصوف فى بعض المقاطعات بفضل استخدام طرق

---

(١٢) أ . م . كارسوندرز: « سكان العالم » ص ٦٢

(١٣) فيلبس براون وهوبكينز : سبعة قرون عن أسعار السلع الاستهلاكية مع مقارنتها بمعدلات الاجور « مجلة ايكونوميكا ـ نوفمبر ١٩٥٦ .

مختلفة ؛ ولكن لم يكن لنا أن نتوقع أبدا أن تحقق الزراعة أى توسع سواء أكان توسعا أفقيا أم زيادة فى كثافة الانتـاج بحيث ترفع من قوة العمل أو تزيد من ناتجه بما يتناسب مع زيادة تعداد السكان . ومن ثم كان لابد للفـائض من قوة العمل أن يتجه الى حيث يجد مجالا له فى ميدان العمالة الصناعية . وبذلك يرتفع ناتج الانتاج الصناعى ويجد الفائض من قوة العمل نصيبه من هـذا الانتاج ليستبدل به الطعام الذى يتيسر له الحصول عليه . الا أن هـذا الطعام لم تزد كمياته بنسبة كبيرة . اذ كان ثمة حالة من الضغط وبالتالى فان الأعمال التى كان عليها أن تتحمل العبء هى تلك التى كان يتنافس عليها هذا الفائض الذى يعانى الفاقة من حين لآخر . تلك كانت نظرة كلا بهام . وقال فى ذلك (١٤) : « نشأت المشكلة الرئيسية من زيادة تعداد السكان فى المجتمع الريفى الذى لم تزد فيه الحيازات الزراعية المتنـاثرة . ومن ثم فان كثـيرا من الأفواه الوليدة اتجهت الى العاصمة أو المدن أو تعلقت بأى عمل تجارى فى الأقاليم . وتشرد البعض فى الطرقات أو عرف طريقه الى الجريمة . وحاول كل من يستطيع من أفراد الأسرة أن يقوم بأى عمل جانبى يتيسر له الحصول عليه ليضيف به الى دخل الأسرة شيئا ما .. مثل العمل فى صـناعة الغزل أو صناعة المسـامير أو أى عمل آخر ميسور له . وعمل الباقون مقابل أى أجر يحصلون عليه .. » .

ولوكان الضغط السكانى هو السبب الذى يكمن وراء انخفاض القوة الشرائية لمعدل الأجور اذن فان ما حدث عقب نهاية هذا القرن من توقف القوة الشرائيـة عن الانخفاض لا بد وأن يعنى الضـغط السـكانى قد خفت حدته وثمة دلائل تشير الى حدوث مثل هـذا . وأشار الى ذلك د . س . كولمان حين قال : « لقد طلع علينا القرن السابع عشر أثر مجاعة ١٥٩٦ ـ ١٥٩٧ . ومن ثم أتى معه بالطاعون

---

(١٤) نفس المرجع . ص ٢١١

الذى تفشى من جديد وبصورة قاسية فضلا عن مزيد من نقص المحاصيل والحرب وسوء الظروف المناخية وغير ذلك من العوامل التى ساعدت على زيادة نسبة الوفيات وانخفاض معدل النمو السكانى انخفاضا واضحا » (١٥) · وربما كان قد تغير أيضا الجانب الآخر من الميزان وسارت عملية التوسع الزراعى فى نفس الاتجاه سواء من حيث عدد الأيدى العاملة التى يمكن استيعابها أو من حيث معدل انتاج الفرد أو كليهما معا ·

وتفسيرنا هذا لعملية تدهور القوة الشرائية أو ثباتها يوحى ضمنا بوقوع تغيرات بالنسبة لشروط التجارة بين الزراعة والصناعة : اذ نتوقع مع زيادة الضغط السكانى أن تتحرك هذه الشروط لغير صالح الصناعة ، وعندما يتوقف هذا الضغط فاننا نتوقع أن تتوقف هذه الحركة أيضا · ويمكن لنا أن نضيف دليلا نؤكد به أن هذا هو ما حدث بالفعل وبشكل واضح تماما فى كل من المناطق الثلاث خلال نفس الفترة التى تدهورت فيها القوة الشرائية لمعدل الأجور، اذ سارت الأسعار فى حركة متميزة تماما عن عملية الارتفاع العامة التى حدثت أثناء هذه الفترة عن طريق زيادة الوارد من الفضة ونقص كمية الفضة التى تحتوى عليها العملة · وقد تتبعنا هذه الحركة على النحو التالى : أخذنا دليل أسعار المكونات الغذائية للوحدة السلعية المحدودة وذلك بالنسبة لكل أقليم على حدة ثم قسمناها الى دليل لأسعار الوقود والاضاءة والنسيج (باستثناء الألزاس) وهى العناصر التى تتكون منها الوحدة السلعية بالاضافة الى بعض مواد البناء والمعادن مثل الآجر والجير والحديد والرصاص فى الألزاس ؛ والخشب والبغدادلى والقرميد المسطح والآجر مع الرصاص والقصدير فى جنوب انجلترا ؛ وفى فرنسا لم ندرج مواد

(١٥) د · س · كولمان : « العمل فى الاقتصاد الانجليزى خلال القرن السابع عشر » · مجلة التاريخ الاقتصادى ٨ ، ٣ ، ابريل ١٩٥٦ ·

البناء ضمن هذه السلعة واكتفينا بالحديد والنحاس والرصاص ٠ ويشير نقص ناتج القسمة فى كل من البلدان الثلاثة الى مدى ارتفاع أسعار المواد الغذائية أكثر من ارتفاع أسعار العينة التى ضربنا بها المثل فى منتجاتنا الصناعية ٠ ويدل فى نفس الوقت على أن القوة الشرائية لمعدل أجر عامل البناء قد بدأت فى الانخفاض ٠ ويستمر الوضع على هذا النحو حتى نرى أن كمية الأطعمة فى المناطق الثلاث التى تساوى وحدة من المنتجات الصناعية ويمكن استبدالها بها ستصبح أقل من نصف ما كانت عليه عام ١٥١٠ ٠ ثم يثبت معدل الهبوط عند نهاية القرن وهو نفس الوقت تقريبا الذى تتوقف فيه القوة الشرائية لمعدل الأجور عن الانخفاض ٠ ويشير كل من الدليلين سواء فى انجلترا أو فى فرنسا الى ارتفاع واضح بعد عام ١٦٤٠ ٠ ومن الواضح أن انكماش كمية الطعام التى كان يحصل عليها الأجير وهى ما تساوى ملء سلة انما يرجع من ناحية على الأقل الى التغير الذى طرأ على شروط التجارة بين الورشة والمزرعة ٠

جـدول (رقم ٢)

الألزاس وجنوب انجلترا وفرنسا . دليل لكل من :

١ – سعر الوحدة المركبة للمواد الغذائية .

٢ – سعر عينة من المنتجات الصناعية .

٣ – كمية الأطعمة التي يمكن استبدالها بوحدة من المنتجات الصناعية الواردة في العينة المذكورة . أي ٢ ÷ ١ في القرن ١٥، ١٦، ١٧ .

١٤٥١ – ١٤٧٥ = ١٠٠

السنة	الألزاس (١)	الألزاس (٢)	الألزاس (٣)	انجلترا (١)	انجلترا (٢)	انجلترا (٢)	فرنسا (١)	فرنسا (٢)	فرنسا (٣)	
١٤٠١–١٤١٠	–	–	–	١١٥	١٠٧	٩٣				
١٤١١–١٤٢٠	٩٩	١١٠	١١١	١١١	١٠٧	٩٦	١٤٠	١١٠	٧٩	١٤٠١–١٤٢٥
١٤٢١–١٤٣٠	١١٠	١٠٧	٩٧	١٠٧	١٠٨	١٠١				
١٤٣١–١٤٤٠	١٢٧	١١٣	٨٩	١١٨	١٠٦	٩٠	١٥٦	١١٧	٧٥	١٤٢٦–١٤٥٠
١٤٤١–١٤٥٠	١١٨	١١٧	٥٩	٩٥	١٠١	١٠٦				
١٤٥١–١٤٦٠	١١٣	١٠٣	٩١	٩٨	٩٩	١٠١				
١٤٦١–١٤٧٠	٩٨	٩٨	١٠٠	١٠٥	١٠٣	٩٨	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٤٥١–١٤٧٥
١٤٧١–١٤٨٠	٩٥	٩٩	١٠٤	٩٣	١٠٠	١٠٨				
١٤٨١–١٤٩٠	١٢٧	١٠٠	٧٩	١٢١	١٠٣	٨٥	١٣٢	١٢٥	٩٥	١٤٧٦–١٥٠٠
١٤٩١–١٥٠٠	١٢٠	٩٢	٧٧	١٠٠	٩٧	٩٧				
١٥٠١–١٥١٠	١٠٨	٨٩	٨٣	١٠٦	٩٨	٩٢				
١٥١١–١٥٢٠	١٣٤	٩٢	٦٩	١١٦	١٠٢	٨٨	١٦٨	١٥١	٩٠	١٥٠١–١٥٢٥
١٥٢١–١٥٣٠	١٤١	٩٤	٦٧	١٥٩	١١٠	٦٩				
١٥٣١–١٥٤٠	١٥٧	١٠١	٦٤	١٦١	١١٠	٦٨	٢٧٦	١٩٤	٧٠	١٥٢٦–١٥٥٠
١٥٤١–١٥٥٠	١٨٨	١١٥	٦١	٢١٧	٢٢٧	٥٩				

السنة	الألزاس			انجلترا ٨			فرنسا ٨			
	(١)	(٢)	(٣)	(١)	(٢)	(٣)	(١)	(٢)	(٣)	
١٥٥١—١٥٦٠	٢٢١	١٤٠	٦٣	٣١٥	١٨٦	٥٩				
١٥٦١—١٥٧٠	٢٨٠	١٥٦	٥٦	٢٩٨	٢١٨	٧٣	٤٤٩	٢٤٥	٥٥	١٥٥١—١٥٧٥
١٥٧١—١٥٨٠	٣٧٦	١٨٣	٤٩	٣٤١	٢٢٣	٦٥				
١٥٨١—١٥٩٠	٤٥٣	٢٠٤	٤٥	٣٨٩	٢٣٠	٥٩	٨٥٣	٣٨٥	٤٥	١٥٧٦—١٦٠٠
١٥٩١—١٦٠٠	٥٠٧	٢٣١	٤٦	٥٣٠	٢٣٨	٤٥				
١٦٠١—١٦١٠	٤٩٤	٢٧١	٥٥	٥٢٧	٢٥٦	٤٩				
١٦١١—١٦٢٠	٥٤٠	٣١٦	٥٩	٥٨٣	٢٧٤	٤٧	٧٢٩	٣٣٥	٤٦	١٦٠١—١٦٢٥
١٦٢١—١٦٣٠	١٠٥٧	٤٢٥	٤٠	٥٨٥	٢٦٤	٤٥				
١٦٣١—١٦٤٠	١١٦٩	٣٤٨	٣٠	٦٨٧	٢٨١	٤١	١٠٩١	٤٦٦	٤٣	١٦٢٦—١٦٥٠
١٦٤١—١٦٥٠	٦٦٨	٤١١	٦٢	٧٢٣	٣٠٦	٤٢				
١٦٥١—١٦٦٠	٤٤٨	٣٧٦	٨٤	٦٨٧	٣٢٧	٤٨				
١٦٦١—١٦٧٠	٤٥٣	٣٥٣	٧٨	٧٠٢	٣٤٣	٤٩	٩٨٠	٥٦٩	٥٨	١٦٥١—١٦٧٥
١٦٧١—١٦٨٠	٦١٦	٣٧٦	٦١	٦٧٥	٣٥١	٥٢				
١٦٨١—١٦٩٠	٥٨٨	٤٥٦	٧٨	٦٣١	٣١٠	٤٩	١٠٦٧	٥١٩	٤٩	١٦٧٦—١٧٠٠
١٦٩١—١٧٠٠	٨٨٩	٥٤٢	٦١	٧٣٧	٣٣١	٤٥				

ويشبه تغير شروط التجارة التغير الذى طرأ على سلة الطعام ليس فقط من حيث الاتجاه والتوقيت بل كذلك من حيث الحجم . ويمكن لنا أن نخرج بالنتيجة التالية : ان أسعارنا للمنتجات الصناعية لم تسلك طريقا مخالفا لطريق معدل الاجور . وهذا هو ما حدث بالفعل فى كل بلد من البلدان الثلاثة على الأقل فى هذا الاتجاه بحيث أنها رغم ارتفاعها عن معدل الاجور الا أنها لم ترتفع مثل ارتفاع أسعار الطعام . وهذا هو ما كان عليه الوضع عام ١٦٠١ ـ ١٦٢٠ مع اعتبار فترة الاساس ١٤٥١ ـ ١٤٧٥ = ١٠٠٪ ـ

دليل	الألزاس	جنوب انجلترا	فرنسا
أسعار مواد الغذاء	٥١٧	٥٥٥	٧٢٩
أسعار بعض المنتجات الزراعية	٢٩٤	٢٦٥	٣٣٥
معدل أجور عمال البناء	١٥٠	٢٠٠	٢٦٨

ويجب علينا ونحن نتأمل العلاقة بين السطرين الاخيرين أن نضع فى اعتبارنا أن جانبا من تكاليف المنتجات الزراعية، باعتبارها موادا خاما ، دخل ضمن أسعار الوقود والاضاءة والنسيج. ونستنتج من ذلك أن انكماش سلة الأجير انما كان يرجع أساسا الى تغير شروط التجارة بين الورشة والمزرعة . اذ ربما كان الأجير يأتى بغية الحصول على نصيب أقل من انتاجه الصناعى ؛ الا أن ما فقده بهذه الطريقة انما هو جزء ضئيل اذا ما قارناه بما يمكن أن يفقده لو أنه أتى ليستبدل انتاجه بمواد غذائية .

ويترتب على ذلك أن كينز قد ضل طريقه حينما كان يناقش فى رسالته (١٦) الارتفاع العام فى الأسعار ورأى أنه كان حافزا للنمو الصناعى بأن وسع من حدود الربح الناتج عن فروق البيع والشراء . وكما أشار نيف(١٧) عام ١٩٣٧ فان الأرقام التى استند اليها كينز تشير الى حدوث انكماش فى المواد الغذائية الخاصة بسلة الأجراء الصناعيين أكثر مما تشير الى حدوث أى توسع فى الحد الفاصل بين أجره وسعر انتاجه .

ومن ثم فان النظرية القائلة بأن الضغط السكانى كان يمثل جذر انخفاض القوة الشرائية لمعدل الاجور تجد ما يدعمها فى حركة شروط التجارة بين المزرعة والورشة فى كل من المناطق الثلاث التى ذكرناها هنا . وجدير بالذكر أن الورشة والمزرعة لم يكونا آنذاك متمايزتين بنفس القدر كما هما الآن ، ولكن ما نشاهده هو أن النمو السكانى هو الذى يدعم هذا التمايز أكثر فأكثر . واذا كنا نعنى بالاجير الشخص الذى يعتبر دخله العينى من أى أرض يشغلها دخلا ثانويا بحيث تتوقف معيشته على أجره أساسا ؛ اذن فاننا نؤمن بما يشار اليه عادة وهو أن ما يقرب من ثلث سكان انجلترا فى النصف الاول من القرن السادس عشر كانوا أجراء . لقد كانوا كما يقول كلابهام(١٨» فى طريقهم ليصبحوا فئة اجتماعية لها خطرها مقدرا لها أن تشكل فيما بعد ، وقبل نهاية القرن التالى ، غالبية المجتمع. ان وجود أكثرية من الأجراء المعدمين ـ بنسبة أربعة تقريبا من بين كل خمسة من سكان بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا ـ انما كان

---

(١٦) ج . م . كينيز : رسالة عن النقود . ١٩٣٠ مجلة ٢. فصل ٣
(١٧) نفس المرجع .
(١٨) نفس المرجع ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

النتيجة المترتبة على الضغط السكانى . ان العمل بالأجر ليس هو المصير الذى يبحث عنه الناس لذاته ، لذلك فليس لنا أن نتوقع أن يعمل الكثيرون من سكان انجلترا وويلز كعمال أجراء وقتما كان مجموع كل سكانهما لا يتعدى ثلاثة ملايين فقط ، تماما مثل ما هو حادث الآن بالنسبة لأى مستعمرة حديثة أو مجتمع من مجتمعات ما وراء الحدود التى نشأت فى الاعوام الاخيرة . ولكن مع تزايد عدد السكان ، يتزايد باطراد عدد من يفشلون فى حيازة قطعة أرض أو مأوى ، ومن ثم أصبح لزاما عليهم أن يبحثوا عن مكان لهم » . ومع نمو الصناعة وجدت خاماتها البشرية من بين هذه الطبقة العريضة من الأجراء ذات الثقل الاجتماعى من حيث وفرة عددها وهى الطبقة التى تعتبر من الخصائص المميزة لعصر الصناعة . ولكن عصر الصناعة لم يخلق هذه الطبقة بل هيأ لها أعمالا لتشغلها .

عنينا فى دراستنا هذه بحالة الفقر التى أصابت الاجير . والجانب الآخر من العملة هو ثراء أولئك الذين كانوا يبيعون غلة المزرعة أو كانوا يؤجرون مزارعهم ويرفعون قيمتها الايجارية حسب هواهم . ان تكاليف العمل (اذا كان عامل البناء هو الممثل لذلك) وتكاليف بعض المنتجات الصناعية الرائدة كانت تصل الى نصف أسعار المواد الغذائية . ولا شك أن هذا التغير الشامل العميق لابد وأنه أدى الى تحول فى الدخول الحقيقية لاولئك الذين كان فى استطاعتهم الحصول على نصيب من الاجور الحقيقية المرتفعة مقابل العمل فى الزراعة .

***

(يمكن للقارىء اذا شاء الاستزادة بحجج أخرى عن الضغط السكانى فى انجلترا أن يرجع الى : ى.س. برينر «تضخم الاسعار

فى انجلترا فى أوائل القرن السادس عشر » • مجــلة التــاريخ الاقتصادى ـ الفصل الرابع عشر (١٩٦١ـ ١٩٦٢) ص ٢٢٥ ـ ٢٣٩ ويمكن الرجوع الى برنتس سيترلنج فى كتابه «السوقة عندشكسبير» ١٩٤٩ الذى يتحدث فيه عن خشية عديد من الكتاب المعاصرين من تنظيم الجماهير ضد السلطة المدنية والملكية الخاصة • وفى نفس الوقت أثرى منتجو المواد الغذائية بهدف بيعها فى السوق • وخلال هذه الفترة لم يقتصر الثراء على الاغنياء وحدهم بل امتد الرخاء الى أبناء الطبقة المتوسطة من الفلاحين • وكان هناك نشاط واسع فى ميدان البناء داخل الريف على أيدى كبـار المزارعين وملاك الاراضى والاعيان أكثر مما كان عليه الوضع منذ القرن الثالث عشر • وكانت الاكواخ أكبر حجمــا من الاكواخ القــديمة وتميزت بأنهـا أكثر راحة من حيث تأثيثها كما أوضح ذلك و•ج• هو سكينز فى كتابه: « تجديد الريف الانجليزى فيما بين عامى ١٥٧٠ ـ ١٦٤٠ » مجلة الماضى والحاضر عدد ٤ ـ نوفمبر ١٩٥٤ ـ ص ٤٤ ـ ٥٩ • ويمكن الرجوع الى أنجريد هامرستروم بخصوص تخلف الاجور عن الاسعار فى السويد فى : « ثورة الاسعار فى القرن السادس عشر » مجلة التاريخ الاقتصادى عدد ٥٠ ـ (١٩٥٧) ص ١١٨ ـ ١٥٤ •)

وأصبح قطع الطرق والاضطرابات المدنية داء متوطنا فى كل من كاتالونيا وجنوب فرنسا وعمت كل أرجاء ايطاليا وزادت بوجه خاص فى جنوبها وكذلك فى الامبراطورية العثمانية • وفى كتاب «البحر الابيض المتوسط وعالمه فى عصر فيليب الثانى» ١٩٤٩ يشير مؤلفه فيرناند بروديل الى البؤس الذى انتشر على نطاق واسع بين

السكان الذين زاد تعدادهم عن الحد فى النصف الثانى من القرن السادس عشر . وكانت المدن الايطالية تعـانى المزيد من المشاكل بالنسبة لتزويدها بالغذاء . وفى عـام ١٥٨٩ روج بوتيرو لافكاره المتشائمة عن التضخم السكانى والتى سبق فيها مالتوس من نواح كثيرة .

وثمة سجلات عن أجور عمال الحـديد فى بافاريا تسمح لنا بتصنيف مجموعات كاملة من الاجور خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٥٥٤ ـ ١٦٦٠ . وتبين لنا هذه السـجلات أن الدخل الحقيقى لفترة عمل كاملة قد انخفض الى نصـف قيمته الاصلية وبلغ أدنى مستوى له فى أعوام ١٦٠٥ ـ ١٦٣٠ . ثم بدأت الاجور الحقيقية ترتفع بعد ذلك حتى وصلت عـام ١٦٦٠ الى النقطة التى كانت قد بدأت تنخفض عندها منذ قرن سابق . (انظر فرانز ميشيل ريس) تطور أسعار المواد التموينية والاجور والدخل الحقيقى من ١٥٥٤ الى ١٦٦٠ . الكتاب السنوى شمولر ٨٢ (١٩٦٢) ٥٩ ـ ٦٥) .

وفى جنوب غرب ألمانيا ، وربما فى ألمانيا الوسـطى ولكن لدرجة أقل ، كانت هنـاك أعداد غفيرة من الشحاذين والمتشردين والعاطلين . وكان هؤلاء يمثلون مشكلة ضاغطة على المدن . وزاد عدد السكان فى ألمانيا الوسطى فى القرن السادس عشر بنسبة ٦٠٪ ـ وكانت الزيادة حوالى ٣٥٪ فى النصـف الأول و ٢٥٪ فقط من النصف الثانى ؛ وهو أمر يثير الاهتمام ؛ وذلك حسب التقديرات النابهة التى عرضها فرينز كورنر فى كتابه : « الزيادة السكانية والضغط السـكانى فى وسط أوروبا حتى بداية العصر الحديث » فورشنجن وفورتشرايت ص ٣٣ (١٩٥٩) عدد ـ ١١ ـ ص ٣٢٥ ـ ٣٣١ . ولقد كانت هذه الزيادة مخيفة وكان ما يقرب من ٨٠٪ من

السكان يعتمدون على الزراعة . وسرعان ما بدأت الملكيات الزراعية فى الريف تتفتت وأدى ذلك الى نشوء مزارع أصغر حجما يوما بعد آخر طبقا لما كان يقتضيه قانون الملكية . ونظرا لان القانون السائد كان يمنح الابن الاكبر حق امتلاك جميع الميراث وحده فان الفائض من السكان كان يجد نفسه مضطرا الى احدى اثنتين اما أن يعمل تابعا لملاك الارض أو أن ينزح بعيدا عنها .

وفى القرن السادس عشر شهدت بلدان أوروبا زيادة كبيرة فى السكان . ولكن لم يؤد ذلك الى نتيجة واحدة متماثلة فى كل مكان . ففى هولندا سرعان ما عادت الاجور الحقيقية الى ما كانت عليه بعد أن اتسع مجال الاقتصاد الهولندى وازدهر .)

(هذه الملاحظة بقلم الناشر)

السكان والمجتمع في النظام القديم (١)

بقلم : هربرت موللر

تغير المناخ الخلقى والاجتماعى لأوروبا تغيرا حاسما معانحسار الحروب الدينية والاهلية . وتميزت الاعوام الاولى لمنتصف القرن السابع عشر حتى عشية الثورة الفرنسـية بأنهـا فترة استقرار اجتماعى لحكومات قوية ومطلقة . وسادت فيهـا الأخلاقيات المهذبة بين الطبقات الراقية كما كانت فترة تنوير لعقول المثقفين . وأصبح التسامح الدينى والسلام والاتجاهات الانسانية هى القيم المسلم بها على نطـاق واسع . ويتناول المقـال التـالى الوقائع الاجتماعية والاقتصادية التى كان يرتكز عليها الى حد كبير نظام الدولة القديم وثقافته المستنيرة ، ويرجع الى الوضع الديموجرافى المعاصر .

– ١ –

فوجىء الاداريون العسكريون فى العقد الاخير منحرب الثلاثين بموقف أفسد عليهم كل استعداداتهم للمعركة . اذ وجدوا أنفسهم

(١) نسخة طبق الاصل – ١٩٦٤ – بقلم هربرت موللر .

عاجزين ازاء النقص فى القوى البشرية • فقد كان من المستطاع ، حتى عام ١٦٤٠ تقريبا استئجار الجنود المرتزقة أو طردهم حسب مقتضيات الامور ، وابتداء من القرن الخامس عشر الى أوائل القرن السابع عشر كان هناك احتياطى كبير من فائض القوى البشرية فى كثير من بلدان أوروبا وبخــاصة ألمانيا والمنــاطق المحيطة ببلدان الاراضى الواطئة وسويسرا وبوهيميا • وكان يوجد دائما كثير من المغامرين ممن كانوا على استعداد للاتفاق عن طيب خاطر على العمل مع ضباط التعبئة دون اعتبار لولاء دينى أو سياسى • ويعتبر كل من فالنشتين (١٥٨٣ ـ ١٦٣٤) وبرنار أوف ساكس فيمار (١٦٠٤ـ ١٦٣٩) آخر قائدين من قواد فرق المرتزقة • اذ أنه بعد وفاتهما لم يعد ثمة جدوى من الطريقة القديمة فى استئجار جنود لآجال قصيرة ثم الالقاء بهم الى عرض الطريق عندما لا تكون ثمة حاجة اليهم •

وتتضح لنا خطورة الموقف الجـديد للقوى البشرية من خلال استخدام الدول جميعها دون استثناء لأسـاليب جديدة فى الحرب وهى الاساليب التى ظلت سائدة طيلة قرن ونصف من الزمان حتى عشية الثورة الفرنسية وحروب نابليون • اذ تغيرت الاستراتيجية واستبدلت بمناورات فابية ، فبدأ القادة الآن يحرصون على الاحتفاظ بجنودهم بدلا من التفريط فى القوى البشرية • ومن ثم فان الفترة الواقعة ما بين عامى ١٦٤٠ و ١٧٨٩ تعرف بســيادة استراتيجية النفس الطويل بهدف استنفاد قدرة العدو على المقاومة تدريجيا وذلك عن طريق المناوشات البسيطة والكر والفر والتهـديد بشن معركة ثم التوقف عن ذلك أو الاحتفــاظ بمــواقع متميزة مع الاستعانة بتحصينات قوية واســتفاد كل رجال الاســتراتيجية ابتـداء من مونتيكوتشيلى الى مارلبورو وفردريك الثانى فى بروسيا من أسلوب الحرب الدفاعية تحت ظروف متباينة •

وثمة عدد قليـــل من البلدان ، خاصة بروسيا والروسيا ، اعتادت أن تسحب جزءا من الفـلاحين الأرقاء للعمل فى الخـدمة العسكرية • ولكن حتى فى بروسيا نفسها فان فردريك الثانى كان يأمل أن يشكل نصف جيشه الكبير على الاقل من جنود مرتزقة غير بروسيين أو من الفارين من الجيوش الاخرى أو الاجانب المخطوفين والمجرمين والحرفيين المتجولين وأسرى الحرب • ولقـــد كانت كل جيوش أوروبا تضم أعدادا غفيرة من الجنود الذين كانوا يؤدون خدمة عسكرية اجبارية • وكان جانب من قوات الاسطول فى انجلترا تتولى تجهيزه عصابات التجنيد المرخص لها باختطاف المجندين ، أو قطاع الطرق الذين يقومون بهذا العمل دون ترخيص لهم بذلك ، فكانوا يحتالون على الناس أو يهددونهم الى غير ذلك من أساليب أخرى غير مشروعة لاختطاف الشباب من لندن أو المدن الساحلية • لهذا كان الفرار من الجيش عادة مألوفة رغم العقوبات القـاسية التى كانت توقع على الفارين •

ويحسن بنـــا أن نفهم هذه الحقـــائق المعروفة من التاريخ العسكرى على ضوء علاقتها بسوق العمل المعـــاصر • فالنقص فى الجنود شاهد على ارتفاع مســـتوى الدخل لدرجة كبيرة كما وأنه دليل على حالة الاشباع بين العمال المهرة أو نصف المهرة والشبان من عمال الزراعة وهم الفئة التى يجند من بينها غالبية الجنود • وقد قال جوستى وهو اقتصـــادى بروسى وكاتب له دراساته عن الشئون العامة ورحالة كتب عدة تقارير عن بافاريا : «كان فى وسع العامل الذى يحصل على أقل نسبة من الاجر اليومى أن يحيا حياة أفضل من حيـــاتهم • بل ان أفقر صبى من الفـــلاحين يرى فى استدعائه للجيش النظامى بمقاطعته عقوبة كبيرة » •

وكانت القـوات البرية فى انجلترا ، قبـــل الحرب الاهلية وبعدها قليلة العدد • وكانت كلما احتاجت البلاد الى أعداد اضافية

من الجنود تبرز أمامها أزمة القوى البشرية مثلمـــا حـدث فى عامى ١٧٠٣ ـ ١٧٠٤ عندما بدأت السـلطات تســتحث المتطوعين أو الـكونستبلات بمغريات خاصة للقبض على « أبنـــاء السبيـــل » وارسالهم الى الجيش • ويشير ديمو الى هذا بملاحظته التالية :

« ان الفقر هو الذى يجعل من الرجال جنودا ويزج بالجموع الى صـــفوف الجيش • واذا كانت ثمـة صعوبات تواجه انخراط الانجليز ضمن صـــفوف الجيش فذلك لانهم يعيشـــون فى رخاء وبحبـــوحة من العيش ؛ وكل من يستطيع أن يحصل على عشرين شلنا أسبوعيا نظير عمل سهل ودائم لا بد وأن يكون ثملا أو مجنونا اذا ما انخرط فى سلك الجندية لكى يتلقى ضربات على رأسه مقابل ثلاثة شلنات وستة بنسات فى الاســبوع • ولكن اذا لم يكن ثمة عمل على الاطلاق •• فان آلافا من الشبان الشجعان سوف يندفعون الى بايك وموسكيت ويؤثرون الموت رجالا فى مواجهة العدو على أن يقيموا داخل بيوتهم يعانون الفاقة ويهلكون مع الفقر والأسى (١) •

وكانت أكثر الحكومات ثراء تضمن لنفسها الحصول على الجنود من الدويلات الفقيرة ، وذلك لكى تبقى هى على سكانها المنتجين • فكانت انجلترا طوال القرن الثـــامن عشر تســـتأجر فرق الجنود الالمانية كما كانت فرنسا ، ابتداء من مطلع القرن السابع عشر حتى الثورة ، تشكل فرقا مسلحة من الجنــود المرتزقة السويسريين الى أن أصبحت هذه القوات تشكل سدس القوات المسلحة الملـكية • وفى بروســـيا ، أيام حكم فريدريك وليم الاول ، كان ثلث القوات المسلحة وافدين من الخارج • وفى ظل حكم خلفه بلغ تعداد الاجانب فى بعض السنين أكثر من نصـــف تعداد الجيش • ولا شـك أن

---

(١) دانيل دينو : « صدقات عن غير محبة » ١٧٠٤ ••

السبب القهرى الذى حال دون تجنيد المواطنين من أهل البلد ضمن القوات المسلحة هو الحاجة الى عمال فى الزراعة والصناعة ٠ اذ كانت الحكومات تدرك بعمق المخاطر التى قد تلحق بقدرة المواطنين على دفع الضرائب اذا ما امتصت القوات المسلحة جانبا كبيرا من القوة البشرية٠ واجازت الحكومة البروسية للموظفين العسكريين الارتباط بأى نوع من المهن والتفرغ لها جزئيا ؛ وسارت على نظام الاجازات الذى يسمح بالتفرغ الكامل للالتحاق مؤقتا بعمل ما ٠ وسنت النمسا وبعض الدول الأخرى نظما مماثلة(٣) ٠

وشهدت كل الدول التى كان لديها قوات مسلحة برية أو بحرية منافسة صريحة بين العسكريين والمدنيين للحصول على القوى البشرية ٠ ففى عام ١٧٤١ اتهم سير روبرت والبول صراحة التجار الانجليز فيما وراء البحار بأنهم يعرقلون مد الاسطول بما يحتاج اليه من رجال فى وقت تعيش فيه البلاد فى حالة طوارىء ٠ وقال فى البرلمان انهم «يغررون بالبحارة ليعقدوا معهم عقودا شخصية ثم يخفونهم داخل حجرات فى أعالى المنازل يستأجرونها لهذا الغرض حتى تتم اجراءات الشحن أو يزول الخطر ، وبذلك يضمنون المحافظة على أعمالهم الخاصة على حساب المصلحة العامة ، ويعرقلون عمليات الاعداد للحرب التى ألحوا هم وحدهم عليها ولأحد سواهم» ٠ وعندما استدعى للجيش عامل فى مصنع تبييض الصوف فى زنيبروكين فى الامارة الجرمانية عجز مدير المصنع عن تدبير بديل له ، « وتلفت لهذا السبب أقمشة كثيرة وواجهت المصانع صعوبات فى طريق

---

(٣) فورتيسكو : « تاريخ الجيش البريطانى » ٢ ، ١ — ٥٤ ، ٥٦٢ — ٥٩٣ ٠ كيرت هنز : « المشكلة العمالية فى براندنبرج بروسيا منذ بدا الرأسمالية » ١٩٢٧ — ص ١٧١ — ١٨٠ — كارل بريبرام : « تاريخ السياسة التجارية فى النمسا من ١٧٤٠ الى ١٨٦٠ — مجلد (١٩٠٧) ص ١٥٨ ٠

تسليم البضائع (٤) وكانت الشكاوى المرة تعم كل أنحاء أوروبا بسبب نشاط (جاويشية) التجنيد وعصاباته والخسائر الناجمة عن نقص الايدى العاملة فى الاقاليم والمدن • ولكن ينبغي علينا مع ذلك أن ننظر الى العجز فيالقوى البشرية باعتباره جانبا واحدا من الموقف الديموجرافى العام الذى سنبدأ فى عرضه اجمالا •

- ٢ -

كان معدل النمو السكانى فى أوروبا خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بطيئا نسبيا • وحدث هذا التخلف الديموجرافى فى عصر الاستكشافات الجغرافية حيث تم احتلال مساحات شاسعة من الاراضى الجديدة ، والاستيلاء على مصادر جديدة للمواد الخام ، واتسع مجال التجارة والتسهيلات الائتمانية ونمت المعرفة العلمية نموا سريعا وتقدمت المهارات التكنيكية فضلا عن التطور الزراعى الذى كان يسير بخطى ثابتة وان كانت بطيئة• وعرف هذا العصر حكومات أكثر فاعلية ومجتمعا ينمو فيه باطراد قطاع من السكان له تطلعاته المتزايدة وطموحه وحوافزه • وأشار أكثر المشاهدين فى هذا العصر الى أن الزيادة الكبيرة فى السكان كانت أمرا مرغوبا فيه بشدة خلال هذه الفترة أو على الأقل فى الفترة الواقعة بين عامى ١٦٥٠ و ١٧٧٠ (هذا باستثناء ايطاليا التى كانت تعانى من الركود الاقتصادى) • وكان لدى كثير من المؤلفين

---

(٤) بازيل وبليامز : « سيادة الاحرار » ١٧٤٠ — ١٧٦٠ (١٩٣٩) . ص ٢١١ — الفريد رويتر : « المعاملات التجارية فى دوقية بفالتس تسناى بريكين (١٩٣١) ص ٢٩ • وواجه جوتيه مشكلة مماثلة بالنسبة لمشروع التعدين ف ساكس ثيمار ، انظر مقاله عن تقدم التعدين فى النشرة الاعلامية الرابعة ، وكذلك هنتس فى نفس المرجع ص ٣٥ — ١٧١ .

الأفراد • وأسهم هذا في تقويض دعائم التضامن الاجتماعي داخل المدن ، كما أسهم في خلق حالات التوتر السياسي والديني التي تميز بها هذا العصر • ويقدم لنا المقال التالي توضيحا كميا للظروف الديموجرافية التي كانت تقوم عليها الحياة الاجتماعية والسياسية في هذه الفترة •

***

سبق لنا أن عرضنا في عدد سابق (١) تقييما أوضحنا فيه أن ما يساوي ملء سلة من السلع الاستهلاكية والتي كان يشتريها عامل البناء الانجليزي بأجره اليومي بدأ يتناقص تدريجيا ابتداء من عام ١٥١٠ حتى انكمش في عام ١٦٣٠ الى ما يساوي خمس ما كان عليه في القرن الخامس عشر • ونظرا لأن عامل البناء كان يعاني من ذلك ، ويمكن النظر اليه باعتباره ممثلا للأجراء غير الماهرين الى حد كبير ، اذن يحق لنا أن نعتقد بأن هذا التدهور لم يكن قاصرا فقط على مجال البناء بل أصاب بالتالي كل الأجراء الآخرين كذلك • ولقد كان الوضع بمثابة كارثة • وعلى قدر علمنا فان ما حدث ليس له مثيل في كل تاريخ الأجور • ورغم ذلك فان المرء قد يقرأ الكثير عن أحداث القرن السادس عشر دون أن يرد أي ذكر لما حدث • وربما كان السبب في ذلك أنه لم يحدث انفجار ضخم يدفع المؤرخين الى البحث عن سبب لنشأته يكمن في ضائقة اجتماعية كبيرة • ترى هل حدث حقا أي شيء بمثل القسوة التي توحي بها الارقام ؟ وان كان قد حدث شيء كهذا فما هو السبب ؟

---

(١) « سبعة قرون من أسعار السلع الاستهلاكية مع مقارنتها بمعدلات اجور عمال البناء » مجلة ايكونوميكا عدد نوفمبر ١٩٥٦ وقد استقيت سلسلة الاجور الواردة فيها من مقالنا « سبعة قرون من أجور البناء » ايكونوميكا — اغسطس ١٩٥٥ •

وذلك في بحثه الذي ذكر فيه انه على الرغم من ضآلة عدد قتلى الحرب نسبيا الا أن حالات الفرار وضياع الملكية والجوع انهكت الناس بحيث تمكنت الاوبئة من أن تفتك بهم • وكان سكان الاقاليم يفرون الى المدن هربا من الجندية ، وتفشت الاوبئة فى الاماكن المزدحمة وتسببت في ارتفاع نسبة وفيات الاطفال ارتفاعا كبيرا • ولكن وطأة الحرب على الاقاليم المختلفة لم تكن بنسبة واحدة • فثمة مدن مثل هامبورج ونوبيك لم تتأثر بالحرب على الاطلاق وسجلت زيادة فى تعداد السكان • ومناطق أخرى مثل سويسرا وغيرها من مناطق جبال الألب تكاد الحرب لم تمسها تقريبا وكانت ملاذا لعديد من اللاجئين • بينما بعض المناطق مثل ميكلينبورج وبوميرانيا وهيس والامارة الجرمانية وفورتيمبرج كانت الخسائر فيها تتراوح ما بين ٥٠ و ٧٠٪ بل كانت أعلى من ذلك في مناطق أخرى • وقدر فرانز الخسارة الاجمالية للسكان فى ألمانيا نتيجة الحرب والآثار التى ترتبت عليها بما يساوى ٤٠٪ • ويبدو أن فورتيمبرج هى المنطقة الكبيرة الوحيدة التى يوجد لها سجلات احصائية تقريبية عن خسائرها من السكان بسبب وفيات الحرب والهجرة ثم ما تلا ذلك من تعويض لهذه الخسارة • اذ كان هناك :

فى ١٦٢٠ ـ ٤٥٠٠٠٠ نسمة

فى ١٦٣٩ ـ ١٠٠٠٠٠ نسمة

فى ١٦٤٥ ـ ١٢١٠٠٠ نسمة

فى ١٦٥٢ ـ ١٦٦٠٠٠ نسمة

فى ١٦٧٩ ـ ٢٦٤٠٠٠ نسمة

فى ١٧٣٣ ـ ٤٢٨٠٠٠ نسمة

فى ١٧٥٠ ـ ٤٦٧٠٠٠ نسمة

وتعرض شرق فرنسا لما يشبه الكارثة التى أبادت جانبا كبيرا من سكان هذه المنطقة بسبب توالى الحروب والدمار وفرار السكان وتدهور الانتاج والمرض (٦) ٠

ومع ذلك فان الاوبئة وحدها دون الحروب هى التى كبحت جماح كثافة السكان فى مناطق كثيرة من أوروبا ٠ وقدم لنا عديد من المؤرخين كان يعمل كل منهم على انفراد ، الدليل على أن الظروف المناخية فى القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر كانت أقل ملاءمة لصحة الانسان عنها فى الفترات السابقة أو اللاحقة لذلك ٠ ففيما بين عامى ١٦٢٠ ــ ١٧٢٠ كانت الاوبئة الفتاكة عاملا جوهريا فى تحديد ديموجرافية جنوب أوروبا بما فى ذلك قطاع كبير من فرنسا وبلدان اسكنديناوه والبلطيق ٠ وكانت أسوأ أعوام مرت بأسبانيا هى أعوام ١٦٢٩ ــ ١٦٣١ وكذلك الاعوام من ١٦٣٠ الى ١٦٥٧ فى ايطـــاليا ٠ واصابت هذه الاوبئة أيضـــا كلا من انجلترا وشــمال ألمانيا (٧) ٠

---

(٦) جينتر فرانس « الحرب الثلاثينية والشعب الالمانى » ١٩٤٣ .
أ ــ كريستمان : « ازالة القرى واعادة بنائها خلال القرن السابع عشر » مع مع ٢٠٠٠ قائمة للسكان (١٩٦٠) ٠

جاستون روبنيل : « المدينة والقرية فى القرن السابع عشر » (١٩٢٢) ص ٣ ــ ١٠٣ .

(٧) ت ٠ س ٠ اشتون : « تاريخ انجلترا الاقتصادى فى القرن الثامن عشر » (١٩٥٥) ص ٤ ــ ٥ ٠ حـ ٠ أوتير ستروم « التذبذبات المناخية والمشاكل المناخية فى مطلع التاريخ الحديث» . مجلة التاريخ الاقتصادى فى اسكنديناقيا، العدد الثالث (١٩٥٥) ص ٣ ــ ٤٦ ٠ حـ ٠ نادال و أ جيرولت : « سكان كتالونيا من ١٥٥٣ الى ١٧١٧ » (١٩٦٠) ٠ ك ٠ ف ٠ هيليز « منظمة جديدة الى الثورة الحيوية » مجلة العلوم السياسية والاقتصادية الكندية ــ ٢٣ (١٩٥١) ٠

واذا عرفنا أن حجم الاسرة كان صغيرا فاننا ندرك مدى خطورة هذه الخسائر في الارواح . اذ أن الضغط السكاني خلق عرفا اجتماعيا مسلما به على نطاق واسع بين الفقراء من الناس فكان كل خدم المنازل والصبية وعمال اليومية وأطفال الفلاحين الحرفيين ممن يولدون بعد الابن البكر كانوا جميعا اما يعزفون عن الزواج أو يتزوجون في سن متأخرة . والزواج المتأخر يعني تكوين أسر صغيرة الحجم . وارتفاع نسبة وفيات الاطفال في القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كان عاملا هاما في تخلف النمو السكاني. وعلاوة على صغر حجم الاسرة والظروف المناخية غير الملائمة وكوارث الحروب كانت الهجرة عاملا آخر أثر الى حد كبير في التخلخل النسبي للسكان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . بل يمكن اعتبار الهجرة وحدها عاملا كافيا بالنسبة لبعض البلدان خاصة البرتغال وأسبانيا وروسيا وبولندا . ومع ذلك فقد تأثرت كل بلدان أوروبا بالهجرة الى حد ما .

وأدى «التوسع الاوروبي» غربا أو الى ما وراء البحار الى سكنى مواطنين جدد لقارتين شاسعتين. فكان هناك تيار مستمر من السكان يتدفق من البرتغال وأسبانيا ثم أخيرا من انجلترا وبنسبة أقل من فرنسا وهولندا وألمانيا الغربية ويصب في العالم الجديد وجهات أخرى فيما وراء البحار مثل سواحل أفريقيا وجنوب شرق آسيا . وهذه الهجرات معروف أمرها تماما بحيث أنها لا تحتاج منا الى أي تفصيل . وفي نفس الوقت شرع السلاف في شرق أوروبا في دخول مناطق الاستبس وسيبريا وقد كانت من الناحية العملية مناطق خالية من السكان .

وبدأ هذان التياران المتبـــاينان للهجرة فى الاراضى المتاخمة «للعالم المسيحى» القديم يفيضان الى الخارج أحدهما عبر البحار من شبه جزيرة أيبريا والثـانى يبدأ من شرق أوروبا ويتــحرك شرقا وجنوبا • وكانت الشخصيات المحورية فى المرحلة الاولية هى هنرى الملاح (+ ١٤٦٠ وايفان الثالث (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥) ، وهو الدوق الأعظم الذى حرر موسكو من سيطرة التتار • وفى القرن السادس عشر ـ والنصف الثانى منه بوجه خاص ـ أصبحت الهجرة الى خارج البلاد بمثابة حركات جماهيرية فى شـــبه جزيرة ايبريا وشرق أوروبا • وكان تعداد سكان البرتغال فى نهاية هـــذا القرن يقدر بحوالى مليون نسمة أو ما يزيد على ذلك قليلا أى أن تعداد سكانها آنذاك يعادل سكان بناما اليـوم أو ليبيا ومن ثم فان فقدان بضع آلاف قليلة فقط من السكان بسبب الهجرة لا بد وأن يؤثر على البلد الأم • وقيل ان البرازيل البرتغالية كان يسكنها حتى عـام ١٥٨٥ حوالى ٢٥٠٠٠ مستوطن من البيض • واستمرت الهجرة بعد ذلك طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر • أما بالنسبة لاولئك الذين نزحوا من أجل الحياة فى جنوب شرق أفريقيا والهند ومنطقة آزور والمستعمرات الافريقية الاخرى على الساحل ربما كان عددهم لايزيد كثيرا عن عشرة آلاف نســـمة • ولكنهم نزحوا عادة وهم شبان فى مستهل حياتهم الاقتصادية المجدية وأصبحت الهجرة فى أسبانيا فى عهد فيليب الثانى بمثابة بالوعة تستنزف السكان • وفضـلا عن الاعباء الادارية والعسكرية الثقيلة فى أوروبا كان هنـــاك التوسع الشاسع للعالم الجديد والذى كان يستهوى المستوطنين الاسبان منذ بداية القرن السادس عشر • ومع عام ١٥٧٤ كان عدد أرباب الأسر فى أمريكا الاسبانية يقدر بحوالى ١٦٠٠٠٠ نسمة •

وحتى منتصف القرن السادس عشر كان قد استوطن الفلبين، التى تم الاستيلاء عليها عام ١٥٤٢ ، مايربو على ١٠٠٠٠ من السكان

الاسبان (٨) . وفى الشرق لم يبدأ الروس فى التوسع الا بعد بضع عشرات من السنين من تاريخ توسع أسبانيا والبرتغال . وكان عام ١٥٦٢ هو العام الحاسم عندما دحر ايفان الرابع امارة التتار فى كازان وبذلك فتح أراضى التربة السوداء فى وسط الفولجا أمام الاستعمار الروسى . وبعد أربع سنوات فقط تم دحر امارة استراخان وضمت الى الاراضى الروسية عام ١٥٦٦ . وفى أقصى الشمال عجز سكان القرم وموردافيا ممن يتكلمون اللغة الفنلندية دون مساعدة التتار ، عن مقاومة الروس الذين توغلوا داخل بلادهم. وفى عام ١٥٨١ أى قبل أن يبدأ سير والتر راليج بسنوات قليلة محاولاته المشئومة لتأسيس مستعمرة انجليزية فوق أراضى جزيرة روانوك — فى تلك السنة عبر يير ماك وأتباعه من القوزاق جبال الاورال وبذلك خطا الخطوة الاولى فى طريق احتلال سيبيريا واستيطانها . ثم بدأت عملية التقدم الثالثة وهى أشقها وأكثرها اضطرابا ولكنها كانت فى نهاية الأمر أجداها وأفضلها جزاء ، وهى العملية التى توغل فيها الروس والبولنديون داخل أوكرانيا . وفى عام ١٦٨٩ عندما جلس بطرس الاكبر على العرش ، كانت مساحة الاراضى الروسية تعادل احدى عشرة أو اثنتى عشرة أمثالها فى بداية القرن السادس عشر ؛ وأصبحت المناطق القديمة التى كان يستوطنها الروس تعانى من النقص الشديد فى السكان (٩) .

---

(٨) أ . مارتينو و ل . ماى : « لوحة عن التوسع الاوروبى عبر العالم ابتداء من نهاية القرن الثانى عشر الى نهاية القرن التاسع عشر » . (١٩٣٥) ص ٦٥ .

(٩) بوريس نولد : « تكوين الامبراطورية الروسية » . (مجلدان — ١٩٥٣) . أ . كوليتشر « الحروب والهجرات : التاريخ العام للحركات السكانية فى العالم » . (١٩٣٢) ص ٩٨ — ١٢٣ . ف . أ . كلوتشيفسكى : « تاريخ روسيا » (مجلد ٣ — من ١٩١١ — ١٩٣١) .

ونتيجة لهذا التوسع الواضح فى مساحات جديدة من الأراضى فيما وراء الحدود القديمة « للعالم المسيحى » التقليدى ، نشأت كما هو واضح ، فراغات ديموجرافية فى المناطق المتاخمة ، وأصبح لها تأثيرها كمناطق جذب للسكان المجاورين لها . ومن ثم أدت الى حدوث عدد لا حصر له من الهجرات الصغيرة فى اتجاه المناطق غير المأهولة أو التى يسكنها عدد قليل جدا من السكان . وفى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر وعندما أصبح شمال غرب الروسيا منطقة قليلة السكان ، بدأت السويد تتوسع عبر البلطيق فى استونيا وليفونيا . وسرعان ما شيدت امبراطورية تضم منطقة البلطيق رغم أنها لم تكن آنذاك تتعدى مليونا من السكان . وفى هذه الفترة تقريبا هاجر مايقرب من ٢٥ الى ٢٣ ألفا من الكارليين من السويد وفنلندا الى الأراضى الروسية . وبدأت بولندا تتوسع شرقا أثناء عصر الاضطرابات . ونزح كثير من الروسيين الى جهة الشرق تاركين المناطق التى احتلها البولنديون. وقد هاجر القطاع الرئيسى من الفلاحين البولنديين الى غرب أوكرانيا .

وبينما كانت عملية الانتشار على نطاق واسع وبقوتها الجاذبة تتم فى الأطراف الشرقية والغربية لأوروبا كانت المناطق التى تحتل قلب العالم الغربى ـ انجلترا وفرنسا وهولندا وبوجه خاص ألمانيا وسويسرا وايطاليا ـ لا تزال تعانى وبدرجات متفاوتة من الضغط السكانى . وكانت الصراعات الداخلية المعروفة « بالحروب الدينية » والاضطهادات الدينية لها تأثيرها الطارد والمدمر على الأوضاع السكانية . ففى حرب الثلاثين فرت جماعات كبيرة من اللاجئين ، بل ومجتمعات بأكملها أحيانا ، الى سويسرا وبولندا اللتين كانتا تعيشان فى سلام آنذاك . بيدأن بولندا كانت بحاجة ماسة الى سكان بسبب تزوج البولنديين الى الشرق والشرق الجنوبى

ونتيجة لذلك فبينما نجد أكثر اللاجئين الى هولندا قد عادوا الى المانيا بعد الحرب فان أولئك الذين مكثوا فى بولندا وفد اليهم المزيد من المهاجرين الألمان . وفى أوئل القرن السابع عشر كان عامة الناس لايزالون يتكلمون اللغة البولندية فى أكثر مناطق سيليزيا وهى المنطقة التى استوطنها كثير من الألمان ابان هذا القرن. وكانت مدينة دانزج بالمثل حتى عام ١٦٥٠ نصف بولندية ونصف المانية من حيث لغة الكلام ثم أصبحت تتكلم الالمانية فقط بعد ذلك .

واستمرت الهجرة الألمانية الى بولندا فى عهد أسرة الساكسون بعد عام ١٦٩٧ .

وتضاعفت مرة أخرى مع تقسيم بولندا الأول مرة عام ١٧٧٢ حين نزح اليها مباشرة حوالى (١٢ ــ ١٥ ألفا) من الألمان فى جماعات صغيرة . وفى عام ١٧٨٠ جلبت حكومة النمسا ما يقرب من ١٣٠٠٠ من جنوب ألمانيا الى جاليسيا . وبعد طرد الأتراك من المجر وترانسلفانيا فى نهاية القرن السابع عشر واجهت بلدان هابسبورج مشكلة ضخمة تمثلت فى اعادة تأهيل البلاد بالسكان ، اذ كانت الحاجة ماسة الى زيادة السكان لكى تصبح الحياة فى هذه البلاد ممكنة ومقبولة . كذلك فقد عملت الحكومة على رعاية وتشجيع الهجرة من مناطق الرون العليا والوسطى واللورين علاوة على الألمان الذين كانوا يفدون من جنوب ألمانيا والألزاس . وسرعان ما أصبح تعداد المجريين الأصليين لا يتجاوز ٢٠٪ من سكان المجر آنذاك حسب تقدير البعض .

وهكذا نجد قارة أوروبا مقسمة الى نصفين ، أحدهما تتجه هجرته شرقا والآخر غربا . وكان الخط الفاصل وهو خط تقسيم المياه آنذاك ، مجموعة من الأراضى فى الشمال والجنوب نزحت منها أعداد هائلة من المهاجرين سارت فى أحد الاتجاهين رغم أن

أحد هذين الاتجاهين كان يستهوى المهاجرين أكثر من الآخر . مثل ذلك أن الاسكتلنديين فيأوائل القرنالسابع عشر كانوا ينزحون بالآلاف الى بولندا وبوميرانيا وشرق بروسيا . وفى أثناء حرب الثلاثين كان كثير منهم يعمل فى الخدمة العسكرية فى جيش جوستافوس أدولنوس . الا أنهم توقفوا بعد ذلك عن الاتجاه شرقا وبدءوا ينزحون اما الى انجلترا أو غربا الى ايرلندا وأمريكا. وخرج من هولندا مهاجرون الى كلتى الوجهتين رغم أن أكثر من رحلوا الى أمريكا كانوا من البلجيكيين لا الهولنديين وعلى آية حال فان الهجرة الهولندية الى أمريكا كانت قد استنفدت أغراضها حتى عام ١٦٤٠ — وذلك على النقيض تماما من وضع الهجرة الاسكتلندية — بينما عادت حركة الهجرة فى اتجاه الشرق من جديد الى شمال وشرق ألمانيا والى بولندا بعد نهاية حرب الثلاثين . وكان القطاع الأكبر من فرنسا يدخل بالفعل ضمن منطقة خط تقسيم المياه . ولم تعرف فرنسا الهجرة الواسعة فى أوائل العصر الحديث وكان من المقدر أن هناك ١٢٠٠٠٠ فرنسى يعيشون فى أسبانيا فى منتصف القرن السابع عشر ، ويبدو أن أغلبهم عاد الى بلاده . وكذلك فان الهجرة الفرنسية الى ما وراء البحار قد فترت فجأة رغم ما كان للاقامة فى شمال وجنوب أمريكا من مغريات متعددة .

وفى أوائل القرن السابع عشر تغيرتوجهة الهجرة الفرنسية، مثلما حدث فى هولندا الى الشرق بدلا من الغرب . وخرجت من فرنسا هجرات واسعة متجهة الى الشرق فى اللورين والمناطق المجاورة لها وقد كانت مناطق خربة قليلة السكان . وبدا أثر الهجرة الفرنسية تجاه الشرق فى ضعف امبراطوريتها فيما وراء البحار ثم فى خسارتها لهذه الامبراطورية أخيرا ، كما تمثلت فى عدوانها السياسى ضد هولندا ومناطق الراين والألزاس . وكانت سويسرا تتبع خط تقسيم المياه مثلما كان الوضع بالنسبة

لمنطقة الراين التابعة لألمانيا . وكان هذا هو الوضـــع على أقل تقدير في القرن الثامن عشر عندما نزح ما يقرب من ١٣٠٠٠ نسمة الى انجلترا وما يقرب من ٦٥٠٠٠ الى بنسلفانيا .

وخلاصة القول اننا لو نظرنا الى الهجرة فى ابعادها الحقيقية فاننا سنجدها فى نهاية الأمر فى شكل حركات خارجة من المناطق التى تحتل قلب القارة الى الأطراف الشرقية والغربيـــة للحضـــارة الغربية . وتبدأ هذه الحركة من مناطق القلب بطيئة فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، رغم أنه من السهولة بمكان أن نعثر على عديد من الاستثناءات لهذه الاتجاهات ناحية الشرق والغرب . فقد حدث بالفعل ، على سبيل المثال ، أن كان عدد المهاجرين من نيوانجلند الى انجلترا أكبر من العائدين ، وأنه فى فترة تالية أيضا عاد كثيرون الى « الوطن » أى الى انجلترا (١٠) . بيد أن هذه الاستثناءات كانت غير ذات قيمة لو نظرنا اليها من الناحية الكمية أو على المدى الطويل .

ورغم أن عدد الناس الذين شملتهم حركات الهجرة هذه غير معروف لنا ولو على وجه التقريب الا أنه دون شك بلغ عدة ملايين . اذ ان أوكرانيا زادت خلال خمســين عاما من ٥٠٠٠٠ حوالى عام ١٥٥٠ الى ٥٠٠٠٠٠ عام ١٦٠٠ . واستمرت عملية التدفق البشرى لقرنين آخرين من الزمان ، وكان من المقدر أن ما يقرب من ٧٥٠٠٠٠ نسمة قد هاجروا الى أراضى الولايات المتحدة فيما بين عامى ١٦٠٠ و ١٧٧٥ . ونزح الى بروســـيا ما يقرب من ٣٠٠٠٠٠ أثناء حكم فردريك الثانى أى فيما بين

---

(١٠) وليام ل . ساشز : « هجرة سكان نيو انجلند الى انجلترا من ١٦٤٠ الى ١٦٦٠ » . مجلة التاريخ الامريكى (١٩٤٧ - ١٩٤٨) ص ٢٥١ - ٢٧٨ - والاستعمارى الامريكى فى بريطانيا - ١٩٥٦ .

عامى ١٧٤٠ — ١٧٨٦ . هذا بالاضافة الى « الأجانب » فى الجيش البروسى وكان يقدر عددهم فى عام ١٧٥١ بما يقرب من ٨٠٫٠٠٠ . وهاجر من فرنسا ما لا يقل عن ٢٠٠٫٠٠٠ من الهيجنوت ، وقد يصل عددهم الى ٣٠٠٫٠٠٠ فيما قبل عام ١٦٨٥ وما بعده .

هذه بعض الأمثلة للهجرات التى تمت عبر مسافات بعيدة. وكان ثمة عديد من حركات الهجرة الى مسافات متوسطة أيضا ، مثل حركات الاستيطان الجماعى للفلاحين الفرنسيين فى منطقة اللورين والهجرة المستمرة من سويسرا . وزيادة على ذلك ، فمن الأهمية بمكان أن نشير ، بالنسبة للنتائج الاجتماعية لهذه الهجرات ، أن الغالبية العظمى من المهاجرين كانوا من الشبان فى مطلع حياتهم الاقتصادية الموفقة او فى أوجها ، وأن المهاجرين الذكور كانوا أكثر من الأناث (١١) .

وكان التركيب المهنى لهذه الحركات يتباين تباينا شاسعا ، فثمة عبارة مثل « حرفيين وفلاحين » تطالعنا بشكل منتظم فى التقارير الخاصة بالهجرات الجماعية . ولكن الفلاح قد يكون أى شىء ابتداء من الفلاح الثرى الى العبد الشارد . والحرفى قد يكون اسكافيا فى بلدة صغيرة أو عاملا على مستوى كبير من المهارة أمكن اغواءه للسفر الى بلد جديد عن طريق منحه امتيازات خاصة ، بل ان فئة الجنود المرتزقة كانت تبدأ من الفتية السويسريين المحترمين ممن كان ادراج أسمائهم ضمن سلك

---

(١١) هربرت موللر : « التركيب الجنسى والانماط الثقافية المترابطة فى المستعمرة الامريكية . » وليام ومارى كوارترلى ، ٢ — (١٩٤٥) ص ١١٣ — ١٥٣ . ان اهم استثناء هنا هو حركة الهجرة قصيرة المدى التى كان يغلب عليها الطابع النسائى من الخدم والعجائز من الاقاليم الى المدن .

الخدمة العسكرية فى فرنسا يتم تنظيمه على نحو طيب ، وتنتهى بالفارين من العدالة الذين كانوا يتطوعون للخدمة تحت راية اى بلد هربا من المقصلة فى بلد آخر . ولقد كانت القدرة على الحركة الحرة من مكان لآخر مرتبطة ، كما هو الحال اليوم ، بالقدرة الكبيرة على الحركة الاجتماعية أو الاقتصادية .

وكان هذا هو ما ينطبق الى حد كبير على المهاجرين من ذوى اليسار كما كان يصدق كذلك على الخدم الذين كانوا يتعاقدون على العمل فى جزر الهند الغربية أو الصبية الذين كانوا يعملون فى صناعة الأدوات القاطعة ويفدون من المناطق الريفية الى شفيلد وانجلند . وربما كانت الأنماط القيادية والمثقفين من المهاجرين هم أهم من يعنينا هنا لاعتبارات شخصية رغم أنهم من الناحية الديموجرافية أقل شأنا ومن هؤلاء أصحاب الأعمال من الهيجنوت فى براندنبرج واساتذة الجامعات الألمان فى جامعة موسكو التى تأسست حديثا ، والقادة العسكريون الايطاليون التابعون لقوات هابسبورج ، ورجال الدين الانجليز الذين أصبحوا فيما بعد قادة فكريين وروحيين فى نيو انجلند وغير هؤلاء كثيرون .

- ٣ -

كان العجز فى الأيدى العاملة هو أول مظهر من المظاهر الاقتصادية المعبرة عن الموقف الديموجرافى . والجدير بالذكر أن النقص فى القوى البشرية كان ملموسا بالنسبة للجيوش الى درجة ان الجهات العسكرية وأصحاب الأعمال كانوا ، كما سبق أن أشرنا ، يتنافسون فيما بينهم للحصول على القوى البشرية . ونظرا لأن عامة الجنود كانوا عادة رجالا على حظ قليل من

التدريب المهنى أو غير مدربين على الاطلاق ، فقد ترتب على ذلك أن امتد النقص فى الأيدى العاملة ليشمل العمال غير الفنيين أو نصف الفنيين ، أى الى تلك الفئة التى يتأثر ابناؤها دائمـــا بالاهتزازات الكبيرة فى مجال العمالة والدخل . فلو كانت هناك بطـالة على نطـاق واسع فان العمال غير المهرة هم أول من يعانون منها أكثر من غيرهم وفى الوقت نفسه فانهم هم الذين يستفيدون مباشرة اذا ما ظهرت من جديد حاجة الى عمل غير متخصص .

وكانت كلما تغيرت ظروف سـوق العمل ، وحيثما كان هـذا التغير ، يبدأ أصحاب الأعمال يجأرون بالشكوى من الصعوبات التى تواجههم بالنسبة الى استئجار الأيدى العـــاملة وتمرد العمال وتماديهم فى طلباتهم الخاصة بالأجور . وثمة شاهد فى عديد من البلدان يدل على اتجاه الأجور الحقيقية الى الارتفاع بعد عام ١٦٣٠ أو ١٦٤٠ عندما بدأت تجتــاح أوروبا فى نفس الوقت أزمة زراعية بسبب نقص الطلب على المواد الغـذائية . وأتت فترة أخرى انخفضت فيها أسعار المواد الغذائية انخفاضا غير عادى فيما بين عامى ١٧٣٠ ـــ ١٧٥٠ نظرا لوفرة المحاصيل لفترات طويلة متعاقبـــة . ومع ذلك فقد كان السبب الأساسى فى ارتفاع الأجور هو نقص الأيدى العاملة (١٢) .

---

(١٢) ايرل . ح . هاميلتون : « الحرب والاسعار فى اسبانيا من ١٦٥١ الى ١٨٠٠ » (١٩٤٧) .

ح . انوين : « التنظيم الصناعى فى القرنين السادس عشر والسـابع عشر » (١٩٠٤) الباب الثامن .

ح . ا . مينجاى : « الكساد الزراعى » مجلة التاريخ الاقتصــادى ـ ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ .

وبالنسبة لفرنسا :

ب . رافو : « مقال عن الموقف الاقتصادى والحالة الاجتماعية فى منطقة بوالو فى القرن السادس عشر » ١٩٣١ ص ١٠١ .

وكان معظم الكتاب المعاصرين مقتنعين بأن مستوى معيشة الطبقات العاملة كان مرتفعا لدرجة غير معقولة وأن الاجور المرتفعة كانت تعرقل النمو الاقتصادى وتعوق التجارة الخارجية (١٣) . وفى عام ١٦٥٦ قال أحد الكتاب : « اننا أقرب ما نكون الى حالة من العوز لا الوفرة فى الخدم . اذ تحسنت أجورهم وارتفعت ارتفاعا غير طبيعي حتى كادوا يصبحون هم السادة ويصبح سادتهم خدما » . وفى منتصف القرن الثامن عشر كان جوزيا توكاز ينوح ويبكى لأن العمال الانجليز ساءوا لدرجة تجل عن الوصف وأصبحوا أكثر فسادا وأكثر عوزا وتراخيا بالقياس الى ارتفاع أجورهم .»(١٤) وفى عام ١٧٧١ انفجر آرثر يونج ، وهو الخبير الزراعى الشرير ، وقال فى وضوح وحسم : «أصبح كل انسان الآن على يقين، فيما عدا الأبله وحده ، من أن الطبقات الدنيا يجب أن تظل فقيرة كما هى والا فانهم لن يكونوا أبدا عناصر منتجة (١٥) .

ولو كانت ظروف سوق العمل مواتية تماما بالنسبة للعمال الأجراء فان من حقنا أن نتساءل لماذا اذن لم ترتفع الاجور الحقيقية

= م . ح . الزاس : « فذلكة تاريخية عن الاسعار والاجور فى المانيا خلال الفترة منذ العصور الوسطى حتى بداية القرن التاسع عشر . » جزءان — ١٩٣٦ — ٤٩ . الفصل الثامن تأليف ج . ف . شتيفن : « دراسات عن تاريخ أجر العامل الانجليزى » جزءان — ١٩٠١ .

ف . آبل : « أزمات الارض والموقف الاقتصادى فى وسط أوروبا منذ القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر » (١٩٣٥) .

(١) ادجارس . نورنيس . فى كتابه « وضع العامل فى نظام القومية » (١٩٢٠) قدم دراسة خاصة عن الفكرة الحانقة المعادية للعمل والتى سادت الفترة الواقعة فيما بين الحرب الاهلية فى انجلترا حتى عام ١٧٧٠ تقريبا .

(٢) جوزيا توكر : «مقال موجز» (الطبعة الثانية — ١٧٥٠) ص ٣٧ . وهى عبارة اقتبسها فورنيس ص ١٣٣ — نفس المرجع .

(٣) آرثر يونج : « رحلة فلاح الى شرق انجلترا » (١٧٧١) الجزء الرابع — ٣٦١ .

الى أكثر مما كانت عليه ؟. ذلك لأن من المسلم به أن مستوى معيشة الطبقة العاملة لم يرتفع الا بنسبة ضئيلة رغم الشكاوى المرة من جانب أصحاب الأعمال (١٦) . ويتمثل جانب من الاجابة على هذا السؤال فيما يلي : كان النظام الاقتصادى نظاما متخلفا من حيث مستوى الميكنة ورأس المال . لذلك فقد فرض هذا الوضع قيودا محددة للغاية على انطلاق العمل. وفى نظام كهذا يعتبر الجهد البدنى هو أهم عامل فى الانتاج ؛ وتشكل تكاليف العمل جانبا هاما جدا من تكاليف الانتاج أكثر مما هو الحال فى ظل صناعة أرقى منها من حيث مستوى الميكنة ، حيث يكون العمل أكثر كفاءة من الناحية الانتاجية . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الانتاجية محدودة جدا بحيث لا تسمح برفع مستوى الطبقات العاملة الى مستوى مرتفع قليلا عن الحياة المريحة الى حد ما . وكان أى ارتفاع بسيط فى تكاليف العمل من شأنه أن يرفع تكاليف الانتاج بنسبة كبيرة ويقلل من الارباح . يضاف الى ذلك أنه فى ازاء الظروف التى كانت سائدة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أدى الطلب غير المنتظم على العمل الى نوع من البطالة المقنعة والتى كان يمكن تعويضها جزئيا عن طريق نظام الصناعة المنزلية (١٧).

---

(١٦) أكد بعض المؤرخين ان الطبقات العاملة كانت تعيش فى فقر مدقع خلال هذه الفترة ، ونظرا لضيق المكان فاننا لن نتمكن من مناقشة هذه الخلافات فى الرأى . وثمة جانب آخر من الموضوع لم نذكره هنا وهو الذبذبات القصيرة المدى التى كانت تنجم عن تفاوت المحاصيل ودورات الانتاج . وادى حذف هذا كله وغيره الى جعل وصفنا هنا لسوق العمل فى النظام القديم بمثابة «نموذج» أكثر منه محاولة لعرض الحقيقة التاريخية كاملة » .

(١٧) يجد القارىء توضيحا مستنيرا لهذه المشاكل فى كتاب : « د.س. كولمان عن « العمل فى الاقتصاد الانجليزى اثناء القرن السابع عشر » مجلة التاريخ الاقتصادى – مجلد ٨ (١٩٥٥ – ١٩٥٦) . ص ٢٨٠ – ٢٩٥ .

وكشف التدهور المريع للاجور فى ايطاليا عن الاهمية الحاسمة لعامل الاجور • اذ كانت ايطاليا فى عصر النهضة تعتمد اقتصاديا على التصدير ولها فيه خبرة قديمة ، وخاصة تصدير المنسوجات • ولكن أوضاع التجارة فى ايطاليا تعرضت في القرن السادس عشر للاخطار بسبب تحول الطريق التجارى وزيادة المنافسة مع انجلترا وغيرها من البلدان • وعندما تخلخل الوضع السكانى فى ايطاليا بسبب الاوبئة الرهيبة فى القرن السابع عشر أصبح العمل نادرا وارتفعت الاجور الى درجة أن أصبح من الامور المستحيلة على صناعة التصدير الايطالية أن تتحمل هذه التكاليف الاضافية ومن ثم انهار كل البناء الصناعى فى ايطاليا • وظلت الاجور حتى منتصف القرن الثامن عشر مرتفعة جدا بحيث لا تسمح للنظام الاقتصادى أن يستعيد وضعه السابق • هذا رغم أن تلك الاجور المرتفعة يمكن أن تعتبر يقينا ـ أجورا منخفضة تماما حتى لو نظرنا اليها بمقاييس أجور القرن التاسع عشر (١٨) • وحكمة «الكسل الممتع» التى كانت سائدة بين الطبقات الايطالية الدنيا انما كانت تعنى أن الارباح العالية التى يحققها العمل لم تكن تتمثل فى شكل استهلاك مرتفع بل على هيئة وقت فراغ • وواجهت أسبانيا مصيرا آخر مماثلا لمصير ايطاليا حيث أصبح سكانها « كسالى » تطبيقا للحكمة السابقة • وساد فى كل البلدان اغراء الاجور المرتفعة على شكل وقت فراغ ، وهى البلدان التى كانت بحاجة الى أن تواجه النقص فى العمل قبل أن تحقق اقتصادا صناعيا ناضجا •

وكانت العبارة التالية تبدو صادقة بالنسبة لايطاليا وكذلك بالنسبة لانجلترا فى ظل ظروف مرحلة التصنيع الاولى حيث كان الانتاج الضخم والأسواق الكبرى لاتزال فى مهدها : لدينا الآلاف

---

(١٨) س . م . شيبولا : «تدهور ايطاليا» مجلة التاريخ الاقتصادى ـ مجلد ٥ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) ص ١٧٨ ـ ١٨٧ •

ممن يعيشون فى فقر مدقع ولكنهم مع ذلك لن يعملوا طبقا لهذه الشروط المتواضعة التى يحاول أن يفرضها عليهم أصحاب الاعمال ويهللون لها • » (١٩) ولقد كانت الصناعة الانجليزية بالقياس الى الصناعة فى ايطاليا تتميز بقدرتها الحيوية • ولكن ثمة حقيقة أخرى وهى أن صناعة النسيج فى انجلترا واسكتلندا كانت كثيرا ماتعانى من العجز فى خيوط الغزل لأنه لم يكن هناك العدد الكافى من الغزالين • وعندما كانت التجارة نشطة لم يستطع النساجون مع ذلك أن يوفوا بالطلبات التى تقدم لهم للحصول على انتاجهم • بيد أنه عندما انشئت أول مدرسة لتعليم الغزل أحس صاحبها أن من واجبه أن يدافع عن مؤسسته ضد الاعتراض القائل بأنها ستسبب عجزا فى الايدى العاملة • وفسر موقفه بقوله ان الغلمان سيحضرون الى المدرسة :

« الى أن يصبحوا لائقين للعمل كصبية فى المصانع أو للقيام بأى عمل آخر • وستبقى البنات بالمدرسة حتى يصبحن صالحات للعمل فى خدمة المنازل ثم لا يذهبن الى المدرسة بعد ذلك • وتعم الشكوى البلاد بسبب النقص الشديد فى الخدم بعد أن دخلت أعداد كبيرة منذ عهد قريب ميدان تجارة الغزل ويعيشون الآن على كدهم • وأصبح من العسير تماما الحصول على أحدهم الا وفقا لشروط أفضل بكثير مما كانت عليه قبلا ••• ولقد عنيت عناية خاصة ألا يعمل عندى أى شخص يكون صالحا للعمل فى مجال الخدمة أو للعمل كصبى فى المصنع • » (٢٠)

---

(١٩) توماس مانلى : « الربا بنسبة ٦٪ » • (١٦٦٩) •

(٢٠) توماس فيرين : « بعض المقترحات الخاصة بتشغيل الفقراء » ١٦٨١ واعيد طبعه تحت عنوان « مجموعة من الكتيبات عن الفقراء » ت • جيلبرت ـ ١٧٨٧ ـ ص ١٩ •

ولقد كان للحرفيين ممن هم على مستوى رفيع من المهارة أو الاخصائيين وضع موات للغاية يعطيهم فرصة للمساومة • اذ كان الاقبال شديدا عليهم فى كل أنحاء أوروبا كما كانت الحكومات وكذلك أصحاب المشروعات يحاولون استمالتهم • واستطاع أصحاب الاعمال اقناع السلطات المسئولة بالعمل على تحديد مدة الخدمة العسكرية • وصدرت فى كل البلدان قرارات لا حصر لها تحدد الاجور ، بهدف وضع حد أقصى للاجور بينما كانت السلطات الحاكمة تعنى فيما قبل بتحديد الحد الأدنى للأجور ، بأن تضمن للفقراء من الناس رزقهم • الا أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل كلما كان الهدف منها هو وضع حد مصطنع لمستوى الاجور • واعتاد أصحاب المصانع الذين خالفوا الاوامر ولم يستخدموا الماكينات أن يخرقوا هذه الحدود التى وضعت للاجور وكذلك فعل مثلهم المزارعون أثناء موسم الحصاد •

وكان لفرنسا نصيبها الكامل من الحروب والمجاعات والاوبئة ومن ثم ظهرت نتيجة لذلك فى أواخر القرن السابع عشر مساحات واسعة تتميز بقلة سكانها وتستلزم العمل على زراعتها من جديد •(٢١) وكانت فرنسا فى نظر سكانها من الفلاحين بلدا مغريا بمزارعها العائلية الصغيرة • ويبدو أنها كانت مغرية جدا الى حد أن الفلاحين الفرنسيين آثروا فى القرن الثامن عشر أن يلجأوا الى نظام تحديد الاسرة بدلا من الهجرة • ومن ثم فقد انخفض النمو الديموجرافى رغم أنه لم يهبط الى المستوى الذى يسمح بتجنب الزيادة الخطيرة فى السكان فى الثلث الاخير من هذا القرن • وفى

---

(٢١) م • ر • ريئارد ـ و ا • ارمينجوا : « التاريخ العام للسكان فى العالم » ١٩٦١ ص ١٢٢ ـ ١٣١ •

ل • شون ـ « تاريخ السكان فى فرنسان » ١٨٩٣ ص ١٣٥ ١٦٩ ، ٢١٠ والباب العاشر •

مجال الصناعة طالب كبار أصحاب المصانع السلطات المسئولة أن تمد لهم يد العون لمواجهة النقص فى الايدى العاملة وذلك بوضع العقبات فى طريق العمال اذا شاءوا أن يتركوا أصحاب الاعمال الذين يعملون لديهم ، واجبـــار الصبية على العمل دون الالتزام بشروطهم وإعطاء أصـــحاب الاعمال حق القبض على العمال الفارين من مصانعهم ٠ وأصبحت مخاوف أصحاب الاعمال من أن يفقدوا عمالهم ، والعمال المهرة منهم بوجه خاص ، مسألة هامة استحقت اهتماما بالغا فى عهد كولبرت ٠ فقد صدر العديد من القرارات التى تحرم اغواء العمال واجتذابهم من المحال الاخرى ٠ وكان أحد أصحاب الاعمال فى بورج يشكو من أن ١٤٠ بنتا فقط بقين للعمل فى مصنعه من بين ٩٠٠ بنتا دربهن على العمل ، بينما اســتأجر الباقيات أصـــحاب أعمال آخرين ٠ واستخدم كولبرت المال بسخاء لاستيراد العمال المهرة من البلدان الاجنبية وكان ، على حد قول أحد الباحثين « قادرا على أن يكفل لمشاريعه الجديدة جيوشا حقيقية من العمال الاجانب » ٠ وفى عهد كولبرت ولويس الخامس عشر كان العمال المهرة يعفون أحيانا من الضرائب ٠ وفتحت مدارس التدريب الصناعى لزيادة عددالعمال المهرة ، كما كانت الجـــوائز توزع فى المناسبات لتشويق العمال وترغيبهم فى التدريب على صناعات معينة ٠(٢٢)

ووردت العبارة التالية كما هى بنفسها على لسان عامل حرفى فى احدى قرى شمال غرب ألمانيا ٠ وتبدو هذه العبارة وكأنهـــا

---

(٢٢) شارلى و ٠ كول : « كولبرت وقرن من السياســـة التجـــارية الفرنسية » مجلدان ١٩٣٩ – الاول ص ١٣٨ – ١٣٩ ، ١٥٨ – ١٥٩ ، ٢٣٦ – ٢٤٠ ، ٤٥٢ ٠٠ الثانى ١٣٨ – ١٣٩ ، ١٨٩ ، ٢٢٦ – ٢٥٢ ؛ ٢٧٢ ؛ ٢٨٤ ؛ ٢٩٦ ، ٢٩٨ ٠ ج ٠ مارتن : « الصناعة الكبرى فى عهد لويس الخامس عشر » (١٩٠٠) ص ١٩٠ – ١٩٤ ، ٢٦٠ – ٢٦١ ، ٢٨٠ – ٢٨١ ، ٢٨٩ – ٢٩٣ ؛ ٣٦٦ ٠

على لسان واحد ممن هاجروا لاستعمار أمريكا · « كنا نعيش أول الأمر على الماء والخبز بيد أننا كنا سعداء أصحاء الى أن أكرمنا الله أخيرا بالأطفال وزاد رزقى اليومى معهم » · (٢٣)

وكان على أصحاب الاعمال فى كل البلدان أن يواجهوا مشكلة الاجور المرتفعة للعمال وسلوكهم المتمرد · واكتشفوا من خلال هذا الوضع فائدة تشغيل الأطفال واقبلوا على ذلك بحماس غريب · وبدأ الناس من أمثال دانيل ديفون وماريا تيريزا يتغنون بمزايا تشغيل الاطفال · وحدث أن عانى أحد أصحاب مصانع المخمل فى بوتسدام من بعض المشاكل التى أثارها عماله فطلب السماح له بتشغيل الاطفال ممن يعيشون فى ملجأ الأيتام فى بوتسدام وأجيب الى طلبه · وبعد سنوات قليلة أصدر فودريك الثانى أمرا يقضى بتحويل الأطفال من نفس المؤسسة الى صاحب أعمال آخر استخدمهم فى صناعة لف الحرير · واستخدم أحد مصانع الموسلين فى زفيبروكين بالامارة الجرمانية ما يزيد على أربعة أخماس عماله من الأطفال وكان عدد عماله يقدر بمائتين وخمسين عاملا · واستخدمت هولندا الأطفال فى أعمال الانتاج منذ أوائل القرن السابع عشر · وظن الرأى العام أن الدافع الى تشغيل الاطفال وخاصة الأيتام منهم انما هو دافع انسانى خالص · وفى عام ١٧١٤ عبر رجال الدولة فى مؤتمر السلام المنعقد فى راشتات عن عرفانهم بالجميل للمدينة المضيفة بأن أقاموا بها مدرسة لتعليم الغزل

---

(٢٣) جوستوس موزير : « المؤلفات الكاملة » . طبعه ابيكين ، الطبعة الثانية ١٨٥٨ ـ الجزء الاول ص ١٥٥ . وقيلت العبارة عام ١٩٦٧ .

للأطفال (٢٤) ٠ ونظرا لأن أجور الاطفال كانت دائما أقل بكثير من أجور الكبار فقد استمر تشغيل الاطفال فى القرن التاسع عشر الى أن تقدم الاسلوب الميكانيكى فى المصانع وتحققت بعض الاعتبارات الانسانية ٠

وتجلت فى ألمانيا كل أوجه النقص فى العمل بل وربما برز فيها هذا النقص على نحو أقوى مما كان عليه فى فرنسا بل واستمر بكل تأكيد فترة أطول ٠ وتحولت المناطق الغربية فى ألمانيا تدريجيا خلال القرن الثامن عشر الى مناطق بها فائض من القوى البشرية بينما استمرت الحاجة الى مزيد من المستوطنين فى كثير من أراضى هابسبورج وبروسيا وهى البلد الوحيد الذى صدر به سجل شامل عن نقص الايدى العاملة (٢٥) ٠

ويمكن أن يقال بكل تأكيد عن بلدان أوروبا الغربية وشمال الألب والبرانس ما قاله توكر عن انجلترا عام ١٧٥٥ :

« ان أفقر انسان الآن يمكنه اذا كان عاملا منتجا أن يأكل وينام ويلبس أفضل من ذى قبل (هكذا) ويحصل على سلع منزلية أفضل ٠ ومن ثم يمكنه أن يصبح أفضل مما كان عليه

---

(٢٤) جوزيف كوليتشر : « تاريخ الاقتصاد العام » مجلد ٢ ١٩٢٩ ، ص ١٨٧ — ١٩٠ ، أوجست جانز « الدافع الاقتصادى فى التربية البروسية أثناء القرن ١٨ » (١٩٣٠) ص ١٨ ، ٧٠ — ٧٧ ٠ ارنست باتش : « تاريخ الاقتصاد الهولندى » ٠ (١٩٢٧) ص ١٥٥ — ١٥٧ ٠

(٢٥) كيرت هينتس : « المشكلة العمالية فى براند نبرج — بروسيا منذ بدء الراسمالية الحديثة » ١٩٢٧ ٠

أصحاب الثراء المتوسط فى الأيام الخالية ، ولقد زادت الثروة النسبية لهذا البلد بنفس هذا القدر (٢٦) » ٠

بيد أن هذا التعميم لا ينطبق على الاطراف البعيدة لمنطقة الحضارة الغربية ــ الأمريكتين فى الغرب والمنطقة الأوروبية الواقعة شرق نهر الألب ٠ فاذا كان النقص فى الأيدى العاملة قد خلق ظروفا مواتية لغالبية العامة من الناس فى أوروبا الغربيةفان هذه الحالة ذاتها والتى كانت تعانى منها المناطق الشاسعة هى التى نشأ عنها عبء العبودية الثقيل المتزايد الذى كانت تعانى منه أعداد كبيرة ففى أمريكا كان ضحايا هذه الاوضاع الهنود الأمريكيون أولا ثم الملونون الافريقيون الذين تم نقلهم الى هناك ٠ وفى أوروبا الشرقية كان ما يقرب من نصف الفلاحين أو يزيد من سكان هذه البلاد هم أول من حرموا من أرضهم ثم أصبحوا تابعين لها وأخيرا خضعوا لارادة ملاك الاراضى التى يعملون فيها الى درجة أنه لم يعد هناك اى فارق بين رقيق شرق أوروبا والعبيد من الزنوجالامريكيين بعد أن بلغ هذا التطور ذروته فى القرن الثامن عشر ٠ وكانت الشروط الأساسية التى هيأت الظروف لظهور هذه العبودية الحديثة هى المساحات الشاسعة من الاراضى التى تتميز بقلة سكانها ثم الطلب العالمى المتزايد على السلع التجارية التى لم يكن من المستطاع انتاجها على نطاق واسع الا فى هذه المناطق ٠

وترجع مقدمات الرق الشرقى الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقتما كان السكان يتزايدون بسرعة فى أوروبا الغربية ٠ ومن ثم نشأ عن ذلك زيادة فى الطلب على الانتاج من

---

(٢٦) جوزيا توكر : « عناصر التجارة ونظرية الضرائب » ١٧٥٥ ــ وأعيد طبعها ضمن « مختارات من كتاباته الاقتصادية والسياسية » . اشرف على اصدارها ر . ل . شويلر ٠ ١٩٣١ ص ١٠١

الحبوب فكانت أسبانيا والبرتغال ، ابتداء من النصف الثانى للقرن الخامس عشر ، تعتمدان الى حد كبير على وارداتهما من حبوب منطقة البلطيق ، بل ان ايطاليا كانت تستهلك بعض انتاج منطقة بحر البلطيق • وبدأت انجلترا فى أواخر القرن السادس عشر ، أى من عهد اليزابيث الاولى ، تستورد الحبوب من منطقة بحر البلطيق بكميات لم يسبق لها مثيل • وكذلك فعلت هولندا • وكانت ألمانيا الغربية والوسطى تحصلان على السلع الشرقية عن طريق النقل البرى • وسرعان ما أصبحت بولندا وشرق ألمانيا وكذلك ليفونيا والدانيمرك مناطق التموين للمنتجات الزراعية ومنتجات الغابات•

وعمل أمراء الشرق على توسيع ضياعهم وذلك أولا : عن طريق الاستيلاء على الأراضى البور أو افتداء الفلاحين وأخيرا عن طريق الاستيلاء عنوة على أراضى الفلاحين • وفى القرن السادس عشر ربح كثير من الفلاحين الشرقيين من فرص التسويق الجديدة ولم يقاوموا التطورات التى أثقلت آنذاك كاهل بعضهم فقط بتحمل زيادة طفيفة فى خدمات العمل • وسرعان ما أصبح الأمراء هم أصحاب السطوة الاقتصادية والسياسية ، وخنقت التجارة والصناعة فى المدن • وبذلك أصبحت أوروبا الشرقية بمثابة مؤخرة ريفية للغرب الذى تحضر وتم تصنيعه • وتكررت عملية مماثلة لهذه على نحو مستقل فى المناطق الوسطى من الروسيا • ففى الوقت الذى تزايد فيه السكان فى القرنين الخامس عشر اتسعت المدن القديمة وظهرت مدن جديدة ونشأت فرص جديدة للانتاج الزراعى المربح • وبدأ صغار النبلاء ــ ممن منحهم أمراء موسكو أراض وفلاحين مقابل تعضيدهم لهم ، وما يقدمونه لهم من خدمات ــ يطالبون الفلاحين بالمزيد من الضرائب المالية والخدمات فى مجال العمل ، وبخاصة فى القرن السابع عشر عندما بدأت الروسيا تزود السوق الغربى بما يحتاج اليه •

وعندما أصبح الكثيرون من فلاحي أوروبا ممن يقطنون شرق الألب يعيشون في هـذا الوضع الذليل ، ظهرت فرص لم يسبق لها مثيل فى النصف الثانى من القرن السادس عشر وخلال القرنين التاليين ، تشجع على الهجرة الى الأراضى التى فتحت حديثا • ونزح مئات الآلاف من الفلاحين ، وكان الكثيرون منهم لا يطمعون فى أكثر من تحسين وضعهم الاقتصادى ، والبعض الآخر يبغى الاستقلال • وسرعان ما لحق بهم السادة وأصبحت الاراضى الجديدة أيضـا تحت امرة أصحاب الاراضى المستغلين • ومع ذلك فقد نقص عـدد الفلاحين نتيجة هذا الانتشار الجغرافى على نطاق واسع ، وبعـد أن أفنت الحروب والأوبئة الكثيرين منهم ، وأصـبحت أوروبـا الشرقية كلها بعد عام ١٥٥٠ أو ١٥٨٠ منطقة مختلفة السـكان تعيش على أرضها الواسعة • ويفسر لنا هذا الوضع الاجراء المدمر الثانى الذى أدى الى استرقاق نصف الفلاحين الشرقيين أو ما يزيد على ذلك اذ عندما واجه الأمراء ملاك الأراضى فى شرق أوروبا هذا التدهور المسـتمر فى عدد الفلاحين المحليين ورغبتهم المسـتمرة فى الرحيل بدءوا يعملون على المحافظة على أنفسهم كطبقة وذلك بأن فرضوا على عبيدهم قسرا نظام الرق الوراثى دون أن يكون لهم أى حق فى الالتجاء الى محكمة أو ملك • وأصبح هذا الوضع العبودى آنذاك هو قانون الارض علاوة على التعاون القائم بين أمرائهم الذين يتبعونهم ـ ابتداء من القياصرة فى روسيا الى الأمير الاعظم فى بروسيا • (٢٧)

---

(٢٧) م • مالوويست : « التطور الاقتصادى والاجتماعى لدول بحر البلطيق ابتداء من القرن الخامس عشر حتى السابع عشر » • مجلة التاريخ الاقتصادى • (١٩٥٩ – ١٩٦٠) ص ١٧٧ – ١٨٩ •

جيروم بوم : « نشأة العبودية فى شرق أوروبا » • مجلة التـاريخ الاميركى – ١٩٥٦ – ١٩٥٧ • ص ٨٠٧ – ٨٣٧ » وكتاب : « السيد والفلاح

أثرت قلة السكان النسبية التى تميز بها العـــالم الغربى – من حدود أمريكا الى سيبريا – على حياته الاجتماعية والثقافيــة أكثر مما أثرت على المجال الاقتصادى • ويتفق الموقف فى سوق العمل الذى عرضناه فى الفصل السابق مع المحاولات التىقامت بها السلطات للحد من الهجرة الى الخارج بل ولتشجيع الهجرة الى داخل البلاد • ويسر هذا الى حد كبير عملية النزوح والاستيطانفى أى بلد آخر • ونتيجة لذلك انتهى عصر الطرد بالجملة والتحول الدينى عنـــوة • وعنيت الحكومات بحماية الاقليات والمهاجرين من الاعمال العدائية التى يواجههم بهـــا رعاياها المتعصبون • وكانت لا تزال هنـــاك حالات فردية لضحايا التعصب الدينى ولـــكن عمليات الطرد الجماعية أصبحت نادرة • وكان الاستثناء الوحيد لذلك عمليات الازعاج التى كانت تلحق بالهجنوت ولكن من الأمور التى لها دلالتها بالنسبة لهذا الموقف المتغير أن أولئك الهيجنوتيين الذين هاجروا من بلادهم ليتجنبوا اجبارهم على التحول عن عقيدتهم قسرا كانت أمامهم فرصة النزوح الى عـــديد من البلدان حيثما شاءوا أن يتجهوا • وكان أهل هـــذه البـــلاد يستقبلونهم استقبالا طيبا للغاية • ومن ناحية أخرى فان الرأى العام ، عدا استثناءات قليلة ، لم يكن ينظر الى سياســـة لويس

فى روسيا من القرن التاسع حتى القرن التاسع عشر » ١٩٦١ • هانز روزنبرج : « ظهور اليانكرز فى براندنبرج – بروسيا من ١٤١٠ الى ١٦٥٣ » (١٩٤٣ – ١٩٤٤) ص ١ – ٢٢ ، ٢٢٨ – ٢٤٢ •

الرابع عشر المعادية للكالفنية على أنها فقط سياسة قاسيةلاداعى لها بل أيضا على أنها سياسة قصيرة النظر • أما بالنسبةللاجئين عام ١٧٣١ الذين لجئوا من سالزبورج فلم تكن ظروف رحيلهم سهلة الى حد كبير ، الا أن أغلبهم واصل اقامته فى بروسيا• واذا قارنا هذا بالمحاولات الكثيرة والاسلوب القاسى فى دفع الافراد والجماعات قسرا لترك أوطانهم فى الفترة السابقة يمكن القول بأن عصرا جديدا للتسامح قد أشرق فجره على البلاد • ويبدو أن الاهتمام الكبير بالوافدين الجدد ممن يعودون على البلاد بالنفع أسهم فى الكشف عن فضائل التسامح والعون بصورة أوضح •

وثمة مجال آخر ظهر فيه اتجاه انسانى جديد فى ظل النظام القديم وافاد الشرائح الدنيا من المجتمع وهو نظام العقوبات الجنائية• ففى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ازدادت حالات القصاص عن طريق العقوبات القاسية زيادة كبيرة فى كل أنحاء أوروبا • فقد كانت هناك الى جانب عمليات الاعدام والتعذيب عمليات التشويه البدنى التى كانت تستخدم بشكل منتظم وتخلف الناس عجزة أو مشوهين بالحروق وعاجزين تماما عن السعى من أجل رزقهم • وحدث فى انجلترا فى القرن السابع عشر تغير كان له دوى هائل • اذ أمعن التشريع هناك فى قسوته الى حد أن أصبحت عقوبة الموت جزاء للكثير من الجرائم • بيد أن القضاة والمحلفين ، وهذه هى الحقيقة ؛ كانوا يتحايلون على القانون بحيث انخفض عدد من قدموا لساحةالاعدام من ٨٠٠ شخص فى السنة فى نهاية القرن السادس عشر الى ٢٠٠ فى نهاية القرن الثامن عشر رغم أن عدد السكان بلغ فى هذه الفترة ثلاثة أمثال ما كان عليه من قبل • وبعد عام ١٦٤٠ لم تعد تطبقعقوبات التشويه والحرق بينما زادت عمليات التعذيب باسم القانون فى

القرن السادس عشر ، مثال ذلك ما اقترحه هنرى الثامن بالقاء من يرتكبون جريمة التسميم فى ماء مغلى وهم أحياء • (٢٨)

وفى النظام القديم طبقت على نطاق واسع فكرة انشاء مؤسسة لتشغيل المذنبين على أمل انها فكرة مفيدة اقتصاديا رغم أنها فكرة قديمة • ونحن نعرف حالات عديدة أنشئت فيها مثل هذه المؤسسات لتشغيل الجانحين كانت تعمل بهدف الربح • وحدث أن التمست السلطات المحلية لاحدى المدن من سلطات مدينة أخرى أن تسدى اليها خدمة وترسل اليها بعض المجرمين ممن ثبتت ادانتهم لتشغيلهم فى مؤسستها الجديدة ولكن حتى وان لم تستطع مؤسسات كثيرة أن تفى باحتياجاتها ذاتيا فقد ظهر أن عمليات القتل والتشويه انما هى أعمال طائشة للغاية لدرجة أن تجارب الاشغال الشاقة فى هذه المؤسسات تكررت مرارا وأدت أخيرا الى استبدال السجن بالعقوبة البدنية (٢٩) •

والفكرة الاصلاحية الثانية فى مجال العقوبات الجنائية ، كانت النفى الى المناطق التى فى مسيس الحاجة للناس حتى أصبح الناس غير المرغوب فيهم هم المرغوبون • ففى القرن الثامن عشر نفت حكومة هابسبورج الى ترانسلفانيا كل المجرمين والمشتغلين

---

(٢٨) ح • ل • باوكر : « القانون والسياسة » الحضارة الاوروبية أ • آبر الطبعة الخامسة (١٩٣٧) ص ٩٥١ – ٩٦١ ، ٩٨١ • وظلت العقوبات البدنية التى توقع على العبيد والارقاء لمنعهم من الهروب عقوبات قاسية فى المناطق التى تعانى من النقص الشديد فى السكان • ومع ذلك فان الجلد بالسياط وتقطيع آذان الفارين لم يؤثر على كفاءة العمل •

ت • ح • دوتينبيكر : « الامريكيون الاوائل عن ١٦٠٧ – ١٦٩٠ » (١٩٢٧) ص ٢١٧ – ٢١٩ •

(٢٩) ح • روش و أ • كيرتشيمر « العقاب والبناء الاجتماعى » ١٩٣٩ – ص ٤١ – ٦٧ •

بالدعارة والخصوم البروتستانتيين وأسرى الحرب البروسـية • وأرسلت البرتغال كل السكان غير المرغوب فيهم الى البرازيل كما أرسلتهم الروسيا الى سيبريا وأرسلتهم انجلترا الى مريلاند •ومن المعروف أن بعض هؤلاء على الاقل ممن كان مقدرا لهم الموت فى ظل أوضاع القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد رد اليهم اعتبارهم •

ويبدو أن اهتمام الرأى العام بالأشخاص الذين يعودون على المجتمع بالنفع الاقتصادى كعمال أغرى الناس بأن يتبعوا نصيحة أصحاب الاتجاه الانسانى الحقيقيين • وظهر اتجاه جديد نحـو التعليم العام وتركز أساسا فى « المدارس التى كان يتعلم فيهـا أبناء الطبقة العاملة أوليات مبادىء التعليم الثلاثة • وكان هؤلاء يحصـلون فى نفس الوقت على أجر يعـادل كل أو بعض تكاليف الادارة المدرسية • وكانت لهذه المدارس فائدة اضافية وهى غرس عادات صحية عن العمل فى نفوس الأطفال • وفى عام ١٦٨١ كتب توماس فيرمين تقريرا عن مدرسته تكاد حروفه تتقد نارا • يقول فيه :

« ستضم مدرستى أطفـالا تتراوح أعمارهم ما بين الثـالثة والعاشرة •• ولقد أثبتت لى الخبرة أن هذا الطريق هو الطريق الصحيح تماما الذى يؤدى بالفقراء وبأطفالهم الى السعادة • فقد كان فى ورشتى عديد من الاطفال الفقراء تعلموا القراءة وتعلموا بالاضافة الى ذلك صناعة الغزل على عجلة واحدة أو عجلتين وفى امكانهم أن يحصلوا على أجر يتراوح ما بين بنسين وست بنسات يوميا • » (٣٠)

---

(٣٠) فيرمين : المرجع السابق ــ ص ١٨ •

واقترح جون لوك أن « نجلد بقسوة » الغلمان والبنات ممن هم دون الرابعة عشرة من العمر الذين يتسولون في الطرقات . واقترح في مذكرته التي قدمها الى الغرفة التجارية عام ١٦٩٧ أن يلتزم كل مجتمع بجمع الاطفال المعدمين ممن تتراوح أعمارهم مابين الخامسة والرابعة عشرة ويرسلهم الى المدارس الصناعية . وكان قد تم تنظيم مدارس صناعية من هذا النوع بشكل منسق في ألمانيا (٣١) واذا لم يكن ثمة شك في أن تلاميذ المدارس الصناعية من الأحداث انما كانوا فريسة الاستغلال في أغلب الاحيان ، الا أن الجانب الايجابي في ذلك هو التأكيد على التعليم الواقعي وفق الاتجاه الذي حدده آموس كومنيوس ومؤسسو ملجأ الايتام الشهير في هال من أتباع مذهب التقوى .

ولم تتجه حركة المدارس الصناعية ضد التقليد الانساني المتزمت في التعليم فقط بل اتجهت بالمثل ضد ما يسمى «بمدارس الصدقة » بكل اتجاهها الديني المتطرف . وأوضح أحدالاخصائيين في مدارس الايتام الصناعية الفارق بين النوعين ببساطة عندما طالب بأن تنقص عدد التراتيل التي يتغنى بها الايتام حتى لايكون في ذلك مضيعة للوقت .

« ان ملجأ الايتام من النوع العادي الذي يرتل فيه الاطفال ٤٠٠٠ ترتيلة اذا ما قارناه بملجأ آخر لا يرتل فيه الأطفال سوى ٧٣٠ ترتيلة فقط لتبين أن الأول يخسر بذلك كل عام ٥٥ يوما وساعتين وفي سبع سنوات تكون جملة خسارته ٣٨٦ يوما : حقا انه لوقت ضائع لا سبيل الى تعويضه بغيره ، طالما وأن اليتامى ليس

---

(٣١) جانز : المرجع السابق — فريتز نيوكام : « الاقتصاد والمدرسة في فرتمبرج من ١٧٠٠ الى ١٨٣٦ » (١٩٥٦) . أ . ف . م دين : « مدارس الغزل في اسكتلندا » ١٩٣٠.

من المفروض أنهم يتدربون ليعملوا مستقبلا متسولين ومغنيين وانما ليكونوا عمالا ومواطنين صالحين فى الدولة (٣٢) ٠

ولو نظرنا الى الموضوع على مستوى تأملى ـ نظرا لأنه ليس من اليسير تدعيمه بأية أسانيد سوى التطابق الزمنى ـ فاننا نرى أن ثمة تغيرا فى عقلية الجماهير يتطابق زمنيا مع التغير فىالموقف السكانى ٠ فمنذ نهاية القرن الخامس عشر حتى مطلع القـــرن السابع عشر صدرت عن أوروبا حركات دينية عميقة الانفعال تكشف عن حالة من الاستياء ٠ وقد صاغ هذه الحركات عدد من قادة الفكر يختلف بعضهم عن البعض اختلافا بينا ابتداء من سافونا رولا الى ليلبورن ممن كانوا يمقتون المجتمع الدنيوى الذى يعيشون فيه ٠ وكانت بين هذه الحركات اتجاهات عديدة وكان من الواضح أنها حركات تعنى بالآخرة وحدها ٠ وتم نضج كل هذه الحركات تحت الشعار الذى ذاع بين الناس ويدعوهم الى انكار التعميد ٠ ويبدو الآن أن المسألة هى أكثر من أن تكون مجرد توافق عرضى بحيث أن الدعوة الملحة الى الاعتقاد بأن كل شىء فى طريقه الى الزوال قد فترت بعد منتصف القرن السابع عشر ٠ كما اختفى من على المسرح الاجتماعى الاعتقاد بقرب نزول المسيح ليحكم العالم فى عهدنا ٠ وفوجىء المثقفون والمستنيرون وغيرهم بموقف اللا مبالاة من جانب الرجل العادى الذى لم يكشف عن أى مشاعر قومية أو وعى طبقى أو اهتمامات ســياسية من أى نــوع ٠ وأشار فردريك الثانى ملك بروسيا الى أن « أسلوب الثورات قد انتهى فى عصرنا كما لم يعد هناك حماس شعبى للحروب ٠ وكان الناس يؤمنون بالخرافات ولكن لم يكن ايمانا عميقا ٠ ولم يعد اليهود موضـــع

---

(٣٢) اوجست ف ٠ رولنس : « محاولة للاجابة على سؤال : كيف تطور الملاجىء ؟ » ١٧٨٥ ـ ص ٨١ ـ ٨٢ ٠

اتهام بأنهم دنسوا القربان المقدس أو سمموا الآبار ، وانتهى أسلوب احراق السحرة ٠

وسرعان ما تغير هذا المناخ الاجتماعي الذى يتسم بالاستقرار والثبات حوالى عام ١٧٧٠ ٠ وانتشرت بين القطاعات الوسطى من المجتمع الافكار الديموقراطية والكراهية لنظام النبلاء ٠ وازداد الشغب من جانب الطبقات العاملة وبدءوا بحماس زائد ينظمون أنفسهم فى نقابات ٠ وظهر أول القادة من العمال فى هذا العصر الذى تميز بالمشاكل الاقتصادية الحادة ٠ وأهم من هذا كله أنه ظهر اتجاه قومى جديد يتسم بالحماس والغيرة مزق أوصال الوحدة الثقافية التى كان يحس بها الناس فى الحضارة الغربية خلال نظام الحكم القديم وفى عصر التنوير ٠

— ٥ —

ان الهزات العقلية التى تعرض لها الفكر الاجتماعى — وأصبحت واضحة بجلاء حوالى عام ١٧٧٠ — انما حدثت استجابة لتغيرات أساسية طرأت على البناء الاجتماعى والاقتصادى ٠ ولقد أسهمت التطورات الديموجرافية اسهاما حاسما فى هذا التغير ٠

فقد كان كل كتاب الشئون الاجتماعية تقريبا فى ظل النظام القديم يؤيدون النمو السكانى السريع ٠ واتخذت الحكومات فى ذلك الوقت خطوات تكفل زيادة « أهم سلعة أساسية وأخطرها وأعزها » وهى الانسان (٣٣) وكان كولبيرت يمنح الجوائز ويعفى من الضرائب أرباب الاسر الكبيرة ٠ وبحثت حكومات كثيرة الوسائل

الكفيلة بتحسين مهارات القابلات والتي تحول دون عمليات الاجهاض أو قتل الاطفال بوسائل تبدو فى ظاهرها وكأنها حوادث عرضية اذ كانت هذه الحوادث وعلى ما يبدو تتكرر كثيرا جدا • بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك حيث خصصت بعض الحكومات اعتمادات مالية لتقدم منها صداقا متواضعا بهدف تيسير الزواج للبنات المعدمات • وشن هجوم كبير ومنظم على العرف الشعبى الذى يضخم العار على الأمهات غير المتزوجات أو يحرم الاشخاص ممن ولدوا سفاحا من العمل كصبية فى كثير من المهن أو أن يشغلوا وظائف معينة • وكانت الابروشيات فى انجلترا تقدم هبات أسبوعية للأمهات غير المتزوجات • وكانت هذه الهبات على حد تعبير آل ويب ، بمثابة جائزة مباشرة •• تدفع للسيدات مقابل أن يفقدن عفتهن • »(٣٤) وكان كتاب القرن الثامن عشر على نطاق القارة كلها يتحدثون عن « عزة الأمومة غير الشرعية » • وكشفت السلطات المسئولة عن جزعها بالنسبة لحالة اللقطاء حيث كان مصيرهم اما أن يتركوا للحياة مع زوجات الفلاحين فى الأقاليم أو أن ينشأوا فى مؤسسات خاصة باللقطاء • وثمة دليل احصائى على الزيادة الملحوظة فى نسبة الولادات غير الشرعية خلال القرن الثامن عشر • ويدل هذا الى حد كبير على أن أخلاقيات الناس الخاصة بالجنس اصابتها حالة من الاسترخاء ـ وهذه حقيقة كانت معروفة لفترة طويلة من المصادر العلمية الخاصة بالطبقات صاحبة السيادة فى النظام القديم •

وثمة احتمال بأن الناس كانوا بشكل عام يتزوجون فى سن مبكرة وان كان لا يوجد ، على ما يبدو لنا ، بيانات موثوق بها

---

(٣٤) س • و ب •• ويب « الحكومة المحلية الانجليزية السابعة : تاريخ قانون الفقر فى انجلترا » الجزء الاول : قانون الفقر القديم (١٩٢٧) ص ٣٠٨ ــ ٣١٣ •

عن متوسط سن الزواج . ومن المحتمل أن نسبة الزيجات قد زادت مع بداية القرن الثامن عشر بمعنى أن عدد حالات العزوبة التى كانت تستمر طوال الحياة قد نقصت . وترجح الابحاث المعاصرة أن نسبة المواليد قد زادت فى أوائل القرن الثامن عشر أو فى منتصفه على الرغم من أن انخفاض نسبة الوفيات كان لا يزال على ما يبدو هو السبب القوى الكامن وراء النمو السكانى (٣٥) . وعلى أية حال فأيا كان السبب فقد زاد عدد السكان فى أوروبا منذ عام ١٧٤٠ تقريبا بمعدل تجاوز كل المعدلات السابقة فى التاريخ . ورغم استمرار التوسع الاقتصادى فى أكثر أنحاء أوروبا الا أن النقص فى قوة العمل كان يقل تدريجيا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

وارتفعت أسعار المواد الغذائية التجارية ارتفاعا حادا ابتداء من ١٧٦٥ حتى نهاية القرن . وهكذا بدأت تنتهى الحياة الرغدة وطوال الثلث الاخير من هذا القرن كانت الاجور ترتفع بمعدل أقل من ارتفاع الأسعار وكانت أعوام الجفاف الكثيرة التى تميزت بقلة محاصيلها فيما بين عامى ١٧٨٠ و ١٧٩٠ فترة معاناة قاسية الى حد كبير بالنسبة للأجراء وأسرهم . ويبدو أن فرنسا كانت أول بلد عانى من أثر هذا الوضع الجديد . ومع ارتفاع أسعار المواد الغذائية دخلت صناعة النبيذ ابتداء من عام ١٧٧٨ فترة كساد استهلاكى واسهمت بذلك فى البطالة الموجودة فى الريف . وازداد عدد المتسولين والمتشردين فى كل أنحاء البلاد ، وتضاعف الاستياء

---

(٣٥) ج . ت . كروز : « التغيرات فى نسبة الخصوبة والوفيات فى انجلترا » مجلة التاريخ الاقتصادى (١٩٥٨) و « بعض الملاحظات من الابحاث المعاصرة فى التاريخ الديموجرافى » دراسات مقارنة فى المجتمع والتاريخ — ١ (١٩٥٨ — ١٩٥٩) ص ١٦٤ — ١٨٨ .

الشعبى · وارتفعت فى انجلترا تدريجيا نفقات الاعالة التى تمنح للفقراء · وازدحمت الورش التى أنشـئت للمعدمين · وتعددت حوادث الشغب فيما بين عامى ١٧٩٠ و ١٨١٢ · وأصبح الفقـر مشكلة كذلك فى كل من اسبانيا وايطاليا وهولندا وألمانيا وان لم يكن بعد قد أصبح مشكلة فى شرق أوروبا ·

وبدأت الاجور الحقيقية تنخفض بشكل ثابت فيما بعد عام ١٧٥٠ ثم انخفضت بشكل أكثر وضوحا بعد عام ١٧٧٠ · وتضاعفت أرباح رجال الاعمال وكبار المزارعين وأصـبحوا أكثر ثراء · وقيل فى معرض الحديث عن هذا الوضع أن كميات أكبر من رأس المال تم ادخارها نتيجة لذلك وأعيد اسـتثمارها بحيث اسـتطاعت عملية التصنيع أن تسير بخطوات أسرع مما كانت عليه فى الفترة السابقة· وهكذا نشأت « الثورة الصناعية » ثم زادت الطاقة الانتاجية بحيث أصبحت قادرة على الوفاء باحتياجات هذا العدد المتزايد من السكان زيادة كبـيرة وسريعة فى القرن التاسع عشر (٣٦) · ودخل العالم الغربى بذلك فترة تاريخية جديدة وأكثر دينامية ·

---

(٣٦) ايرل ج · هاميلتون : « تضخم الارباح والثورة الصناعية ١٧٥١ ـ ١٨٠٠ » النشرة الاقتصادية ـ عدد ١٠٦ (١٩٤١ ـ ١٩٤٢) ص ٢٥٦ ـ ٢٧٣ ·

المشكلة السكانية .. أثناء الثورة الصناعية *

ت . هـ . مارشال

تم أول احصاء شامل لسكان بريطانيا عام ١٨٠١ ، أما ما عدا ذلك من بيانات احصائية سابقة على هذا التاريخ فكلها بيانات مجتزأة ولا يمكن الاعتماد عليها الا في حدود ضيقة . وعندما نشر مالتوس كتابه الشهير « مقال عن مبدأ التكاثر السكانى » عام ١٧٩٨ ثم أعاد تنقيحه عدة مرات ، حاول فيه أن يتلمس الواقع الديموجرافى فى عصره وكذلك فى الماضى حتى يستطيع أن يستشف من ذلك اتجاهات المستقبل ويجد أساسا نظريا للسياسة الاجتماعية .

وفى المقال التالى يحاول الاستاذ ت . هـ . مارشال أن يؤكد اذا ما كانت نظرة مالتس الى الظروف الديموجرافية فى انجلترا ابان الثورة الصناعية لا تزال مقبولة فى جملتها . وجدير بنا الا ننسى

* أعيد نشر هذا المقال عن مجلة التاريخ الاقتصادى . العدد الاول (١٩٢٩) ص ٢٢٩ – ٤٥٦ ، مع حذف بعض فقراته باذن من الجمعية الملكية الاقتصادية والمؤلف . نسخة طبق الاصل – ١٩٢٧ للجمعية الملكية الاقتصادية .

رغم ذلك أن هذا النص الموجز الذى نعيد نشره هنا انما يعطى فقط النتائج التى انتهى اليها المقال ويحذف التقييمات النقديةالتفصيلية للبيانات التى بين أيدينا والتى استقى منها تلك النتائج ٠

* * *

لا ريب فى أن كثيرين من المعاصرين كانوا يؤمنون بأن نسبة المواليد كانت فى ارتفاع ، ولكنهم قللوا بشكل واضح من قيمة انخفاض نسبة الوفيات ان لم ينكروها تماما ٠ ولقد ثبت أنهم على خطأ فى ذلك ٠ ويتلخص جوهر ما يمكن أن نسميه بالموقف « المالتوسى » فيما يلى :

أولا : أن معدل زيادة السكان أسرع من المطلوب ٠

ثانيا : ينبغى الحد من معدل المواليد ٠

ثالثا : أن ثمة قوى اقتصادية معينة كانت تزيد من معدل المواليد وهذه القوى يمكن ازالتها بواسطة اجراء سياسى سليم خاصة قوانين اعانة الفقراء والمطالبة بتشغيل الاطفال ٠

وأحب أن أشير هنا الى أن أحسن التقديرات الحديثة عن المواليد والوفيات فى انجلترا وويلز معا لا تؤكد يقينا زيف هذه النظرة ، بل يبدو أكثر من ذلك أنها تدعمها أو أنها ، كما أفضل أن أقول تتسق معها نظرا لأن هذه الاحصاءات يغلب عليها الطابع التأملى ٠ والنتيجة هى العكس تماما ٠ ويمكن فقط عن طريق الدراسة المقارنة للأرقام المحلية أن نأمل فى اقامة الدليل على صدق او زيف النقطة الأخيرة وهى أهم النقاط الثلاث ٠ بيد أننى لم أحاول ذلك ٠

نحن نعرف أن الانخفاض السريع فى معدل وفيات الاطفال هو القسمة الرئيسية لانخفاض نسبة الوفيات ٠ وبالنظر الى

النتائج الاقتصادية المترتبة عليها ـ والتي تصبح بدورها عللا اقتصادية ـ فان انخفاض وفيات الاطفال يكون غالبا معادلا بالضبط للزيادة في المواليد • حقا ان أشخاصا جددا يفدون دون أن يمثلوا ولادات جديدة • ولكن الدلالة الاقتصادية للولادة تعد شيئا ضئيلا اذا ما قورنت بالدلالة الاقتصادية للجهد المبذول في الرضاعة والرعاية والتربية وما يتبع ذلك من تكاليف خاصة بالتغذية والملبس والضغط على أماكن الاقامة • ونحن نستطيع في الحقيقة أن نعتبر عدد الاطفال الذين يبلغون من العمر ستة شهور أو سنة هو العدد الذي يمثل « النسبة الخالصة للمواليد » • وتعتبر هذه النسبة أهم بكثير من « النسبة الاجمالية للمواليد » فيما يتعلق بمشكلة السكان كما تبدو في نظر المؤرخ الاقتصادي • وكانت « نسبة المواليد الاجمالية » في الاعوام الأولى من هذه الفترة التي نحن بصددها تتميز بالثبات أو الهبوط الطفيف وتوحي بارتفاع في « نسبة المواليد الخالصة » • ومن ثم فمن بواعث الخطأ أن تقارن نسبة وفيات منخفضة بنسبة مواليد مرتفعة ونرى في ذلك سببا في النمو السكاني دون أن نتبين أن الموت قد يلحق بالناس في أي سنة من سنوات العمر على عكس الميلاد فانه يحدث عادة في نهاية الشهر التاسع • وكان يمكن أن تصبح الموازنة هنا صحيحة لو أن الحياة تمتد بالناس حتى السبعين • بيد أنه فرض باطل عمليا •

تجنبت في مناقشتي السالفة استخدام عبارة « التضخم السكاني » ، ذلك لأنني لم أشأ أن أفسد الموضوع مقدما • اذ لو أننا نظرنا الى هذه العبارة حسب معناها الدقيق الذي تلتزم به النظرية الحديثة نجد أنها لن تفيدنا فائدة تذكر في مناقشة الوضع الراهن حتى أن أشهر الكتاب الذين يتناولون المشاكل العملية انما يستخدمونها ليعبروا بها عن شيء أقل دقة وان كان يحمل نفس الاسم • ولعل أسوأ ما في الأمر استخدام الصحفي لهذه العبارة

استخداما خاطئا يخذل به كل مظاهر التفكير الواضح · وبالتالى ، اذا جاز لى أن أوائم بين الصور المجازية المختلفة فى صورة واحدة، فان هذه الكلمة تبدو فى سياق كل مناقشة بمثابة مهرب يستعين به أى ناقد ليصرف به ذهن القارىء عن لب الموضوع · وهى فى معناها الدقيق مصطلح من مصطلحات الاقتصاد الاستاتيكى الذى يشير به الى حالة معينة · مثال ذلك أن نقص عدد القاطنين فى منطقة من المناطق التى تكون موضع دراسة يتبعه زيادة فى الدخل بالنسبة للفرد مع افتراض ثبات كل الملابسات الاخرى بما فى ذلك توزيع الاعمار · ويستخدم الكتاب الذين يتناولون الموضوعات العملية هذا المصطلح بمعنى دينامى فيشيرون به الى احتواء منطقة من المناطق لعدد من السكان يفوق طاقتها دون أن يترتب على ذلك انخفاض فى مستوى المعيشة بل وربما ، دون أن يؤثر ذلك على اطراد ارتفاع مستوى المعيشة خلال فترة معقولة وافتراض أن البناء الاقتصادى قادر على التكيف بطريقة سوية مع الظروف المتغيرة ·

ومع ذلك فثمة قسمات خاصة تميز تاريخ المرحلة الاولى من القرن التاسع عشر وتشير الى شيئين : ـ

أولا : أن الظروف الاقتصادية أدت الى ظهور قوة كان مقدرا لها أن تحد من معدل النمو السكانى فى المستقبل القريب ·

ثانيا : ان هذه القوة جاءت كنتيجة مترتبة على سرعة النمو السكانى فى الماضى القريب، وطابع هذا النمو · وبعبارة أخرى فحتى لو افترضنا أنه لم يكن هناك تضخم سكانى فقد كان هناك ضغط سكانى نجم عن الفشل فى احراز أى تقدم اقتصادى وزيادة عدد السكان بما لا يتناسب مع الوضع الاقتصادى · وأى ضغط من هذا النوع الدينامى القصير الاجل يمكن علاجه ، ولا يكون العلاج عن طريق الخفض المطلق لحجم السكان وانما عن طريق تعديل معدل

النمو · ولا يتيسر هذا الا اذا كان الضغط ليس مماثلا لضغط جسم متحرك على جسم آخر فى حالة ثبات وانما يمـــاثل ضغط جسمين كلاهما فى حالة حركة ويحتك أحدهما بالآخر عن طريق التماس ·

والنتائج التى يمكن أن نخرج بها من هذه الدراسة لهـا فى الغالب الأعم طبيعة الفروض والتى نستطيع أن نتأكد من صحتها عن طريق البحث التفصيلى · ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ ـ كانت نسبة المواليد العامة (١) خلال الفترة الواقعة ما بين عامى ١٧٥٠ ـ ١٨٣٠ نسبة عالية بدرجة محلوظة قياســا بالنسب السابقة عليها أو اللاحقة لها · ولم يكن ارتفاعها هذا شيئا غريبا نظرا لأنه حدث مباشرة عقب عصر كانت فيه نسبة الوفيات مرتفعة ارتفاعا واضحا بينما كان النمو السكانى فى حالة ثبات ·

والشيء المثير حقا هو استمرار هذه النسبة العالية ، باستثناء بعض ذبذبات لاقيمة لها ، طوال الاربعين عاما الأخيرة من هذه الفترة، بالنظر الى حالات ثلاثة وهى : ـ الانخفاض الواضح فى نســـبة الوفيات والذى بدأ حوالى عام ١٧٨٠ ، وانخفاض نسبة وفيـــات الأطفال · وتعادل هذه الظاهرة من حيث نتائجها الاقتصادية ارتفاع نسبة المواليد · وأخيرا تتابع بعض الأزمات الاقتصــادية الحادة · ويلزم عن هذا أننا اذا ما كنا نبحث عن تفسير للزيادة السريعة فى السكان فلابد لنا وأن نعنى عناية كبيرة بالقوى التى أدت الى ارتفاع

---

(١) « نسبة المواليد العامة » هى عدد المواليد لكل الف من السـكان دون اى تعديل من ناحية بعض الخصائص السكانية مثل العمر أو الجنس أو المهنة .. الخ ،، اما « نسبة المواليد الخاصة » فهى على سـبيل المثـال عدد المواليد لكل الف من النساء اللائى تتراوح اعمارهن ما بين ١٥ و ٤٤ . ونادرا ما كانت الاحصاءات السكانية القديمة تسمح بحساب نسب المواليد الخاصة . (ملاحظة بقلم المحرر ·)

نسبة المواليد مثلما نعنى بالقوى التى أدت الى خفض نسبة الوفيات ٠

٢ ـ اذا قدرنا نسبة المواليد على أساس عدد النساء القادرات على الانجاب فانها ستكون نسبة مرتفعة ارتفاعا ملحوظا ٠ واستمرت هذه النسبة فى ارتفاع تدريجى حتى عام ١٧٩١ وحافظت على مستواها حتى عام ١٨٢١ ٠ وتتفق التقديرات التى وصفها فار مع أرقامى التقديرية (بعد حذف الحشو الزائد) من حيث أنها تكشف لنا عن ارتفاع طفيف فى الأعوام العشرين الأولى من هذا القرن ٠ وظلت النسبة كما هى حتى عام ١٨٣٠ تقريبا دون أن ترتد الى المستوى الذى كانت عليه عام ١٧٨٠ ٠ والمواليد التى تمثل الأساس الذى تقوم عليه هذه النسب المرتفعة هى مواليد ما بين عامى ١٧٨٦، ١٨٢٦ ٠ وحدث خلال هذه الفترة ما لايقل عن ثلاث أزمات اقتصادية حادة ـ وهى الأزمات التى ارتبطت بأسماء سبينهام لاند ولوديزم وبيترلو ٠ فكانت البلاد طوال نصف هذه المدة تماما فى حالة حرب مما اضطرها الى أن تسلم رجالها للخدمة العسكرية فى البحر أو فى البر على أرض القارة ٠ وكان هذا بمثابة قيد فرض على القوى التناسلية القومية ولا تكشف عنه نسبة المواليد التى تقوم على أساس عدد النساء البالغات ٠

بيد أن نسبة المواليد ابان الحرب كانت أعلى منها فى عام ١٨٥١ بنسبة ١٨٫٥٪ كما كانت خلال أعوام السلام العجاف ١٨١٦ ـ ١٨٢٦ أعلى مما كانت عليه عام ١٨٧١ وهو قمة « العصر الذهبى » بنسبة ١٠٪ ٠

٣ ـ ربما ظلت نسبة الزواج مرتفعة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ولكنها انخفضت فى القرن التاسع عشر ٠ وكلا التقديرين يكشفان عن أنها كانت عام ١٨٢١ أقل مما كانت عليه عام ١٨٠١ ٠

ويوحي هذا بأحد شيئين : أما ارتفاع الخصوبة أو زيادة العلاقات غير الشرعية ، وربما كليهما معا • ولو صح أن الذبذبة فى منحنى الزواج الذى بلغ قمته عام ١٨٠١ تكشف عن انخفاض معدل عمر الزواج فسيتبع ذلك بطبيعة الحال ارتفاع فى نسبة الخصوبة •وهذه هى النتيجة المباشرة للزيجات المبكرة لأنها أكثر خصـــوبة فى أعوامها الأولى وسوف تتدعم هذه النتيجة مع مرور الوقت نظرا لأن الزيجات المبكرة تتميز بفترة حمل أطول •

٤ ـ بلغت نسبة الوفيات العامة أدنى نقطة لها حوالى عام ١٨١١ ثم بدأت فى الارتفاع بعد ذلك بسنوات قليلة واستمرت فى الارتفاع حتى الثلاثينيات الأخيرة • ووافق هذا الارتفاع تغير فى توزيع الاعمار مما يساعد على خفض نسبة الوفيات ، أعنى زيادة فى نسبة هؤلاء الذين يتمتعون بصحة جيدة فى ريعان حياتهم • ومن ثم فان الأمر أكثر خطورة مما يبدو فى ظاهره • فعلى أساس متوسطات السنين السبع كانت نسب الوفيات فى عامى ١٨٢١ و١٨٤١ تساوى ٢١ر٨ و ٢١ر٧ • ولو افترضنا أن سكان عام ١٨٤١ يتالقون من حيث العمر والجنس بنفس النسب التى كان عليها سكان ١٨٢١ اذن لأصبحت نسبة الوفيات ٢٢ر٨ أى بزيادة قدرها ٥٪ • ومن المحتمل على ما يبدو أن هذه الزيادة التى كانت ملحوظة بشـــكل واضح بين الأطفال وسكان المدن الكبرى انما حدثت نتيجة لأسباب اقتصادية اذا ما استخدمنا هذا المصطلح بمعنـــاه الواسع بحيث يتضمن النقص فى المواد الغذائية والسكن والرعاية الصحية •

٥ ـ فيمـــا بين عامى ١٨٢٠ و١٨٣٠ بدأ يحدث فى مكان ما انخفاض محدد فى كل من نسبة الزواج ونسبة المواليد • ومع عام ١٨٣١ عادت نسبة المواليد لأول مرة الى مستوى عام ١٧٨١ (هذا تقدير تخمينى) وذلك اذا قيست هذه النسبة على أساس عدد

النساء اللائى تتراوح أعمارهن بين ٢٠ ـ ٤٠ عاما • ومع عام ١٨٤١ انخفضت فجأة وبسرعة الى ما دون ذلك بكثير (وهذه حقيقة واقعة) • والآن يصبح من حق النظريات القديمة أن توضح لنا كيف يعكس هذا الانخفاض المرحلى ، الذى بدأ بطيئا فى أوله وسريعا بعد ذلك تاريخ تشغيل الأطفال وقانون اعانة الفقراء • ففى العشرينات بدأت تفرض القيود على تشغيل الأطفال وان كانت قيودا ضعيفة وبدأ العمل عن طريق التعاقد يحل محل التلمذة الصناعية للصبية والنظام الجديد لا يعفى الأب تماما من مسئوليته تجاه أطفاله • وفيما بين عامى ١٨١٥ الى ١٨٣٤ كان نظام سبينهام لاند لا يزال مطبقا على نطاق واسع • الا أن قيمة الاعانة كانت تنخفض انخفاضا فجائيا وكبيرا حينما كان ذلك ممكنا • وبدأ القضاة يعارضون مبدأ «النسبة فى خدمة الأجور» وأعلنوا فى حالات عديدة أنه مبدأ غير شرعى • وفى الثلاثينيات بدأ تنفيذ قانون المصانع وقانون اعانة الفقراء الجديد •

٦ ـ ان هذا التقارب بين نسبتى المواليد والوفيات وما ترتب عليه من الحد من سرعة النمو السكانى يبدو وكأنه حدث نتيجة لضغط اقتصادى • وكشفت الملاحظة الآن عن أن نسبة الوفيات لا تتأثر بسرعة بالذبذبات التى يتعرض لها الرخاء الاقتصادى على عكس نسبة الزواج ونسبة المواليد فانهما أكثر حساسية لها •

والشيء المؤكد أن تنظيم النسل لم يكن مطبقا على نطاق واسع رغم أنه كانت هناك معرفة به الى حد ما • وربما كان فرنسيس بلاس يبالغ عندما قال عام ١٨٢٢ : « ان وسائل منع الحمل » وصححها بقوله « تحطيم الجنين تستخدم بالفعل على نطاق واسع » بين الطبقة العاملة • وليس من قبيل المصادفة ما نراه من اهتمام حماسى بهذا الموضوع فى أوائل القرن التاسع عشر • اذ أنه يكشف

عن الرغبة فى الافلات من الضغط السكانى المزعوم واعتقاد بعض الأوساط أن استخدام الجهلاء لهذه الوسائل غير المرغوب فيها يشكل خطرا كبيرا على الصحة والحياة • ومن ثم فربما يكون من الأفضل أن يكون تأجيل الزواج هو وسيلتنا للتحكم فى النمو السكانى • ويشير الانخفاض السريع فى نسبة المواليد فى الثلاثينيات الى أنه كان نتيجة لضغط اقتصادى • ويوحى الارتفاع السابق فى نسبة الوفيات بأن هذا الضغط كان موجودا على أقل تقدير عام ١٨١١ وربما قبل ذلك • وهذه الفكرة من شأنها أن تدفعنا مرة أخرى الى التساؤل لماذا لم تبدأ نسبة المواليد فى الانخفاض فى فترة مبكرة عن ذلك ؟ وحتى اذا كانت قد توقفت بعض الشيء عندما نشبت الحرب الا أنها سرعان ما عادت سيرتها الأولى وظلت مرتفعة طوال عشرين عاما أخرى •

٧ ـ كان الضغط الاقتصادى من ناحية نتيجة مباشرة لسرعة النمو السكانى • وصحب هذا النمو تركز السكان فى المدن ، وتسبب عنه ارتفاع فى نسبة الوفيات فى المدن وهى التى رفعت نسبة الوفيات على النطاق القومى • وأهم الظواهر التى كان لها تأثيرها القوى فى خفض نسبة المواليد هى أولا : عبء اعالة الأطفال الذين قدر لهم أن يعيشوا نتيجة انخفاض وفيات الأطفال • ثانيا ، ما ترتب على ذلك من اندفاع موجة من الشبان الى سوق العمل الذى كان يعانى بالفعل من حالة كساد • ومن ثم كان هؤلاء الشبان عاجزين عن الزواج وبالتالى انخفضت نسبة المواليد • ويمكن استنباط هذين العاملين من منحنى السكان •

هذه هى الاحتمالات التى نشأت والفروض التى أوحت بها الاحصاءات العامة لهذه الفترة • ومن الواضح أن اتباع مالتوس سواء أكانوا على صواب أم خطأ فى تفاصيل ما تناولوه بالتحليل

فى دراستهم الا أن قلقهم كان له ما يبرره ، وكانوا على صواب تماما حين رأوا فى نسبة المواليد مفتاح الموقف ٠ ولقد حدث بالفعل كل ما كان يخشاه مالتوس ٠ فكل عمليات الضبط الوقائية كان تأثيرها بطيئا ونشطت عمليات الضبط الموجبة لتكبح من جماح سرعة النمو السكانى ٠ وكان مالتوس يؤمن بأن فشل عملية الضبط الوقائية انما يرجع من ناحية الى التأثير السيء لقانون اعانة الفقراء ٠ أما (ريكمان) فقد كان من رأيه أن تأثير قوانين اعانة الفقراء على زيادة السكان أقل بكثير مما ينسب لها عادة فى المناقشات النظرية ٠ الا أنه كان يعتقـــد أن الســـكان المشتغلين بالصناعة يتزايدون بسرعة ويرجع ذلك من ناحية « الى أن الأطفال الذين يعملون فى كثير من المصانع قادرون على اعالة أنفسهم فى سن مبكرة ومن ثم فانهم لا يكلفون آباءهم نفقات كثيرة ، ويجدون فى ذلك تشجيعـا واضحا على الزواج » ٠ ولا تستطيع الاحصاءات العــامة أن تزعم لنفسها القدرة على ادانة هذه الآراء ، بيد أننى آمل أن أكون قد أوضحت أن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن ننتزع منها قسرا الدليل ضدهما ٠

مالتوس ونظرية السكان *

روبرت . ب . ڤانس

تعرض مالتوس أكثر من أى مفكر اجتماعى كلاسيكى آخر لهجوم حانق شديد ، كما دافع عنه البعض أيضا بحماس شديد • فكان موضع ذم كمنظر اجتماعى وموجه سياسى ينذر الناس بأحداث المستقبل ، ومفكر أخلاقى بل وربما كباحث يعنيه جمع الحقائق • وقد يكون ثمة مبرر له قيمته يبرر بعض هذه الانتقادات اذا نظرنا اليها على ضوء معرفتنا الاسترجاعية لمسار الاحداث أو للمعايير الحديثة للضبط والاتساق النظرى • ومع ذلك فقد كان مالتوس علامة مميزة لعصر بذاته ، وثمة وجهان متمايزان لدوره الرئيسى الذى قام به • أولا : فقد ارتبط اسمه بالجزع من مستويات المعيشة المنخفضة • ولم يكن جزعه هذا أمرا غير واقعى بالنسبة لعصره الذى كان يعيش فيه (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) • ثانيا : أنه وقف عند نقطة تحول هامة فى تاريخ البشرية تمثل الانتقال من عادات الخصوبة العالية الى الخصوبة الضعيفة • ولم يحاول أن يكبح جماح هذا

* اعيد نشر هذا المقال عن مجلة الشئون الخارجية ص ٢٦ عدد ٤ (يوليو ١٩٤٨) ص ٦٨٢ ـ ٦٨٩ • مع حذف بعض الفقرات باذن من المؤلف وهيئة تحرير مجلة الشئون الخارجية . نسخة طبق الاصل ١٩٤٨ ، مجلس العلاقات الخارجية ».

التحول الخطير ولكنه أعطاه من فكره ـ تحت اسم « التماسك الخلقي ـ أكثر مما أعطاه أي مفكر آخر قبله • ويبدو أن معظم العداء الذي صبه أصحابه على مالتوس في شكل محاجاة عقلية انما كان مبعثه في الحقيقة الفزع من حالة الاستياء التي تقوم عليها الحضارة •

- ١ -

مقال عن مبدأ التكاثر السكاني من حيث تأثيره على تحسين أوضاع المجتمع مستقبلا مع بعض الملاحظات الخاصة بتأملات السيد جودوين و م • كوندرسيه وكتاب آخرين • كتب المقال توماس روبرت مالتوس • لندن : ١٧٩٨ •

لم يحدث أن صدر كتاب في وقته تماما مثلما حدث بالنسبة لكتاب توماس روبرت مالتوس : «مقال عن مبدأ التكاثر السكاني»• ظهر هذا الكتاب عام ١٧٩٨ ، أي في منتصف الثورة الديموجرافية، وعلى الارض التي كان سكانها على وشك التكاثر بسرعة أكبر ابان «قرن السيادة البريطانية» المقبل ، أكثر مما كان في أي بلد آخر من بلدان القارة • اذ ظل سكان أوروبا منذ مائة وأربعين عاما في وضع استاتيكي يقدر عددهم بما يقرب من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة • وبعد مائة وأربعين عاما بدأت الدول الاوروبية المتقدمة تواجه مشكلة تناقص سكانها • ولكن في عام ١٧٩٨ كان لمبادىء التكاثر السكاني المعروضة في «المقال» أهمية مفزعة • اذ بدأ يتضاعف تعداد سكان أوروبا الذي كان يقدر آنذاك بحوالي ١٨٧٠٠٠٠٠٠ ـ وكان مقدرا له أن يصل الى ٥٥٠٠٠٠٠٠٠ رغم الهجرات الواسعة •

ففي عام ١٦٥٠ كان يقدر تعداد سكان العالم بما يقرب من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة وكان مقدرا له أن يصبح في عام ١٩٤٠ بليونين

وأتى نصف بليون من هذه الزيادة فى ١٥٠ عاما أى من عام ١٦٥٠ الى عام ١٨٠٠ ، وأتى بعد ذلك مايربو على بليون نسمة • والسمة المميزة لهذه الفترة كلها هى تكاثر السكان فى أوروبا بأعداد كبيرة• ففى خلال ثلاثمائة عام ازداد عدد الاوروبيين ـ مع احتساب أصحاب الدم الاوروبى الخالص الذين يعيشون خارج القارة ـ أكثر من سبعة أضعاف • ويقول فى ذلك كنجسلى دافيز « لو نظرنا الى الموضوع فى اطار المستقبل البعيد نجد أن نمو سكان الارض أشــبه بفتيل بارود طويل ودقيق يحترق فى بطء وتردد الى أن تصل النار فى النهاية الى شحنة البارود ثم لا يلبث أن ينفجر » • وأبرز شيء فى زيادة سكان الغرب ، وهي الزيادة المسماة «بالثورة الديموجرافية»، هو تكاثر السكان المتكلمين باللغة الانجليزية • اذ زاد تعداد هؤلاء من ٥٥٠٠٠٠٠ نسمة تقريبا عام ١٦٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٤٠ • وخلال المائة وخمسين عاما الاخيرة من التاريخ الاحصائى زاد سكان الجزر البريطانية أكثر من أربعة أضعاف ، بينما أسهموا فى نفس الوقت بأكثر من ١٧٥٠٠٠٠٠ نســـمة اسـتوطنوا شمال أمريكا وأراضى الدومنيون فيما وراء البحار •

ويعتقد الباحثون المحدثون من خلال دراستهم للطبعة الاولى من «المقـــال» أن مالتوس كان معنيا أساسا بمشــكلة الفقر أما مسألة التكاثر السكانى فقد كانت تحتــل مرتبة ثانوية من تفكيره • فقد كان يعتزم بحث طبيعة الفقر أسوة بآدم سميث فى دراسته لطبيعة الثروة • ولــكنه قدم كتابه فى شكل رد على وليام جودوين ودعاة الكمال الاجتــماعى • وترتب على ذلك أنه بضربة واحدة أثار ثائرة كل من المحــافظين من رجال اللاهوت والراديكاليين الاجتماعيين • « وظلت الانتقادات تتساقط كالمطر ثلاثين عاما متوالية » • ويقول جيمس بونار مؤرخ حيــاة مالتوس «ان مالتوس هو الانسان الذى أسيء اليه أكثر من غيره فى هذا العصر ، وغبنه الناس حين نظروا

اليه «كانسان يدافع عن مرض الجدرى والعبودية وقتل الاطفال وأنه كان ضيقا بمطاعم الفقراء التى تمنحهم الحساء مجانا ، ويعارض الزواج المبكر والهبات التى تقدمها الكنيسة للفقراء · وأنه أشبه بمن بلغت به القحة الى حد أن يعقد زواجه بعد أن يعظ الناس ضد مساوىء الاسرة · وأنه كان يرى العالم يساس بطريقة سيئة للغاية بحيث أن أفضل الاعمال تنجم عنها أكثر النتائج ضررا وايذاء · » ولكن مالتوس كمفسر يوضح أسباب الفقر لم يكن أوفق من غيره فى الاقتراب من الاجابة المقنعة مثل ما فعل قادة مبرزون آخرون من أصحاب الاتجاه الفكرى الواحدى من أمثال هنرى جورج · وان اهم ما أسهم به هو نظريته الخالدة عن التكاثر السكانى والتى طورها خلال محاولاته الست التى نقح فيها رسالته ·

وكان مالتوس يؤمن ، كما يعرف الآلاف ممن لم يقرءوا له ، أن النمو السكانى يتجه الى تجاوز وسائل العيش ، وأننا ان لم نكبح جماح هذا الاتجاه فان البشرية ستغرق فى البؤس والفوضى الشاملة · وعرض مالتوس المشكلة فى نسبته المشهورة : يتزايد السكان حسب متوالية هندسية بينما يتزايد الغذاء حسب متوالية حسابية · وقال ان أى أمة ما لم تضف أرضا جديدة فانها تتوقع أن تنتج كل عام من الغذاء مثل ما انتجته فى العام السابق تماما ، بينما يمكن أن يتضاعف عدد السكان لكل جيل كما أثبتت أمريكا ذلك · واستطرد قائلا ويمكن أن يبقى التعداد السكانى معادلا لكميات الغذاء وذلك عن طريق فرض قيود معينة · وآخر القيود كلها هو المجاعة ـ أو الجدار الأصم الذى ستصطدم به الزيادة السكانية فى النهاية · ولكن ثمة قيود أخرى يمكن لها أن توجد قبل أن تبلغ ذلك القيد الاخير ـ وهى الفقر وسوء التغذية والرذيلة والحرب · ويعتبر الزواج المتأخر مع التماسك الخلقى الوسيلة الوحيدة للخلاص من هذه النتائج الكئيبة (وهذه هى النتيجة التى

أثارت ثائرة جودوين بشكل خاص) وأى مشروع يهدف الى اصلاح المجتمـــع وتخفيف وطأة الحاجة التى تضـعف من هذا الدافع لن يترتب عليه سوى تعميق هذه الشرور التى ينشد المشروع علاجها ٠

- ٢ -

يميل العلماء المحدثون الى تجنب الجدل الذى لا طائل تحته وذلك بتوجيه سؤال واحد : كيف لنا أن نعيد صياغة الفرض الذى وضعه مالتوس بحيث يتسنى لعلماء الديموجرافيا أن يضعوه موضع الاختبار ؟ ربما يكون من المستطاع تنقيحه ليصبح على النحو التالى: علينا أن نتوقع زيادة كبيرة فى السكان ٠ وسيعقب هـذه الزيادة انخفاض فى نصـيب الفرد من استهلاك المواد الغذائية وزيادة فى نسبة الوفيات بحيث ينتهى الامر بحدوث مجاعة ٠ والبديل الوحيد لذلك هو الزواج المتأخر على نطاق واسع بقدر الامكان ، حتى تقل الخصوبة بدرجة كبيرة ٠ واذا راجعنا هذه العبارة الفرضية على ضوء وقائع الديموجرافيا سيتضح لنا مقدما ، اذا استثنينا شرط الحرب، أن شعبا واحدا فقط من بين شـــعوب الحضارة الاوروبية ــ وهو الشعب الايرلندى ــ هو الذى حقق التوقعات المعقولة لمذهب مالتوس ٠ ويعرف علماء الديموجرافيا المحـدثين ، بعـــد نظرتهم الى مسرح الاحـــداث على مدى ١٥٠ عاما تالية ، أن مالتوس كان يعيش فى مرحلة خاصة من مراحل الدورة السكانية ٠

* * *

ونحن نعرف يقينا أن نسبة الوفيات (باستثناء الذبذبات التى نجمت عن الحرب) ظلت تتناقص منذ أيام مالتوس ٠ ونحن نعرف أيضا أن ســـبب الثورة السكانية الكبرى التى أدت بمالتوس الى تقديم نظريته هو زيادة طول الاعمار وليس ارتفاعا مفترضا فى نسبة

الوفيات • وكما أوضح أ•م• كار ـ سوندرز فان هذا النقص فى الوفيات قد بدأ فى انجلترا حوالى عام ١٧٣٠ وهو العام الذى ولد فيه مالتوس الـكبير • وانخفضت النسـبة من ٣٥ فى الالف الى ٢٢ فى الالف عام ١٨٢٠ أى بعد ثلاثة أعوام من التاريخ الذى أصدر فيه مالتوس الصغير الطبعة الخامسة من كتـابه «المقال» • ومضى مائة وأربعون عاما منـذ تاريخ حدوث أول نقص كبـير فى نسبة الوفيات فى انجلترا أى حوالى عـام ١٧٤٠ الى تاريخ حدوث أول انخفـاض كبير فى نسبة المواليد حوالى عام ١٨٤٠ • واستمرت الوفيات تتناقص الى أن بلغت ١٠ فى الالف فى العقد الاول من هذا القرن • واستمرت الزيادة السـكانية طوال الستين عاما التـالية وترجع الزيادة أساساً الى التباعد بين النسبتين •

ان التغيرات الكبيرة التى طرأت على ميـادين الطب والرعاية الصحية والاجتماعية أنقذت حياة الكثيرين فى انجلترا كما أنقذت حياة الكثيرين فى غيرها من البلدان• وهكذا أصبح مرض الاسقربوط من الامراض النادرة منذ عام ١٧٥٠ • ويرجع ذلك أساسا الى أن الفلاحين بعد أن كانوا يتركون الارض بورا فى الشتاء أدخلوا زراعة المحاصيل الدرنية التى زودتهم بالخضروات وسـاعدتهم أيضا على الحصول على كميات أكبر من اللحوم الطـازجة • وساعد استخدام القطن فيـما بعد على انتشـار الاقمشة الرخيصة بين الجماهير •

* * *

وأصبحت العادة المتبعة أن يرتدى الاطفـال مع بداية الشتاء حللا جلدية وهكذا أدت زيادة النظافة الى خفض نسبة الوفيات• وخفضت الرعاية الصحية والطبية من الأمراض الوبائية ووفيات الاطفال التى نكلت بانجلترا قرونا طويلة •

ان الثورة فى مجال الطب والرعاية الصحية أنقذت حياة الاطفال ، وأبقت الثورة الصناعية عليهم أحياء ليشبوا ويكبروا . وكما قال هارولد رايت (١) : « ان المشكلة السكانية التى عنى بها مالتوس بوجه خاص وهى مشكلة اطعام هذا العدد المتزايد بسرعة من الانجليز من انتاج جزيرة ظلت كما هى من حيث الحجم أمكن حلها لمدة مائة عام على الاقل ، وذلك عن طريق الزيادة الهائلة فى انتاج السلع المصنعة واستبدال هذه السلع بالطعام والمواد الخام من قارات جديدة . وبينما تزايد عدد السكان أصبح الطعام أرخص سعرا بالفعل ، وأصبح فى وسع عدد كبير من المهاجرين أن يستنبتوا الطعام فى الخارج وأمكن امتصاص عدد كبير من النساء الاوروبيات فى ميدان انتاج الآلات الزراعية والسفن البخارية والسكك الحديدية التى مكنت من انتاج الطعام ونقله الى أرض الوطن للاستهلاك . » وخلاصة القول أن الثورة الصناعية أرجأت الازمة السكانية فى انجلترا لمدة مائة عام . ولكن ما أن يعم التصنيع جميع أرجاء المعمورة حتى تكون انجلترا وأوروبا الغربية قد خلقت عن طريق التكاثر بهذه الحدود الجديدة سكانا صناعيين تزيد كثافتهم كثيرا عن الحد المعقول الذى كانت تأمل فى تحمله . ويجب أن نشير ، اتصافا لمالتوس ، الى أنه تنبأ مقدما بهذا الاحتمال . وقد حذرنا من هذا الخطر فى الفقرة التالية التى قليلا ما يلتفت اليها :ـ

« وسط تيه التأمل أشار البعض الى أن أوروبا ينبغى عليها أن تزرع قمحها فى أمريكا وتكرس نفسها للصناعة والتجارة باعتبار أن هذا هو أفضل تقسيم للعمل على نطاق المعمورة . ولكن على أحسن الفروض فاذا كان المسار الطبيعى للأحداث سيؤدى الى مثل هذا التقسيم للعمل لفترة ما ، واذا افترضنا أن أوروبا ستتمكن بمثل

---

(١) هارولد رايت : «السكان» . نيويورك : هاركوت ١٩٢٣ ص ٣٣ .

هذه الوسائل أن تزيد تعدادها أكثر مما تحتمل أرضها الا أننا يجب أن نخشى مغبة ذلك • فثمة حقيقة مسلم بها وهى أن كل دولة تتجه فى تقدمها نحو الثروة وتنشد تصنيع نفسها •• ولكن اذا ما بدأت أمريكا على أساس هذا المبدأ تحجز قمحها عن أوروبا ولم يتمكن الانتاج الزراعى فى أوروبا من سد العجز فاننا سنشعر يقينا أن المزايا المؤقتة للثروة الكبيرة والتكاثر السكانى قد دفعنا مقابلها ثمنا غاليا جدا يتمثل فى فترة طويلة نقضيها مع البؤس والتراجع الى الوراء(٢) •

وعلى الرغم من أن الثورة الصناعية أعطت أوروبا مهلة قبل مواجهة مخاطر التضخم السكانى الا أن هذا لم يكن اصلاحا دائما فى مواجهة التحدى الذى صاغه مالتوس • وعندما بدأت الحركة التعويضية فقد اتخذت نفس المسار الذى كان يدافع عنه ـ أى انخفاض مستمر وحاد فى المواليد ـ وان لم تحدث بنفس الصورة التى تخيلها • فقد ظلت نسبة الزواج مرتفعة عدا منطقة واحدة ستشير اليها • وتجنبت شعوب الثقافة الغربية الازمة السكانية عن طريق الحركة المعروفة باسم «المالتوسية الجديدة» أو تنظيم النسل أو منع الحمل أو تحديد الأسرة • واذا قلنا أن نقص الوفيات كان بداية الثورة الديموجرافية فاننا نستطيع أيضا أن نقول ان انخفاض الخصوبة كان بداية الثورة المضادة •

وقد أصبح واضحا مع عام ١٨٥٠ أن نسبة المواليد كانت فى تناقص مستمر فى فرنسا والولايات المتحدة وايرلندا • وثبت أن الخصوبة العالية فى أمريكا قد بدأت تنخفض مع فترة التعداد الاول عام ١٧٩٠ • وانخفضت نسبة المواليد فى فرنسا عن عام ١٨٤٧ الى

---

(٢) ت • ر • مالتوس : « مقال عن السكان » الطبعة السابعة ـ افرى مانز ليبرارى ـ مجلد ٢ ص ١١١ •

عــام ١٩٤١ من ٢٧ فى الالف الى ١٩ فى الالف ، ونقصت خلال الحرب العالمية الاولى الى ١١ ثم ارتفعت قليــلا ارتفاعا مؤقتا ولكن لم تلبث أن استعادت سـيرتها الاولى فى مسارها التنازلى • وكان ثمة انخفاض ضئيل ، بل نكاد نقــول أنه لم يحدث تغير يذكر ، بالنسبة لسن الزواج أو فيمـا يتعلق بنســبة المتزوجين الى غـير المتزوجين من السكان • ويرجع الانخفاض الى تقييد الخصوبة أثناء الزواج • ومن الواضح أن العمل على الحد من حجم الاسرة بدأ أولا فى فرنسا ثم امتد من هذا البلد الى غيره من بلدان أوروبا الغربية •

وبلغت نسبة المواليد فى انجلترا درجة عالية عــام ١٨٧٠ • ومع عام ١٨٨٠ كانت الخصوبة فى انجلترا فى حالة انحدار كامل فمن عام ١٨٧٠ الى ١٩٣٠ ، أى خلال ستين عاما ، انخفضت النسبة من ٣٥ الى ١٥ فى الالف • وكانت طبيعة الاتجــاه العــام للحياة الانجليزية تؤدى الى هــذا التحول • والشىء المؤكد انه لم يكن فى انجلترا من هو ملكى أكثر من «الملكة» ولم يكن هناك من هو أفضل منها فى التعبير عن نظرة الشعب البريطانى الى قضايا داخلية بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة • فقد كتبت فى عام ١٨٤١ الى ملك البلجيك تقول : « أظن يا عمى العزيز أنك لا تستطيع بحق أن تتمنى لى أن أكون أما لعائلة كثيرة العدد ، ذلك لأنك على ما أعتقد ستتفق معى فى أن العائلة الكبيرة مصدر قلق لنا جميعا ، وللبلد بوجه خاص ، ناهيك عن المشــاق والمتاعب التى تخصنى • ان الرجال لا يفكرون أبدا ، أو أنهم نادرا ما يفكرون فى العبء المضنى الذى تضطر النساء الى تحمله كثيرا جدا » •

ولكن لماذا فشل مالتوس ، وهو المفكر الواقعى ، فى تصور امكانية تحديد الاسرة ــ وهى أبرز حركة ديموجرافية فى العــــالم الحديث ؟ يبدو أن مالتوس فى نظر الغالبية العظمى من المفـكرين يخدم سيدين جد مختلفين • مذهب المنفعة العامة ومذهب السلطة •

انتهى جيمس أ٠ فيلد الى أن مالتوس كان على علم بالدعاية السائدة في أيامه عن تنظيم النسل ، وأنه شجب بقوة استخدام أى جهاز بدنى للحد من حجم الأسرة (٣) ٠ وكان مالتوس برأيه هذا يراعى التقليد الارثوذكسى ٠ وهذا هو المثال الوحيد الذى استحق من أجله العالم الديموجرافى صفة «القس مالتوس» والذى كان كثيرا ما يوصف به ٠ وبفضل هذا الرأى أصبح المهيجون المعاصرون من أمثال فرنسيس بلاس وريشار كارليل وروبرت دال أوين ودكتور شارلس نولتون فى وضع أفضل من مالتوس من حيث التحكم فى وسائل التنبؤ العلمى ٠ وفى رأى مالتوس أن الشرط الاساسى للزواج كان «الاعتقاد بامكانية اعالة زوجة وست أطفال» ٠ (ويقدر علماء الديموجرافيا المحدثين أن ثلاثة أطفال لكل أسرة مخصبة يمثل العدد الكافى لتعويض الفاقد من التعداد السكانى وضمان استقراره ٠ أما ستة أطفال لكل أسرة فسوف يؤدى الى مضاعفة السكان مع كل جيل ٠) وليس ثمة شك فى اخلاص مالتوس فى دفاعه عن القيد الاخلاقى ٠ ولكن يمكننا أن نلاحظ أيضا أن الكتاب الراديكاليين فى عصره أشاروا الى ما يؤكده رجال الدين والاطباء والكتاب الاجتماعيين اليوم من أن المجتمع اذا كان يرغب فى أن يعلى من قيمة العفة الجنسية فلا بد من السماح بالزواج المبكر ٠

ويعتبر تاريخ السكان فى ايرلندا صورة مأساوية لمعضلة مالتوس ٠ اذ كانت المجاعة هى الباعث المحرك لها ٠ فمع عام ١٨٤٥ تضاعف السكان خلال فترة تعيها ذاكرة الاحياء ٠ وبلغ تعداد السكان ٨٣٠٠٠٠٠ نسبة ٠ وكتب سير جيمس أوكنور فى كتابه «تاريخ أيرلندا» ما يلى : «كانت الكنيسة تشجع الزواج المبكر ٠ وشجعت سياسة الحكومة الايرلندية السكنى من الباطن ٠ وأدى

(٣) « مقال » ملحق ، الطبعة الخامسة ، ١٨١٧ ؛ وبطبعة السادسة ١٨٢٦ — المجلد الثانى — ص ٤٧٩ ٠

اجتماع الزواج المبكر والسكنى من الباطن الى زيادة السكان بسرعة كبيرة . وكان ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف من السكان يعيشون فى بيوت من طين غطيت سقوفها بالقش بطريقة رديئة ، ولكل منهم حجرة واحدة لا غير وأغلب هذه الحجرات بدون نوافذ أو مدخنة.» وظهرت فى أمريكا عام ١٨٤٤ آفة البطاطس التى تستطيع أن تتلف المحصول فى أيام قلائل . وفى عام ١٨٤٦ اجتاحت هذه الآفة ايرلندا وكأنها الموت الاسود ودمرت كل موارد غذء الفلاحين . وفى خلال خمسة أعوام من ١٨٤٦ الى ١٨٥١ مات ١٠٠٠٠٠٠ شخص . وذكرت التقارير أن ٢١٧٧٠ حالة وفاة كانت بسبب الجوع فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٤١ و ١٨٥١ ، وهو سبب لا يستحب ذكره عادة فى السجلات الرسمية .

وكانت النتيجة هجرة جماعية الى خارج ايرلندا . ففى خلال عشرة أعوام هاجر ربع سكان البلاد ، واتجه أكثرهم الى الولايات المتحدة ، وكان قد غادر البلاد خلال جيلين فقط ما يقرب من ٥٠٠٠٠٠٠ . وواجه الايرلنديون الموقف عن طريق تأجيل الزواج أو العزوف عنه . ولا يسعنا الا أن نقدر تخمينا نسبة المواليد فى ايرلندا للفترة الواقعة فى منتصف القرن التاسع عشر . بيد أن كار ـ سوندرز يعتقد أنها كانت أقرب الى ٤٠ منها الى ٣٠ فى الالف قبل عام ١٨٥٠ ثم بدأت تتناقص حوالى هذه الفترة . وكانت هذه النسبة فى عامى ١٨٧١ ـ ١٨٨١ هى ٢ر٢٦ فى الالف ، وفى عامى ١٩١١ ـ ١٩٢٦ ١ر٢١ فى الالف . وزادت نسبة السيدات غير المتزوجات خلال هذه الفترة ممن تتراوح أعمارهن بين ٢٥ و ٣٥ عاما من ٢٨٪ عام ١٨٤١ الى ٥٣٪ عام ١٩٢٦ . ولكن اذا ما أرجأ شعب بأكمله الزواج لفترة طويلة فان هذا يعنى بطبيعة الحال أن كثيرين من أبنائه سينصرفون عن الزواج كلية . وفى عام ١٨٤١ كان ١٥٪ من نساء ايرلندا من المتقدمات فى السن من ٣٥ـ٤٥ عاما

غير متزوجات . وارتفعت هذه النسبة مع عــام ١٩٢٦ الى ٢٩٪ . وهكذا فان ثلاثة أعشار نساء ايرلندا جميعهن يحيون فترة الاخصاب بغير زواج . ومع ذلك فبالنسبة للنساء اللائى تزوجن فقد احتفظن بخصوبتهن عالية كما كانت دائما . ففى عام ١٨٦١ كان هناك فى ايرلندا ١٣٠ طفلا ممن تقل أعمارهم عن خمسة أعوام لكل ١٠٠ زوجة يقــل عمرها عن ٤٥ عاما . وفى عــام ١٩٢٦ كان الرقم المناظر ١٣١ طفلا . أما فى انجلترا وخلال الفترة ذاتها فقد انخفض الرقم المناظر من ١١٦ طفلا لكل ١٠٠ امرأة متزوجة الى ٧١ .

واستقر عدد سكان أيرلنــدا الآن حول ٤٣٠٠٠٠٠ أى نصف عدد السكان قبل المجاعة تقريبا . وتوجد الآن فى ايرلندا أعلى نسبة فى العزوبة فى الغرب ان لم يكن فى العالم كله . وتهب ايرلندا أبناءها وبناتها ليعملوا رهبانا أو راهبات فى الكنيسة الكاثوليكية على نطاق العالم . أما فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة فلم تنقص نســبة المتزوجين أو ربما نقصت بنسبة ضئيلة ونظرا لأن أيرلندا قد خفضت من نســبة المواليد فيها عن طريق العزوف عن الزواج ، وكان هذا نتيجة سلسلة غريبة من الملابسات الاقتصادية دعمها ولاء شعبها للكنيسة . وتؤكد مأساتها جدوى الاسلوب الذى كان يمكن أن يتبعه العــالم الغربى لخفض عدد سكانه لو أنه عنى بمالتوس الاخلاقى وليس بمالتوس العالم . وتشير هذه المأساة الى مدى عنف الاجراءات المطلوبة لتنفيذ توجيهات مالتوس .

السكان فى إيرلندا * ١٧٥٠ - ١٨٤٥

د . ك . بيرنت

تعتبر المجاعة التى اجتاحت ايرلندا فيما بين عامى ١٨٤٥ ـ ١٨٤٧ واحدة من بين خمسة كوارث هى أخطر كوارث سكانية عرفها التاريخ الأوروبى . (الأربعة الأخرى هى الموت الأسود وحرب الثلاثين والحربين العالميتين الأولى والثانية) . فقد كان تعداد سكان ايرلندا عام ١٨٤١ هو ٨١٧٥٠٠٠ . والمعتقد أنه أصبح فى عام ١٨٤٥ حوالى ٨٣٠٠٠٠٠ ، وانه فى عام ١٨٥١ لم يتعد ٦٥٥٢٠٠٠ . وتناقص العدد باستمرار حتى وصل الى ٤٣٩٠٠٠٠ عام ١٩١١ و ٤٢٤٠٠٠٠ عام ١٩٦١ . وأهم دراسة ديموجرافية تفصيلية عن الظروف التى أدت الى هذه الكارثة الكبرى هى الكتاب الذى ألفه ك . هـ . كونيل والذى نعرضه فى المقال التالى .

---

* اعيد طبعها عن مجلة التاريخ الاقتصادى ـ السلسلة الثانية ، ٤ (١٩٥١ ـ ١٩٥٢) ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ـ مع حذف بعض الفقرات باذن من جمعية التاريخ الاقتصادى والمؤلف .. نسخة طبق الاصل ـ ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ . اصدرتها جمعية التاريخ الاقتصادى . ويعتبر هذا المقال عرضا لمقال ك . هـ . كونيل . سكان ايرلندا من ١٧٥ الى ١٨٤٥ (اكسفورد : كلاريندون بريس ـ لندن : جيفرى كامبرليج ـ مطبعة جامعة اكسفورد (١٩٥٠) ص ١١ ـ ٢٩٣ .

كان تعداد سكان ايرلندا حسب تقديرات عام ١٨٢١ هو ٦٨٠١٨٢٧ . واهم تقديرين من التقديرات السابقة على التعداد السكانى واللذين يتسملن بالحرص الشديد فى اعدادها هما تقديرا نيو وينهام وبوش . وقدر الأول السكان فى عام ١٧٨٨ ب ٣٩٠٠٠٠٠ والثانى بما يربو على ٤٠٤٠٠٠٠ . وحسب الأرقام التى قدمها نيو وينهام فقد زاد عدد السكان فيما بين عامى ١٧٨٨ و ١٨٢١ بنسبة ٧٤٪ . وأشار السيد كونيل الى أن أكثر التقديرات السابقة على التعداد كان يصل اليها أصحابها عن طريق معرفة عدد المنازل حسب تقرير جباة العوائد ثم يضربون هذا العدد فى رقم ما (وهو رقم تخمينى فى أغلب الأحيان) يعتبرونه متوسطا لعدد السكان فى كل منزل . ويناقش هذا الاتجاه بقوله ان عدد المنازل كان يقدر عادة أقل من الحقيقة وأن العدد الاجمالى للسكان الذى يصلون اليه كان عددا صغيرا أيضا ما لم يخطىء رجال الأحصاء ويبالغون فى تقديرهم لحجم متوسط الأسرة . وكان تقديره الخاص للسكان عام ١٧٨٨ هو ٤٣٨٩٠٠٠ . ويتبع هذا أن الزيادة خلال الأعوام الثلاثين السابقة على ١٨٢١ لم تكن زيادة سريعة جدا كما كان الاعتقاد السائد بشكل عام .

ومع ذلك فقد كان الأمر مثيرا للغاية . لماذا ؟ لم يكن السبب فى رأى السيد كونيل هو زيادة الطموح فى حياة أطول والذى أصبح ممكنا بفضل التقدم فى علوم الطب والتحسينات التى دخلت ميدان الصحة العامة . انه يشك فى هذا بوضوح على ضوء علاقته بالمشكلة فى انجلترا (ص ١٨٥ ، ١٨٦) : ويجد نفسه مضطرا الى رفض هذه الفكرة بالنسبة لايرلندا نتيجة مسح شامل وهام للغاية للمستشفيات فى ايرلندا ومستودعات الأدوية وحوادث الجدرى والحمى . « أن مهمة تفسير ازدياد السكان

يجب أن تبحث عنها على أساس الخصوبة . » (ص ٤٤) . ولقد كان الزواج المبكر هو القوة المحركة لهذه الزيادة الهامة فى الخصوبة . ولكن لم يحدث أن سيطر على رجال ونساء أيرلندا فجاءه فى عام ١٧٨٠ جنون ثورى للزواج المبكر . وانما ماحدث آنذاك وطوال ما يقرب من خمسين عاما تالية أن بعض العوامل يسرت باطراد الرغبة القائمة فى الزواج المبكر . وكان أهم هذه العوامل هو اتساع رقعة الأرض الصالحة للزراعة بعد عام ١٧٨٠ والاعتماد أكثر فأكثر على انتاج البطاطس وتفتيت الملكيات العقارية وامتداد الزراعة الى الجبال والمستنقعات ثم الدفعة الاقتصادية التى دفعها البرلمان والحرب للاقتصاد الأيرلندى . وتحتل البطاطس وسط هذا كله المركز الرئيسى . وجدير بالذكر ان السيد كونيل يرفض وجهة نظر الدكتور سلامان فى أن البطاطس أصبحت السلعة الغذائية التجارية لأيرلندا منذ عام ١٦٣٠ . ورأيه الخاص أن هذا التطور لم يكتمل الا فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر . وهنا عند هذه النقطة ، وهى نقطة حيوية فى نجاح هذه القضية ، يبدو أن ميزان الحجة والدليل يميل لصالح السيد كونيل وهو يخالف أيضا الأستاذ جورج أوبرن فى اعتقاده بأنه على الرغم من أن ملاك الأراضى بدأت تراودهم الرغبة فى تجميع الملكيات بعد عام ١٨٢١ تقريبا ، الا أنهم كانوا لم يستطيعوا فقط أن ينجزوا الا شيئا يسيرا جدا قبل عام ١٨٤٥ .

وثمة شىء واحد واضح وضوحا سافرا . فقبل المجاعة الكبرى بربع قرن كانت هناك كارثة يعتبر وقوعها منذ تاريخ غير بعيد قدرا محتوما كأى شىء آخر من شئون البشر . اذ أصبح مرض البطاطس أكثر شيوعا وربما كان ذلك لأن السلالات العديدة المستخدمة كانت أكثر تعرضا للمرض . وزادت أوبئة الحمى

اكثر من ذى قبل .. وسدت « الثغرة بين المجاعات » والتى ربما كانت أحد أسباب الزيادة الكبيرة فى السكان منذ عام ١٧٨٠ .

وثمة خط واحد رئيسى فى نقد كتاب السيد كونيل يمكن اعتباره مفيدا أو ممكنا فى الحقيقة . ففى مقابل دراسته الفاحصة والرصينة للغاية عن الاحصاءات السكانية نجده يفرق بين الفينة والفينة فى تعميمات واسعة عن التنظيم الاجتماعى والظروف الاجتماعية يدعمها حينا برأى أدبى ويعرضها أحيانا اخرى كتأكيدات مجردة . « كثيرا جدا ما كان يتضمن اتجاه مالك الأرض الى اقطاعيته الحط من مستوى لفلاحين . (ص ٦١) » ان سبب كثير من حالات عوز الفلاحين لمقومات الحياة وهجرهم لأراضيهم هو التكالب على جمع النقود الذى ملأ نفوس الكثيرين من ملاك الأراضى . (ص ٦٢) . ومن العسير علينا أن نوفق بين استخدام بعض هذه الألفاظ مثل « غالبا جدا » و « كثيرا جدا » و « كثيرا » وبين الدقة التى يتخذها السيد كونيل معيارا له فى موضع آخر . كما أنه من العسير ايضا أن نوفق بين رأيه عن ملاك الأراضى واعتذاره بأنهم لم يكونوا جميعا مستوطنين ، وأنه لم يكن ثمة وسطاء يفصلون بينهم وبين مستأجرى أراضيهم . ويرى أن علاج مشكلة غياب ملاك الأراضى عن ضياعهم انما هو علاج قاصر كما وأنه يكاد لا يذكر شيئا عن نظام حق الايجار فى مقاطعة أولستر .

واذا صحت هذه الانتقادات فانها لا تنتقص كثيرا من قيمة كتاب السيد كونيل والتى يستحقها عن جدارة . انها فقط تشير الى انه عندما يقترب من حدود موضوعه ، وهى المنطقة التى قد تصبح عند وضع الخرائط شيئا عفى عليه الزمن ، فانه يقنع ببعض الأمور كمسلمات ويطبق معيارا أقل تزمتا مما التزم به طوال الجانب الرئيسى من كتابه .

السكان والزراعة في السويد ١٧٠٠-١٨٣٠

بقلم: جوستاف أوترستروم

ان النظريــة القديمة التى تقول ان الثــورة الصناعية هى المســئولة عن خفض مســتوى معيشة الطبقـــات العاملة يرفضها المؤرخون الانجليز بالنسبة لبلدهم التى تعتبر « ورشة العالم » . ونظرا لأن الزيادة السريعة فى السكان التى بدأت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر تعد عاملا هاما فى مناقشتنا هذه فمن المفيد أن نقارن التطور الذى حدث فى انجلترا بتطور آخر فى بلد زراعى أساسا مثل السويد . ومقال الدكتور أوتيرســـتروم الذى اختصرناه هنا كثيرا ، يشير الى أن التغيرات الديموجرافية تعد شرطا يحدد البناء الطبقى وكذلك مستويات المعيشــة ـ بطريقة مستقلة تماما عن التصنيع .

※ اعيد طبعها عن مجلة التــاريخ الاقتصــادي لاســكنديناڤيا ـ عدد ٩ (١٩٦١) ص ١٧٦ ـ ١٩٤ ـ مع حذف بعض الفقرات باذن من المؤلف ورئيس تحرير مجلة التاريخ الاقتصادى لاسكنديناڤيا . نسخة طبق الاصل ـ ١٩٦١ .

أيا كانت القوى التى أدت خـــلال أزمنة مختلفة الى زيادة السكان فمن الواضح والمسلم به أنه ما أن يزيد عدد السكان حتى يصبح هذا العدد الكبير من السكان فى حد ذاته عاملا مستقلا يؤثر بدوره على الحياة الاقتصادية . وطبيعى أن آثاره تختلف حسب طبيعة المجتمع ، أى اذا ما كان مجتمعا مكتفيا بذاته أو اذا ما كان مجتمعا يعتمد أســاسا على اقتصـــاد المقايضة أو اقتصاد نقدى . وقد ساد السويد وبلدان اسكندينافيا خلال هذه الفترة نوع من الاقتصاد الثنائى . ويلزمنا أن نقول بأن عنصر الاكتفاء الذاتى كان هو العنصر السائد من الناحية الكمية .

وأى زيادة فى السكان فى مجتمع يقوم اقتصاده على أساس الاكتفاء الذاتى انما تفترض مقدما وجود زيادة فى انتاج الطعام . واذا كان التكنيك المستخدم تكنيكا استاتيكيا فان هذه الزيادة لن تتحقق الا عن طريق استصلاح الأراضى فى الداخل . وقد ترتبط عملية الاستصـــلاح هذه بتفتيت المزارع القائمة . وليس ثمة شك فى أن الزيادة فى سكان السويد خلال القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر أمكن امتصاصها بهذه الطريقة داخل المجتمع المكتفى بذاته .

ونظرا لأن الزيادة فى عدد المزارع لا يمكن أن تسير بنفس السرعة التى يزيد بها عدد الأسر فقد زاد بطبيعة الحال عدد أبناء الطبقات الزراعية الذين هم دون طبقات المزارعين . واســــتمرت هذه الزيادة طوال الفترة التى نحن بصدد دراستها وما بعدها

أيضا ، ولكن لم تكن الزيادة بمعدل واحد دائما . فالتباين فى أرقام المواليد سنويا وبالتالى فى مجموعات الأعمار الكبيرة هو تباين له أهميته بالنسبة لموضوعنا هذا . ففى خلال العقدين الآخيرين من القرن الثامن عشر كانت الزيادة فى عدد الأسر المعدمة تماما أو المعدمة الى حد كبير زيادة كبيرة بشكل خاص . ويبدو ان الزيادة كانت واضحة جدا قبل هذه الفترة بين طبقة صغار المستأجرين. ولكن ابتداء من هذه الفترة وما بعدها كانت الزيادة الكبيرة بين العمال الزراعيين والأجراء ممن يملكون مساحة ضئيلة من الأرض أو من المعدمين تماما . (١) ويشير هذا التغير الى أن مطالب الفلاحين للعمل كانت تلبى تدريجيا ، وأن فتيان الريف عندما كانوا يبلغون سن الزواج كانوا يضطرون فى الغالب الأعم الى العمل كأجراء يعتمدون فى حياتهم أساسا على أجورهم التى يتقاضونها كعمال يوميين . بيد أنهم أيضا كانوا يستطيعون بذلك أن يتحايلوا على تدبير معاشهم بهذه الطريقة . وربما سارت الأمور على هذا النحو بسبب زيادة الطلب على العمال الموسميين فى فترة ارتفاع الأسعار والتطورات التى حدثت نتيجة لذلك فى ميدان الزراعة مثل استصلاح الأراضى وتكثيف الزراعة الى حد ما وان كان ذلك قد تم بشىء من الصعوبة . ويبدو أنه مع نهاية القرن الثامن عشر لم تعد الأيدى العاملة الزراعية والفتيات العاملات فى الريف

---

(١) لوحظ ان تغيرا مماثلا فى الزيادة النسبية للطبقات الزراعية حدث كذلك فى فنلندا (أ . جوتيكالا) .

تختار أساسا ، كما كان الحال من قبل ، من بين المجموعات العابرة من أطفال الفلاحين ، وانما كانوا يختارون من بين أبناء الطبقة العاملة الزراعية .

وحدث أيضا خلال العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر أن انتشر نظام استخدام الأجراء الزراعيين المتزوجين بدلا من غير المتزوجين . وبدأ هذا النظام يمتد الى الاقطاعيات الزراعيسة فى السويد الوسطى وبوجه خاص فى المقاطعات القائمة حول بحيرتى ملارين وجالمارين . وامتد كذلك جنوبا حتى منطقة استيرجوت. وكان الخادم الزراعى المتزوج يحصل على كوخ من مالك الأرض ويتقاضى أجره عينا أساسا مع قليل من النقود كأجر اضافى . ويرتبط ارتباطا وثيقا بهذه الطبقة الجديدة المعدمة طبقة جديدة من صغار الفلاحين يسمون sta ttorpare . وصغار الفلاحين هم غالبا فئة لا تملك أرضا خاصة بها ويتقاضى أفرادها أجرهم عينا بشكل أساسى . ونظرا لأن الفلاح الفقير كان يملك قطعة أرض صغيرة يفلحها لحسابه الخاص ، أو هكذا كان أصلا على أقل تقدير ، لذلك فانه كان يتقاضى أجرا عينيا أقل ، وربما كان بوسعه أن يعمل أياما أقل من الأيام التى يعملها الأجير المعدم . ويظل هذا الأخير دائما بطبيعة الحال طوال أيام الاسبوع تحت تصرف سيده تماما ويعتمد اعتمادا كليا فى رزقه على ما يتقاضاه من أجر عينا ونقدا . وابتداء من عام ١٨٠٠ على أقل تقدير ، وما بعد ذلك ، كانت زوجات رجال كل من المجموعتين يجدن أنفسهن عادة . ملزمات

بالمساعدة فى أعمال حلب اللبن فى حظائر الماشية التابعة للمزارع الكبيرة مقابل أجر ثابت ضئيل .

وثبت أن عمل الطبقة المعدمة الجديدة من فقراء الفلاحين والمعدمين يمثل بديلا مربحا للعمل الذى كان يقوم به قبلا المزارعون من فلاحى الاقطاعيات والى حد ما، وكان وضع هؤلاء غير مأمون تماما . اذ كان من السهل طردهم وضم حيازاتهم الى مزرعة البيت التابعة للاقطاعية . ويبدو أن هذا الاجراء قد تكرر كثيرا جدا وبخاصة فى السويد الوسطى .

وأصبح اصطلاح « الفلاح الفقير » اصطلاحا شائعا فى ضريبة الأرباح وسجلات الولايات الاقطاعية فى السويد الوسطى ابتداء من عام ١٧٧٠ وما بعد ذلك . ويطالعنا بالمثل اصطلاح «الفلاح المعدم» ابتداء من هذا التاريخ ولكنه أقل شيوعا منه بكثير . وادخال هذا النظام من العمل علامة واضحة على الرغبة الشديدة لدى ملاك الأراضى فى أن يكون تحت تصرفهم مورد منتظم وكاف للأيدى العاملة يعيشون بين أيديهم حتى يتيسر لهم تطوير وتوسيع الزراعة فى أراضيهم . وربما كان أيضا علامة على اهتمامهم المتزايد بمزارع ماشية اللبن . وربما كان هذا النظام يستند ، حتى فى هذه الأيام ، الى بعض المحاولات التى تهدف الى خفض النفقات الخاصة بالأجور . وثمة دليل يشير الى هذا الاتجاه . ولا ريب فى أن انتشار نظام العمل الجديد على نطاق واسع عقب الانخفاض الشديد فى أسعار الحبوب فى أوائل

عام ١٨٢٠ انما يرجع الى بعض الاعتبـارات الخاصة بتكاليفه الانتاج .

ومن بين الظروف التى مهدت لنظام العمل الجديد خلال هذه الفترة ، بما فى ذلك الفترة الواقعة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفرة الأيدى العاملة من الشباب . وربما كان أقوى عامل أدى الى رواج هذا النظام على نطاق واسع هو الاتجاه المشجع لأسعار المنتجات الزراعية .

ويبدو أن ارتفاع الأسعار عموما وبشكل واضح فى السويد بعد منتصف القرن الثامن عشر ، ثم عند نهايةالقرن ، كان له أثره الايجابى على الانتاج الزراعي - أو هكذا على الأقل فى بعض المناطق .

واذا سلمنا بالفرض القائل بأن التوسع السكانى كان نفسه مسئولا جزئيا عن ارتفاع اسعار الحبوب ، اذن فان هذا لايفترض مقدما مجرد الزيادة فى السكان ولا شيئا آخر ، بل يفترض كذلك ان هذه الأعداد الاضافية أسهمت فى انتاج الغذاء وأن مساهمتها كانت أقل من استهلاكها وأنه لا بد أيضا وأن هذا العدد الاضافى من السكان كان يتمتع بقوة شرائية اضافية لها أثرها الفعال . وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وبخاصة عند نهاية هذا القرن ، ذاع على نطاق واسع الاستثمار الزراعى فى شكل استصلاح للأراضى وأعمال الصرف وغير ذلك من تحسينات فى

المزارع الكبيرة وفى بعض المزارع الصغيرة . وكان من النتائج المتوقعة لذلك ارتفاع الدخل الاجمالى للعمال بما فى ذلك الدخل النقدى . ومن خـــلال ما نعرفه عن تركيب أجور خدم المزارع وغيرهم من العمال الزراعيين فقــد كانوا على الأكثر يتقاضون الجانب الأكبر من دخلهم عينا وبخاصة دخلهم عن العمل فى ضياع الفلاحين . وان كان هناك جزء ضئيل من الأجر يدفع نقدا فى أماكن كثيرة من البلاد . واذا أخذنا فى الاعتبار الزيادة التى طرأت على عدد العمال وزيادة الاستثمار فى ميـدان الزراعة ، اذن فمن المعقول أن نفترض أن القوة الشرائية الاجمالية قد زادت أيضا .

وكان من المألوف فى السويد ، وكذلك فى أغلب بلدان أوروبا، عند دراسة زيادة السكان فى القرن الثامن عشر ومحاولة تفسير هذا الزيادة على ضوء المصطلحات الديموجرافية ، أن ينظر أولا الى التغيرات التى طرأت على الوفيات . وربما لا يأبه الباحث كثيرا للتغيرات التى تطرأ على نسبة الزواج والخصوبة . وتدل احصائيات السويد على أن نســبتى الزواج والخصــوبة كانتا عاليتين فى منتصف القرن الثامن عشر ، وسبق لنا أن ناقشنا احتمال ارتفاعها فيما قبل ذلك أيضا ، ومع ذلك فمنذ هــذا التاريخ ومابعده وضح أيضا أن هناك انخفاضا مستمرا وثابتا . وتدل نسبة الزواج المرتفعة ونسبة المواليد المرتفعة ، اذا اجتمعتا معا ، على أن هناك فرصا طيبة للعمل والاكتساب وفرصا طيبة أمام الشباب للزواج وتأثيث بيت . ويمكن أن نأخذ أى هبوط فى الأرقام على أنه دليل على وجود مصاعب كبيرة فى هذه المجالات.

وثمة مؤشر آخر فى نفس الاتجاه وأكثر ايجابية يشير الى سوء الظروف التى كانت تعيش فيها الجماهير العريضة من السكان ، تتمثل فى الأمل الضعيف فى الحياة لدى من تجاوزوا عامهم العشرين من ١٧٩١ الى ١٨١٥ قياسا بالفترة الواقعة بين عامى ١٧٥١ — ١٧٩٠ . ومن العسير علينا أن نتجنب النتيجة التالية وهى أن النمو الاقتصادى فى نهاية القرن الثامن عشر لم يستطع فى سهولة أن يلاحق النمو السكانى .

بعض النتائج الاجتماعية والثقافية للموجة السكانية الطاغية فى القرن التاسع عشر *

بقلم : بيتر راسوف

اذا كان عدد السكان فى منطقة ما لا يؤثر فقط على اقتصادها بل يؤثر كذلك على مجالات أخرى من الحياة الاجتماعية ، اذن لنا أن نتوقع امكانية تفسير التطورات السياسية والثقافية المختلفة على أساس ربطها بالبيانات الديموجرافية . والمقال التالى ، الذى كتبه المرحوم الأستاذ راسوف بجامعة بون بألمانيا، يقدم لنا أفكارا تتسم بمداها الواسع فى هذا الاتجاه . ومن الواضح أنه لم يكن من المقصود بها أن تكون الكلمة الأخيرة فى دراسة علمية تاريخية بل بالأحرى أن تكون حافزا لمزيد من البحث وصياغة فروض أخرى للتاريخ الاجتماعى .

(*) قام بترجمة هذا المقال حربرت مولنر .

تكاثر سكان أوروبا بصورة لم يسبق لها مثيل فيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٠٠ ، ونتيجة لهــذا تغيرت ظروف كل بلد على حدة كما تغيرت العلاقات بين كل دولة وأخرى تغيرا ثوريا حقيقيا.

فقد تكاثر السكان فى الولايات المتحـــدة الألمانية التى كان يضمها رايخ بسمارك ، وفى بريطانيا العظمى بأرقام دائرية على النحو التالى :

السنة	ألمانيا	بريطانيا وايرلندا
١٨٠٠	٢٤ مليونا	٤٤ مليونا
١٨٧٠	٤٠ مليونا	٣١ مليونا
١٩٠٦	٦٠ مليونا	١٦ مليونا

الا ان لكل من هـــذين العمودين من الأرقام معنى مختلف تماما عن الآخر بالنسبة لكل من البلدين . فقد كانت انجلترا هى أول دولة تحولت الى دولة صناعية على مستوى عال ، فضلا عن أنها كانت تملك امبراطورية فيمـا وراء البحـــار ومستعمرات للاستيطان ، بينما كان المهـاجرون الألمـــان ينزحون جميعا دون استثناء الى بلدان غير المانية ولا تتكلم لغتهم .

ولكى نعطى مثالا آخر لتغير ديموجرافى يستوجب عمـــل مقارنات على النطاق العالمى يمكننا أن نشير الى عملية التحضر غير المســتوية والتى أدت الى خلق فوارق هـــائلة فى التراكيب الاجتماعية . ففى ألمانيا كان عدد السكان الذين يعيشـــون فى مدن يربو سكانها على ٢٠٠٠ نسمة يصل الى ٣٦٪ عام ١٨٧١ و ٥٤٪ عام ١٩٠٠ . وفى فرنسا زاد سكان المدن خلال هـــذه

الفترة ذاتها من ٣١٪ الى ٣٦٪ فقط . وتزداد هـــذه المقارنة وضوحا اذا عرفنا أن المدن الصغيرة فى ألمانيا التى يقــل سكانها عن ٢٠٠٠٠ نادرا ما كانت تستفيد من الزيادة فى عدد الســكان التى أدت الى تضخم المدن الكبرى . وفى عام ١٨٨٠ كان فى ألمانيا أربعة عشر مدينة يزيد سكانها على ١٠٠٠٠٠ نسمة وفى عام ١٩١٠ أصبحت ٤٩ مدينة .

وسوف نعرض فى الصفحات التالية صورة مجمعة لبعض النتائج التى ترتبت على النمو السريع فى السكان مع الاشارة الى التطور الاجتماعى الثقافى لالمانيا .

(أ) ان الجيش البروسى الذى وضع تصميمه لحـــروب التحرير (١٨١٣ ــ ١٨١٥) شارنهوست ثم خطط له بوين على دعائم سلمية انما بنى على أساس أن يصل عدد القوات المسلحة الى ١٪ من مجموع السكان . لهذا كان لدى بروسيا فى عام١٨١٦ جيشا قوامه ١٠٠٠٠٠ رجل يختارون من بين عدد من السكان يقدر تعدادهم اجمالا بعشرة ملايين نسمة . وقســـم الجيش الى خمس فرق كل منها مقسمة الى قسمين ، وكل قسم يتألف من لواءين ، وكل لواء يتألف من كتيبتين ، ولكل كتيبة تجهيزاتها المختلفة . وكان هناك ما يقرب من ٣٠٠٠ ضابط . وفى عهــــد فردريك الثانى (١٧٤٠ ــ ١٧٨٦) كان تعداد بروســيا خمســة ملايين نسمة ويتولى قيادة الجيش فيها حـــوالى ألف ضابط ويعرفهم الملك جميعا معرفة شخصية . وربما لم يحاول فردريك وليام الثالث ، بضباطه الثلاثة آلاف ، أن يعرف ضباط الاحتياط الموجودين بينهم ، وكان عددهم يتزايد تدريجيا . ورغم هذا فان معرفته بالباقين لم تكن بالمهمة اليسيرة . وهنا ندرك ظهور فارق كيفى فى العلاقات الشخصية المتبادلة .

فان فرقة الضباط التى يعـرف الملك أفرادها فردا فردا ترتبط ببعضها فى تلاحم وفقا لنظام الفرسان . ومع ذلك فلو ان القائد الأعلى لا يستطيع أن يكون على دراية شخصية بمجموع ضباط جيش الأمة فان روح الجماعة عندهم يمكن ان تكون فقط ذات طبيعة مجردة وامتدادا للأصل الذى نشأت عنه .

وبعد أن ازداد عدد السكان خلال القرن التاسع عشر اصبح مستحيلا من الناحية المالية أن نضم الى الجيش كل عام ١٪ من السكان . وتناقصت كفاية التدريب لقوات الاحتياط أكثر فأكثر، وكان المجندون يختارون من بين ذوى اللياقة البدنية ممن سجلوا أسماءهم عن طريق القرعة . الا أن هؤلاء الرجال أصبحوا فيما بعد جنـــودا محـــالين الى الاســـتيداع وعليهم عاما بعد آخر أن يحضروا تدريبات عسكرية . وفى حالة التعبئة العامة يكونون هم أول من يســـتدعى ليدفعـوا بهم الى المعركة . وفى هـــذه الأثناء وبسبب زيادة الســـكان ، فان أكثر من نصـف الشبان لم يجندوا وظلوا دون تدريب ودون أن يتعرضوا لما يزعجـــوهم فى أماكن عملهم . وعندما أعلنت التعبئة العامة عام ١٨٥٩ استدعى للخدمة العسكرية آلاف الرجال من أصحاب العائلات الذين ناهـــزوا متوسط العمر بينما ظل الفتيان ذوى اللياقة البدنية قابعين فى بيوتهم . وفى عام ١٨٦٠ عندما أراد وليم الأول أن يغير هذا الوضع عن طريق زيادة عدد القوات المسلحة وادخال تعديلات فى قـــوات الاحتياط بدأ الصراع الدستورى مع مجلس النواب البروسى وهو الصراع الذى يعتبر أحد نقاط التحول فى تاريخ ألمانيا . فلو أن تعداد السكان لم يتجاوز النسب المحددة للجيش لظـــــل الاصلاح العسكرى مسألة ادارية دون أى احتمال لصـــدامات سياسية .

ومع عام ١٩٠٣ أصبح لألمانيا جيش عامل قوامه ٤٩٥٠٠٠ رجل فضلا عن فرقة من ٢٤٠٠٠ ضابط محترف و ٨٠٠٠٠ ضابط

متقاعد . وقدرت القوة الحربية لهذا الجيش بـ ٤¾ مليون رجل . ولقد كان من المستحيل تماما على القائد الأعلى أن يعرف الضباط كأفراد . بل ربما يكون قد انجز عملا بالغ الأهمية لو أنه استطاع أن يعين كل قادة الكتائب على أساس معرفته الشخصية ومن ثم كان لزاما أن تصبح روح الجماعة شيئا فشيئا فكرة مجردة ونظرية . ويجب على المؤرخ أن يدرك أن « الجيش البروسى » فى عام ١٩٠٠ انما كان فقط من حيث الاسم نفس مؤسسة « الجيش البروسى » فى السنوات الأولى من هذا القرن وأن خلال هذه الفترة القصيرة اصبحت خبرة الجندى شيئا مختلفا تماما . وتضاعفت حوادث الانتحار فى الجيش قياسا لحجمه فيما بين عامى ١٨٤٥ و ١٩٠٥ .

(ب) يقضى نظام الاصلاح الادارى للمدن. :

الذى ادخله البارون فون شنين عام ١٨٠٨ يمنح المدن قدرا كبيرا من الاستقلال عن الحكومة المركزية . اذ منحت المدن فى هذه الفترة حق انتخاب محافظيها وأعضاء مجلس الشورى بها حيث كان الاعتقاد السائد أن المدن ستستطيع أن تدير شئونها على نحو أفضل عن طريق اناس معروفين معرفة جيدة لرفاقهم من سكان المدينة . وربما لم يكن (شنين) ليحاول تصميم هذه الخطة لو لم يفكر فى المدن التى يقطنها من ٣٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ نسمة . ومع ذلك ففى نهاية هذا القرن كانت هناك ٥٧٦ مدينة يزيد سكانها على ١٠٠٠٠ نسمة من بينها ٤٠ مدينة تضم أكثر من ١٠٠٠٠٠ . ولم يعد من المستطاع بالنسبة للمقترعين فى مدينة تضم ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ نسمة أن يكونوا فكرة مستقلة عن كل من يتطلع لشغل وظيفة معينة ، ناهيك عن معرفتهم لجميع الناس من أصحاب الوسائل الخاصة ممن يرغبون عن جدارة فى القيام ببعض المهام الادارية كالعمل أعضاء

بمجلس الشورى للمدينة دون مقابل . ولم يستطع شنين أن يدرك مقدما نمو المدينة الذى يستلزم ظهور الأحزاب السياسية بين المقترعين وادارة المدينة . ومع ذلك لم تستطع المدن أن تنشىء أى حزب من الأحزاب التى تضرب بجذورها العميقة فى البيئة المحلية . ولقد غزت الأحزاب القومية سياسة الحضر وتبنت هذه الأحزاب برامج فرعية للشئون المحلية . وهكذا أصبح على سكان المدينة أن ينتخبوا المجالس طبقا لبرامج الحزب التى تتداخل مع السياسة القومية . أما فى المدن الكبرى فان النواب المنتخبين لم يعد فى استطاعتهم معرفة الناخبين معرفة شخصية ومن ثم خيبت « السياسة » آمالهم ، اذ أصبح عليهم أن يعملوا داخل اطار سياسى أعد خصيصا ــ وأحسن تدبيره فى الحقيقة ــ للمدن الصغيرة .

(جـ) عندما أسس ويلهم فون همبولت جامعة برلين عام ١٨١٠ فانه كان يتصورها مؤسسة تضم من ٦٠٠ الى ٩٠٠ طالب ومن ٦٠ الى ٨٠ أستاذا . وافترض كذلك أن كل الطلبة، أيا كان المكان الذى وفدوا منه باستثناء بيوت اهل اليسار . سوف ينشأون فى بيئة ثقافية أكاديمية . وكان عدد الطلبة الذين سجلوا أسماءهم لحضور برامج المحاضرات الفردية ضئيلا جدا ، وكان عليهم ان يقطنوا فى أماكن قريبة جدا من الجامعة حتى ولو كانوا من مواطنى برلين . لذلك سرعان ما عرف الأساتذة طلبتهم معرفة شخصية ، وكانوا يلتقون بهم فى لقاءات خاصة . واستطاعوا عن طريق المحادثة أن ينموا ثقافتهم المنهجية . ولقد كان هذا الجانب من الحياة الأكاديمية ، وهو الجانب غير المنظم بتاتا ، هو أكثر الجوانب تنبيها وتأثيرا فى التدريب الذهنى للطلاب الشباب .

وكان أساتذة الجامعة يعرفون بعضهم بعضا خير معرفة ، فكل منهم كان يتعرف على مشاريع الأبحاث الخاصة برفاقه وغير ذلك من أمور تستحوذ على اهتمامهم . وتم تجهيز هذا المجتمع الطبيعي لطلاب العلم ، حسب الصورة التى كان موجودا بها فى عصر همبولت ، بكل ما تهيىء له الممارسة العلمية الحقة . وكان كذلك قاعدة للروح المتجسدة للأساتذة حسب تنظيمهم فى هيئات التدريس لمواد اللاهوت والدراسات الانسانية والقانون والطب .

ومع ذلك فقد حدث تغير تام خلال القرن التاسع عشر . فبينما كان فى جوتينجن عام ١٨٣٦ حوالى ٤٠٠ طالب أصبح بها بعد مائة عام ٤٠٠٠ طالب . ولم يعد فى استطاعة الأساتذة التعرف على كل طلبتهم . وأصبح لزاما أن يحل نظام الحلقات الدراسية كبديل للاتصالات الشخصية وما تتميز به من تأثير قوى . الا أن تلك الحلقات كانت بديلا لا جدوى منه عندما أصبح مسموحا لها بأن تضم أكثر من عشرين أو ثلاثين عضوا مما جعل أى عمل علمى جاد يقوم على المشاركة شيئا مستحيلا .

(د) فى ميدان التعليم الثانوى فى ألمانيا :

انتهت محاولات اعادة التنظيم فى مطلع القرن التاسع عشر بانشاء المدرسة العليا اليونانية اللاتينية (الجمنازيوم) . وفى خلال القرن التاسع عشر ، وبينما تضاعف عدد السكان ثلاث مرات ، بلغ عدد الطلاب فى هذه المدرسة أربعة أمثال ما كانوا عليه . ونشأت فى نفس الوقت أنماط أخرى من المدارس العليا استجابة لعملية التحضر والمطالب المهنية الجديدة والتى كانت هى الأخرى ، جزئيا على الأقل ، نتاجا تابعا لعملية النمو السكانى ونتيجة لذلك تزايد عدد طلبة المدرسة العليا الوافدين من بيوتهم دون أن يكونوا على حظ ، ولو كان ضئيلا ، من التقاليد

الأكاديمية ، وحوالى عام ۱۸۹۰ أثار هذا الموقف مناقشات حادة على نطاق عام دارت كلها حول المناهج الدراسية التى تدرسها المدارس العليا على اختلاف شاكلتها وتصديق الجامعة عليها .

ومن ناحية أخرى فان الزيادة فى عدد مدرسى المدارس العليا استتبعت اجراء تغييرات مماثلة فيما يتعلق بعلاقاتهم بادارات المدارس الرسمية على ضوء خبرة ضباط الجيش . فبينما كان فى استطاعة مديرى المدارس الرسمية أن يضعوا فى مطلع هذا القرن تقارير وظيفية على أساس انطباعاتهم الشخصية وكذلك على أساس التقارير المكتوبة الا أنه أصبح لزاما عليهم فى أواخر هذا القرن أن يعتمدوا أولا وأخيرا على التقارير المكتوبة وحدها .

وبشكل عام فان غلبة التقارير المكتوبة على الانطباعات الشخصية تمثل أحدى جوانب التوسع الديموجرافى فى القرن التاسع عشر . وثمة جانب آخر وهو استبدال المعالجة الشكلية بالاتصال الشخصى . ولقد كانت النتيجة سواء فى الجيش أو الادارة أو التعليم هى فقدان الفردية والثقة البيروقراطية فى المقاييس النمطية . وكان ملف الموظف على ما يبدو يحتوى على كل شىء مما ينبغى معرفته عن ضابط الجيش أو موظف الحكومة أو المدرس أو أستاذ الجامعة . ولكن كم تكون هذه الملفات والبطاقات خادعة عندما تكون السيادة المطلقة للصفات الانسانية .

نشأة المدن ونموها *

بقلم : كنجزلى دافيز

قيل عن الحضارة الغربية «انها أكثر الحضارات تحضرا» • واذا نظرنا الى هذه الصفة من الناحية العددية الخـالصة نجد أنها لا تصـدق الا على الاعوام الثلاثمائة الاخيرة • الا أن الاستقلال الاجتـماعى الذى تمتعت به كثير من المـدن الأوروبية منذ العصور الوسطى جعل منها خميرة للتقـدم الاقتصـادى والابداعات الفنية والثقافية والتربوية • ومن ثم ، وحسب هـذا الفهم ، فان السبيل الذى سلكته أوروبا من أجل تحضر الحياة فيها ، كانت له أهميته فى تشكيل الحضارة الغربية •

والمقال التـالى كتبه عالم أمريكى من علمـاء الديموجرافيا والاجتماع المبرزين • ويعرض فى مقاله هذا موضوع التحضر داخل اطاره التاريخى •

* أعيد نشر هذا المقال عن « مجلة علم الاجتماع الامريكية » ع ٥ (مارس ١٩٥٥) ص ٤٢٩ ــ ٤٣٧ مع حذف بعض فقراته باذن من مطبعة جامعة شيكاجو . نسخة طبق الاصل ــ ١٩٥٥ لجامعة شيكاجو •

تمثل حركة التحضر تغيرا ثوريا يشمل كل أنمـــاط الحياة الاجتماعية . وهي في ذاتها نتاج لتطور اقتصادي وتكنيكي أساسي . وما أن تتحقق هذه الحركة حتى تتجه بدورها الى التأثير على جوانب الحياة المختلفة . ولا ينحصر التأثير الشـامل لحركة التحضر داخل الوسط الحضاري للمدن بمعناه الدقيـــق ، بل يمتـد الى التخوم الريفية التي تقع في مؤخرة المدن .

وكثيرا ما بالغ الـــكتاب في تقديرهم لدور المدن في العصر القديم . ويميل علماء الآثار بوجه خاص الى أن يسموا أي مستعمرة يستوطنها الناس باسم «مدينة» مادام يخترقها بعض الشوارع ومبنى عام أو بنيان . ولكن لا زال هناك يقينا ما يجب الاشارة اليه حتى لا نخلط بين البلدة والمدينة . وليس ما يعنينا فقط هو مظهر بضع بلاد أو مدن ، بل كذلك وضعها داخل المجتمع كله الذي كانت تشكل جزءا منه . وهكذا فرغم أن كثـيرا من البلدان ، وقليـلا من المدن ظهرت في مناطق معينة على ساحل البـحر الابيض وجنوب وغرب آسيا قبل ميلاد المسيح الا أنه كانت هناك قيـود صارمة ، سواء بالنسبة للحجم الذي يمكن لهذه المدن أن تمتد اليه ، أو فيما يتعلق بنسبة السكان الذين يستطيعون الحياة فيها . وتكشف لنا مواقع مدن العصور الاولى أنهـــا كانت مدنا ضئيلة الشأن فأسوار مدينة بابل القديمة مثـلا كانت تضم مساحة لا تكاد تزيد عن ٣ر٢ ميلا مربعا ، ومدينة أور بقنواتها وموانيها ومعابدها كانت تشغل مساحة تقدر بحوالي ٢٢٠ فدانا . وكانت أسوار مدينة اريسن تضم مساحة لا تزيد على ميلين مربعين . » ويفيد هـذا ضـمنا أن مدينة أور الشهيرة ما كان لهـا أن تزهو بأكثر من ٥٠٠٠ نســـمة ، ومدينة

اريسن بحوالى ٢٥٠٠٠ نسمة ٠ وتغطى استحكامات مدينة موهنجو- دارو فى السند مساحة قدرها ميلا مربعا ٠ وكان لمدينة هارابا فى البنجاب أرضا مسورة قـدرت مساحتها فى عـام ١٨٥٣ بحوالى ٢ر٥ ميـلا ٠ ومن الواضـح أن هذه «المدن» كانت لسكان يتراوح عددهم ما بين ٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ نسمة ومع ذلك فقد كانت تمثـل المراكز الرئيسية لكل منطقة السند وهى مســاحة تساوى تقريبا ثلثى حجم تكساس ٠

وثمة أسئلة تثار فى هذا الصدد وهى : لماذا كانت أكبر المدن الموجودة قبل عام١٠٠٠ق٠م٠ مدنا صغيرة حسب المقاييس العصرية؟ ولماذا كانت المدن القديمة قليلة العدد نسـبيا بما فى ذلك المدن الصغيرة منها ؟ ولماذا كانت درجة التحضر فى هذه المدن ضئيلة جدا حتى فى أكثرها تقدما ؟ ويبدو أن الاجابة على هذه الاسئلة هى كما يلى : كانت الزراعة عمـلا مرهقا واستاتيكيا ومعـرقلا بحيث أنها كانت تقتضى جهد عدد كبير من المزارعين لتقـدم ما يعول شخصا واحدا من سكان المدينة ٠ وكانت أدوات الانتاج هى المحراث الذى يجره الثور والنـورج الخشبى والرى عن طريق اغراق الارض بالماء وأدوات العزق الحجرية والمنجل والفأس ، والحق أنها كلها كانت أدوات معرقلة ولم يكن من المستطاع تحقيق أى تقدم عام فى الزراعة الى أن أمكن استخدام الحـديد فى آسـيا الصغرى حوالى عـام ١٣٠٠ ق٠م٠

وكانت ثمة قيود سياسية كذلك ٠ فصعوبة الاتصال والنقل ووجود العديد من الثقافات القبلية المحلية المتباينة ، كل هذا جعل من المستحيل تشكيل وحدات قومية كبيرة ٠ وأول وحدات سياسية تكونت واتخـذت مدينة مركزا لهـا كانت الولايات ذات المدن ٠ وعندما تكون ما يسمى « بالامبراطوريات » ، مثل ما حدث فى مصر ومنطقة سومر وأخيرا فى آشور ، تركت هذه الامبراطوريات الفرعية

كثيرا من الاستقلال الذاتي المحلي ، وحال خطر التمرد ، وكان خطرا ماثلا على الدوام ، دون امتداد أطراف المدن الى مسافات بعيدة أو دون أن يكون امتدادا حقيقيا له فعاليته • ومن أعراض ضعف المدن القديمة أنها كانت تحت تهديد مستمر ، وكثيرا ما كانت تمنى بالهزيمة ، ليس فقط على يد البلدان المجاورة بل كذلك على يد برابرة غير متحضرين • وكانت كل موجة من موجات البرابرة تتجه الى اعادة بناء المراكز الحضرية لتصبح مراكز زراعية وهكذا ، الى أن يطيح بهم غزاة جدد •

ولقد تحققت على يد الرومان وحدهم كل الطاقات الكاملة للعالم القديم التى تمكنهم من أن يعولوا مدينة كبيرة • اذ استطاع الرومان أن يخلقوا فى روما أكبر مدينة عرفها العالم قبل ظهور لندن في القرن التاسع عشر (باستثناء اسطنبول التى نشأت بعد روما ببضعة قرون) • وتسنى لهم ذلك بفضل قدرتهم على الحرب والانتصار والتنظيم وأن يحكموا امبراطورية كاملة وينشروا الزراعة الناجحة في الاراضى الايطالية المتاخمة لهم مباشرة • بيد أنهم لم يكن في استطاعتهم أن يقاوموا الهزيمة على يد دخلاء أقل منهم تحضرا بكثير ، رغم أن روما والقسطنطينية كانتا قد اتسعتا لعدد من السكان يقدر بمئات الآلاف • وكان أفول المدن في أوروبا أمرا مثيرا ومفاجئا • اذ تدهورت التجارة حتى وصلت الى الحضيض، وانعزلت كل منطقة عن غيرها وأصبحت كل منطقة بالتالى مكتفية بذاتها • وتجمد النظام الاجتماعي ، وتحول الى نظام وراثى (١) ؟ وعندما بدأت البلدان والمدن فى الانتعاش من جديد كانت قد غدت مدنا صغيرة الحجم كما تشير بذلك التقديرات التالية : فلورنسا (١٣٣٨)

---

(١) هنرى بيرى : « المدن فى العصر الوسيط » • برنستون : مطبعة جامعة برنستون — ١٩٣٩ ص ٨٤ — ٨٥ •

٩٠٠٠٠ فينيسيا (١٤٢٢) ١٩٠٠٠٠ ، أنتوبرب (القرن السادس عشر ٢٠٠٠٠٠ ، لندن (١٣٧٧) (٢) ٣٠٠٠٠ ، نورمبرج (١٤٥٠) ٢٠١٦٥ ، فرانكفورت (١٤٤٠) ٨٧١٩ (٣) .

بيد أن أوروبا الغربية على وجه التحديد هي المنطقة التي وصلت فيها المدن وعملية التحضر الى الحضيض أثناء العصور المظلمة ، بحيث بات ضروريا القضاء على القيود التي كانت تعتبر من الخصائص المميزة للعالم القديم . فقد كانت مدن ما بين النهرين والهند ومصر وفارس واليونان والامبراطورية الرومانية تعتمد كلها على الاقتصاد الزراعي أساسا ولم تكن الصناعة الحرفية تلعب فيها على أحسن الفروض سوى دور ثانوي ، بينما كانت المدينة لا تزال تحاول تعويض ضعفها الاقتصادي عن طريق القوة العسكرية وتحاول أن تحصل على قوتها بهذه القوة بدلا من أن تشتريه شرفا وأمانة . وعندما بدأت أوروبا الغربية من الصفر فان تطور المدن بها لم يصل فقط الى المرحلة التي وصل اليها العالم القديم ، بل واصلت السير قدما الى ما بعدها . ولقد واصلت السير بفضل التحسينات التي أدخلت على الزراعة والنقل وفتح أراض جديدة وطرق تجارية جديدة ثم ، وهذا هو الأهم ، زيادة النشاط الانتاجي أولا في مجال الصناعات الحرفية التي أتقن تنظيمها لدرجة عالية وأخيرا في شكل ثوري جديد للانتاج ـ حين أصبحت المصانع تدار بالآلة والوقود العضوي . وهكذا أصبح التحول الذي تحقق في القرن التاسع عشر هو الثورة الحضرية الحقيقية ، ذلك لأنها لم تكن تعني فقط ظهور

---

(٢) بيير كليرجت : « الاتجاه الحضاري : دراسة تاريخية جغرافية اقتصادية » .. التقرير السنوي لمعهد سميزوتيان عن عام ١٩١٢ (وشنطن ـ د . س ـ المطبعة الاميرية ـ ١٩١٣) ص ٦٥٦ .

(٣) هنري بيري : « التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لاوروبا في العصر الوسيط » . (لندن : روتليدج وكيجان بول ـ ١٩٣٦) ص ١٧٢ ..

عدد قليل من المدن والبلدان المتناثرة ، بل تعنى كذلك ظهور عملية تحضر أصيلة ؛ بمعنى أن قطاعا رئيسيا من السكان كان يعيش فى البلدان والمدن ٠

اتجاه العالم من ١٨٠٠ الى ١٩٥٠ :ـ

سارت حركة التحضر طوال قرن ونصف بسرعة أكبر من أى وقت مضى ، واتسعت بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم٠ ويرجع ذلك الى النمو الهائل فى التجارة العالمية خلال هذه الفترة والذى مكن سكان المدن من أن يجلبوا قوتهم من منطقة أوسع بكثير عن ذى قبل ٠ ويمكن القول بحق أن العالم كله أصبح الآن يمثل المؤخرة التى تعتمد عليها المدن فى عصرنا هذا ٠ فبريطانيا المعاصرة وهولندا واليابان مثلا لا يسعهم أن يكتفوا بأرضهم الخاصة ليوفوا سكانهم بكل ما يحتاجون اليه فى معاشهم ٠ ولا زال ساكن المدينة يحتاج الى عدد كبير من سكان الريف ليمدوه بمقومات الحياة ـ وهو عدد أكبر مما يتصور المرء من حيث النسبة بين سكان المدن والريف داخل كل بلد من البلدان التى حققت مستوى عاليا من التحضر ٠ وسبب ذلك أن الزراعة على النطاق العالمى لازالت متخلفة تكنولوجيا واقتصاديا ٠ ومع ذلك فقد لا يكون ثمة شك ، سواء بالنسبة لبلدان معينة أو بالنسبة للعالم كله ، فى أن نسبة سكان المدن الى أولئك الذين يزرعون لهم طعامهم قد ارتفعت ارتفاعا ملحوظا ٠ ويتضح ذلك من خلال نسبة من يعيشون فى المدن عام

١٩٥٠ · فهى أعلى من أى نسبة أخرى فى أى بلد من البلدان التى كانت موجودة قبل العصر الحديث ، وهى أعلى أضعافا مضاعفة من أى نسبة معروفة على نطاق المعمورة ·

ويمكن أن نتبين سرعة عملية التحضر فى أيامنا هذه اذا نظرنا الى انجلترا باعتبارها أكثر هذه البلدان تحضرا ، ففى عام ١٨٠١ ، وعلى الرغم من أن تعداد سكان لندن وصل آنذاك الى ما يقرب من مليون (٨٦٥٠٠٠) ، فقد كان ما يقل عن ١٠٪ من سكان انجلترا وويلز يسكنون مدنا يقدر تعداد سكانها بحوالى ١٠٠٠٠٠ أو يزيد· وفى عام ١٩٠١ كان مالا يقل عن ٣٥٪ من سكان انجلترا وويلز يعيشون فى مدن يقدر تعداد سكانها بحوالى ١٠٠٠٠٠ أو يزيد · و ٥٨٪ يعيشون فى مدن يقدر سكانها بحوالى ٢٠٠٠٠ أو يزيد · ومع عام ١٩٥١ ارتفعت هاتان النسبتان الى ٣٨٫٤ و ٦٩٫٣ على الترتيب ·

كانت بريطانيا فى طليعة التطور الحضرى · ذلك أنه لا توجد دولة أخرى استطاعت حتى ما بعد عام ١٨٥٠ أن تصل الى نفس درجة التحضر التى وصلت اليها بريطانيا عام ١٨٠١ · وبدأ معدل التحضر فى بريطانيا ينخفض فيما بعد تدريجيا ، بينما استمر المعدل فى دول أخرى فى الارتفاع حتى حقق مستوى عاليا · واستطعنا أن نجمع كل ماتيسر لنا من بيانات وأن نجمع كل ما أمكننا من تقديرات نحتاج اليها ، وتهيأ لنا بذلك الوصول الى أرقام خاصة بحركة التحضر فى العالم ككل ابتداء من عام ١٨٠٠ ، وهو أقدم تاريخ

وصلتنا عنه تقديرات معقولة • ففى عام ١٨٠٠ كان هناك ما يقرب من ١٥٫٦ مليون نسمة يعيشون فى مدن يقدر تعداد سكان كل منها بحوالى ١٠٠٠٠٠ أو يزيد • وأصبح ذلك العدد مع عام ١٩٥٠ هو ٣١٣٫٧ مليونا أى أكبر من العدد السابق عشرين مرة • وواضح أن أكثر هذه الزيادة انما نشأ عن الهجرة من الريف الى المدن وهى أكبر هجرة جماعية فى العصر الحديث • وهكذا أصبح لدينا الآن ما يمكن لنا أن نسميه «بالمجتمعات المتحضرة» أو الامم التى يعيش أغلب سكانها فى المدن • والمتوقع أنه مع مرور الزمن سيصبح قطاع أكبر فأكبر من البشر أعضاء فى مثل هذه المجتمعات •

النموذج الاقليمى لعملية التحضر :ـ

يوجد أعلى مستوى لحركة التحضر الآن فى شمال غرب أوروبا والمناطق الجديدة التى استوطنها سكان شمال غرب أوروبا وعملوا فيها على توسيع نطاق حضارتهم الصناعية • فمنطقة المحيط الهادى هى أكثر المناطق الكبرى فى العالم تحضرا ذلك لأن استراليا ونيوزيلاندا يمثلان الجزءين الرئيسيين اللذين تتكون منهما هذه المنطقة • وأمريكا الشمالية هى الثانية ، اذا ما حددناها بحيث تضم كندا والولايات المتحدة فقط • وأقل المناطق تحضرا هى تلك التى تأثرت أقل من غيرها بثقافات شمال غرب أوروبا ونعنى بها منطقتى آسيا وافريقيا • واتجهت حركة سكنى المدن الى أقصاها حيث وصلت الانتاجية الاقتصادية الى أعلى مستوى ـ أى حيث تحول الاقتصاد الى اقتصاد صناعى رشيد • ويفسر لنا هذا سبب ارتباط

عملية التحضر ارتباطا وثيقا بأبناء شمال غرب أوروبا وثقافتهم نظرا لأنهم كانوا هم المسئولين أساسا عن الثورة الصناعية . فاذا كان خمسة عشر بلدا هى أكثر البلدان تحضرا ، فانها جميعها باستثناء اليابان بلدان أوروبية الثقافة ، واستمدت كلها ، عدا أربعة فقط ، هذه الثقافة من شمال غرب أوروبا أو وسطها .

الا أن معدل حركة التحضر فى البلدان الصناعية القديمة يميل نحو الانخفاض . ففى خلال العشرين عاما ، من ١٨٧٠ الى ١٨٩٠ ، بلغت هذه النسبة فى البلدان الكبرى فى ألمانيا الى أكثر من الضعف، ثم تضاعفت مرة ثانية تقريبا من ١٩٨٠ الى ١٩٦٠ . ولكن ابتداء من ١٩١٠ الى ١٩٤٠ لم تتعد الزيادة ٣٦ ٪ . وفى السـويد انخفضت النسبة بدرجة ملحوظة . بعد عام ١٩٢٠ . وكانت أعلى سرعةحققتها حركة التحضر فى انجلترا وويلز فيما بين عامى ١٨١١ و ١٨٥١ . وحققت الولايات المتحدة أسرع نسبة فيما بين عامى ١٨٦١ و ١٨٩١ وذلك على عكس الاعتقاد السائد . وكما سبق لنـا أن أشرنا فان حركة التحضر على النطاق العالمى ككل اذا لم يكن قد اعتراها أى وهن فمعنى ذلك بالضرورة أن الدول الاقل تطورا قد بدأت تكشف عن اتجـاه أسرع فى حركة التحضر طالما وأن البـلدان الصناعية المتقدمة قد بدأت تتراخى فيها هذه السرعة . ويبدو فى الحقيقة أن هذا الحدث التاريخى الذى نلاحظه بالنسبة للمناطق المتخلفة انما هو دليل على ارتفاع نسبة التحضر فيها خلال الاعوام الاخيرة. وهذا هو ما حدث فى مصر حيث أن نسبة التحضر بها بعد عام ١٩٢٠ أعلى مما كانت عليه قبل ذلك ، وفى الهنـد حيث وصلت عملية التحضر

أقصى سرعتها منذ عام ١٩٤١ ٠ وفي المكسيك حيث بدأت تسرع فى هذا الاتجاه منذ عام ١٩٢١ ٠ والفترة التى حققت فيها اليونان أقصى سرعة هى الفترة الواقعة فيما بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٣٠ ٠ وقد كان سكان المدن فى آسيا على سبيل المثال يعادلون ٢٢٪ فقط من سكان المدن فى العالم فى عام ١٩٠٠ وأصبحوا ٣٤٪ عام ١٩٥٠ ، وكانوا فى افريقيا ١ر٥٪ عام ١٩٠٠ ولكنهم وصلوا أخيرا الى ٣ر٢٪ ٠

وهكذا بدأت الهوة الفاصلة بين الامم الصناعية والامم التى تعيش فى مرحلة ما قبل التصنيع تضيق وتتلاشى فيما يتعلق بحركة التحضر ٠

الاتجاه نحو التوسع الحاضرى :ـ

ان استمرار عملية التحضر فى العالم لا تعنى الاصرار على بقاء شيء بذاته كما هو تفصيلا ٠ فالمدينة التى يقطنها اليوم مليون نسمة ليست هى المكان الذى كانت تشغله مدينة تضم نفس العدد عام ١٩٠٠ أو ١٨٥٠ ٠ بل وأكثر من هذا فقد أضيف شيء جديد مع ظهور المدن العملاقة التى تضم من خمسة الى خمسة عشر مليون نسمة ٠ فمثل هذه المدن هى مخلوقات القرن العشرين ٠ والفارق الكمى الصارخ بينها يعنى تغيرا كيفيا بالمثل ٠

ومن أهم التطورات الملحوظة هذا الاتجاه الذى يقوى مع الايام فى اتساع المدن الى الخارج ـ وهو تطور سبقت ملاحظته فى القرن

التاسع عشر · فمنذ عام ١٨٦١ وهو أول تاريخ يمكن أن نبدأ منه المقارنة ، بدأت الحلقة الخارجية لمدينة لندن الكبرى تنمو بسرعة أكبر من نمو لندن ذاتها · وأشار الكتاب الفرنسيون قبل عام ١٩٠٠ الى الاتجاه نحو الانتشار والتفرق (٥) مثلما فعلت أدنا فيبر عام ١٨٩٩ (٦) · ومع ذلك فليس ثمة شك فى أن عملية التشتت **الحاضرى** قد ازدادت على مر الأيام ·

ونفس القرى التى مكنت عملية التحضر من أن تصل الى أقصاها هى أيضا نفسها التى مكنت من عملية التشتت الحاضرى ، وأسهمت عملية التشتت نفسها فى تقدم عملية التحضر عن طريق تكوين تجمعات كبيرة أكثر فاعلية ولها قدرة أكبر على الصمود · فالحركة الظاهرية للاستيطان فى المدن وخدمات المدينة والمؤسسات التجارية والصناعات الخفيفة ــ والتى مهدت لها الاصلاحات التى أدخلت على النقل بالمواصلات ووسائل الاتصال ــ مكنت التجمعات الكبيرة من الاستمرار فى النمو دون التعرض لمشاق الزيادةالنسبية فى الكثافة · وعلى أية حال فان الحياة والعمل فى الحاضرة التى

---

(٥) بول موربوت : « تكدس سكان المدن فى أوروبا المعاصرة » · (باريس بيلا فرير ، ١٨٩٨) ص ٢٤٩ ــ ٢٧٨ · دراسة عن حركة الصناعة والناس الى المناطق المحيطة بالمدن ، ومناقشة نظرية عن الموضوع المطروح للبحث فى كتاب رينيه مونيير : « المدن : نشأتها ووظيفتها الاقتصادية » ·· باريس : جيارد وبريير ــ ١٩١٠ (ص ٢٢١ ــ ٣١٤) ·

(٦) ادنات . فيبر : «نمو المدن فى القرن التاسع عشر ·» (نيويورك ــ مطبعة جامعة كولومبيا ·) ص ٤٥٩ ــ ٤٧٥ ·

...اليوم ثلاثة ملايين نسمة أيسر منها فى المدينة التى كان يقطنها بالأمس خمسمائة ألف نسمة .

أما كيف سيكون وضع العالم فى النهاية بالنسبة لحركة التحضر ؟ فهذا سؤال لا سبيل للاجابة عليه . فكما قررنا سلفا ليس ثمة سبب واضح يفسر لنا لماذا لن يكون العالم عالما متحضرا بنفس المستوى الذى عليه أغلب الأقطار المتحضرة اليوم والتى يعيش فيها مايقرب من ٨٥ ـ ٩٠٪ من السكان فى المدن والبلدان التى تضم خمسة آلاف نسمة أو يزيد ويزاولون مهنا حضرية . كما وأن درجة التحضر التى وصلت اليها البلدان المتقدمة الآن لا تزال شيئا جديدا تماما بحيث لم تتوفر لدينا بعد فكرة واضحة تبين لنا كيف سيؤثر العالم على المجتمع الانسانى بعد أن يكتمل تحضره . ولكن الاحتمالات المتوقعة هى أن الآثار المترتبة على ذلك ستكون آثارا عميقة ؟

الهجرة من أوروبا إلى ماوراء البحار في القرنين التاسع عشر والعشرين

بقلم : فرانك ثيستليسويت

كتب المقال التالى الأستاذ فرانك ثيستليسويت * واذا ما قارناه بتواريخ الهجرة الشائعة – والتى يغلب عليها طابع نمطى واحد – سنجد أنه مقال يثير فينا متعة ونشاطا ذهنيا من حيث أسلوبه فى معالجة موضوع الهجرة • فهو يعالج الهجرة باعتبارها مجموعة من الحركات المتشابكة والتى تحدث على نطاق واسع داخل « المجال » العالمى وبين القارات المختلفة • ولقد حذفنا من هذا العرض الموجز للمقال عددا كبيرا من المراجع الغنية التى تثرى بها هوامش المقال • وقدم المؤلف مقاله أمام مؤتمر ستوكهولم للمؤرخين الذى عقد عام ١٩٦٠ ونظمته اللجنة الدولية للعلوم التاريخية •

---

* أعيد نشر هذا المقال عن المؤتمر الدولى الحادى عشر للعلوم التاريخية « ستوكهولم ١٩٦٠ – تقرير عن : » التاريخ المعاصر (جوتيبورج – ستوكهولم – او بسالا : الميكويست و ويكسيل ، ١٩٦٠) ص ٣٢ – ٦٠ • مع حذف بعض الفقرات باذن الناشرين والمؤلف • نسخة طبق الاصل ١٩٦٠ – عن الميكويست ويكسيل وستوكهولم – السويد •

مضى جيل كامل منذ أن حاول الراحل ماركس لى هانزين أبو الأبحاث التاريخية الحديثة فى الهجرة ، أن يجعل من هذا المجال ميدانا لدراسة هادفة (١) ويكفى بطبيعة الحال ، بالنظر الى الباعث الأصلى لدراسات الهجرة فى الولايات المتحدة ، أن البحاثة الأمريكيين كانوا يعنون أساسا بجانب واحد ، وواحد فقط ، من عملية الهجرة ألا وهو الاستيطان ٠

ونتيجة لذلك فان الذى استحوذ على الجانب الأكبر من اهتمامهم هو نتائج الهجرة دون أسبابها ـ وأكثر من ذلك أنهم كانوا يعنون أساسا بالنتائج المترتبة على الهجرة فى البلدان المستقبلة للمهاجرين دون البلدان المرسلة لهم ٠ واذا لم يأخذ الباحثون الأسباب باعتبارها ، على وجه الدقة ، أمورا مسلما بها فانهم كانوا يدرسونها دراسة سطحية للغاية ٠ ولقد مضى زمن طويل منذ أن كان فى استطاعة الباحث الاجتماعى أن يؤكد لنا أن السبب فى قلة هجرة الفرنسيين هو أن فرنسا تتمتع بمؤسساتها الليبرالية ، ثم يقنع من الاجابة بهذا القدر ٠ ولم يعد الباحثون الأمريكيون يقعون فى خطئهم السابق حيث كانوا يسلمون بما كانت تسميه « هيئة التخطيط السكانى الحكومية » باسم « القالب الأمريكى » للمواطن الجائع فى العالم القديم والذى ينظر بعين الحسد الى العالم الجديد بما فيه من ثروات وفرص متاحة (٢) ٠ وسوف أعود فيما بعد الى الحديث عن هذا القالب الأمريكى المتميز

---

(١) م ٠ ل ٠ هانزين : « تاريخ الهجرة الامريكية كميدان للبحث » ٠ المجلة التاريخية الامريكية ـ ٣٢ (١٩٢٦ ـ ١٩٢٧) ٠

(٢) دادلى كيرك : « الاتجاهات الديموجرافية فى أوروبا » ٠ حوليات الاكاديمية الامريكية للعلوم السياسية والاجتماعية ٠ ١٩٤٩ ـ ص ٤٦ ٠

« للفلاح » والذى يؤدى بدوره بالاضافة الى « الاقطاع » و « المجتمع العرفى » الى أن نهمل بطريقة رومانسية الدراما الواقعية لتاقلم المهاجر المستوطن فى امريكا .. ولقد أثرت الأبحاث الأمريكية المعاصرة معلوماتنا عن تنظيم الاستيطان بطريقة تدعو للاكبار ، ولكن يبدو أنه لا زال هناك حاجز من الماء المالح يحول دون فهم الأصول الأوروبية . بل لا زلنا نجد عقلا يتمتع بقدرات رفيعة مثل عقل هانزين يسلم بالفرض القائل بأن أمريكا الشمالية ،وبالاحرى الولايات المتحدة الأمريكية ، هى الهدف الاخير للهجرة من أوروبا الى ماوراء البحار . نظرا لأن أغلب الهجرات الى كندا كانت هجرات عابرة .

ومن ثم يمكن القول بأن أمريكا كانت طوال هذا القرن بمثابة مغناطيس هائل له قوة جذب متباينة تجذب اليها شعوب أوروبا من تلك المناطق التى خلقت منها ظروفها مناطق قلقة وتهيأت لهم سبل الانتقال منها . وحددت ظروف أمريكا موجات الهجرة الوافدة من أوروبا باعتبارها المصدر الرئيسى من حيث استمرارها وارتفاعها(٣) .

والآن أصبح لزاما أن نواجه الحقيقة وهى أن من بين خمسة وخمسين مليونا من الأوروبيين الذين هاجروا الى ما وراء البحار فيما بين عامى ١٨٢١ ، ١٩٢٤ نزح الى الولايات المتحدة ثلاثة وثلاثون مليونا ، أى ثلاثة أخماس العدد الكلى (٤) . ولكن ثمة حجة أخرى يستند اليها هذا المقال ؛ اذ يرى أننا اذا ما عالجنا الهجرة التى تمت فى القرن التاسع عشر بل والقرن العشرين ، الى ماوراء البحار باعتبارها محاولة لسكنى الولايات المتحدة ؛ فان ذلك يعطينا صورة زائفة .

---

(٣) ماركس ل هانزن : « الاستيطان فى تاريخ امريكا » ١٩٤١ ص ١٩٢ .

(٤) امرى فرينكزى « دراسة تاريخية لاحصاءات الهجرة » مجلة العمل الدولية — ص ٢٠ — ١٩٢٩ .

ومعالجة المؤرخين الأوروبيين للهجرة الحديثة مثال واضح للمنهج الذى تفرضه الوسائل التقليدية للنظر الى الماضى على التصور التاريخى . فان نزوح ما يقرب من خمسة وخمسين مليونا من الأوروبين الى ماوراء البحار خلال القرن السابق على تقييد الهجرة الى أمريكا انما هى احدى الظواهر الواضحة التى يتميز بها العقد الحديث . ومع ذلك فيبدو أنها أثرت تأثيرا واهيا ، ان كان ثمة تأثير لها ، على كتاب التاريخ العام لأوروبا . وترجع أسباب ذلك بلا ريب الى النظرة القائلة بأن تاريخ أوروبا انما كان تاريخا للأمم ، وأن الهجرة الى ماوراء البحار ، حسب وجهة النظر هذه ، هى شىء سلبى فى جوهره ؛ وتعتبر هذه الهجرة التى تتجاوز الحدود القومية فى ظاهرها بمثابة بالوعة تفرغ داخل أمة ليس من اليسير تقدير تعددها . مثال ذلك أن الجزر البريطانية أسهمت الى حد كبير بالشطر الأكبر من المهاجرين أى بما يقرب من ١٩ مليونا (٥) . ورغم ذلك فحتى لو أخذنا فى الاعتبار أن هذا العدد يتضمن جانبا هاما من الأيرلنديين فان ما يدعو للدهشة حقا هو أن المؤرخين الانجليز لم يابهوا لهذه الحقيقة الا نادرا .

واذا كانت مكتشفات علماء الديموجرافيا والاقتصاد والاجتماع لا تعد بديلا للبحث التاريخى ، الا أننا مرة أخرى نجد أن الوضع لا يزال على ما كان عليه منذ خمسين عاما خلت حيث نجد أن علماء الاجتماع هم الذين يحرزون قصب السبق وأن على المؤرخين أن يتعلموا الكثير مما حققه هؤلاء من تقدم . وأحد الأسباب التى تدعو الى ذلك أن كلمة المهاجر التى تستخدم عادة انما هى كلمة مبهمة وغير محددة اذا ماقارناها بغيرها من الموضوعات التى تتناولها البحوث التاريخية بحيث يصبح لزاما علينا أن نعتمد

(٥) و . ف . ويلكوكس : « الهجرات العالمية » ــ نيويورك ١٩٣١ مجلد ١ ص ٨٥ .

بشكل خاص على الاحصاءات كحجة في هذا الصدد · وقد تبرز الحجة الاحصائية فى ظاهرها ما كان يقوله المؤرخون القدامى عن « أمريكا مركز الهجرة » · ففى خلال القرن السابق على فرض قيود الهجرة الى أمريكا نجد أن ثلاثة وثلاثين مليونا من بين خمسة وخمسين مليونا من المهاجرين الأوروبيين قصدوا جميعهم الولايات المتحدة ولكن هل نعتبر هذا يقينا تبريرا للزعم القائل ان تاريخ الهجرة هو تاريخ النزوح الى أمريكا ؟ الا أننا كلما حاولنا أن نحدد أكثر فأكثر مواصفات هذا الرقم الغفل كلما بدت لنا الصورة معقدة أكثر فأكثر ، وكلما أصبحت الولايات المتحدة من نواح كثيرة أقل بروزا داخل هذه الصورة ·

أولا ، فمن المقدر أن ثلث من هاجروا الى الولايات المتحدة قد هاجروا منها ثانية ؛ وهذا من شأنه أن يقلل لدرجة كبيرة من شدة ضغط الهجرة عليها (٦) · ومع ذلك ففى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية تخلف عن الهجرة الواسعة عبر المحيطات ما يقرب من عشرين مليون نسمة فى البلدان الواقعة فيما وراء البحار من مواليد أوروبا ؛ استوطن منهم الولايات المتحدة ما يقرب من اثنى عشر مليونا وهى نفس النسبة التى توازن العدد الاجمالى (٧) ·

---

(٦) هذا التقرير عبارة عن تصور تقريبى للماضى بناء على الارقام الخاصة بالفترة التالية لعام ١٩٠٧ وهى الفترة التى تيسر لنا فيها لاول مرة الحصول على الارقام الخاصة بالعائدين من الهجرة ·· ويلكوكس ـ نفس المرجع ـ مجلد ٢ ص ٨٩ لوحة رقم ١٧ · أ · م · كارسوندرز « المشكلة السكانية فى العالم » ·· (اكسفور ١٩٣٦) ص ٤٩ ـ حـ ·· اسحق « الهجرة العالمية والاتجاهات الاوروبية » مجلة العمل الدولى ـ ص ١١٦ من المقدمة ـ ١٩٥٢ ص ١٨٨ ·

(٧) دادلى كيرك ـ « السكان فى اوربا فيما بين الحربين » برنستون ، مكتب الابحاث السكانية ـ جامعة برنستون ١٩٤٦ ص ٩٠ ··

ثانيا — كان فى النصف الغربى للكرة الارضية بلدانا أخرى تستقبل المهاجرين وكان حجم الهجرة اليها أهم نسبيا من حجمها الى الولايات المتحدة . فكان حجم الهجرة الى الارجنتين ٤ر٥ مليونا، والبرازيل ٨ر٣ مليونا ، وكنــدا ٥/٤ مليونا (٨) . واذا اتخذنا كثافة الهجرة كمعيار أكثر دلالة من الرقم المطلق الفعلى سنجد أن نصيب الأرجنتين من المهاجرين أكبر من حيث العدد قياسا بتعداد سكانها ؛ وأن كندا تشغل كقاعدة عامة مرتبة اعلى من الولايات المتحدة . وفى العقد الأول من القرن العشرين ١٩٠١ — ١٩١٠ كانت معدلات الهجرة لكل ألف كمـا يلى : الولايات المتحدة تكاد تزيـد على الألف ، وكندا ١٥٠٠ ، والارجنتين ٣٠٠٠ . ومن ثم فقد يبدو من هذه النسب أن بلدان أمريكا الجنوبية ، والارجنتين بوجه خاص ، أهم بـكثير من الولايات المتحـدة فى نظر من يعنى بدقة بضغط المهاجرين على البلد المستقبل لهم . وعلاوة على ذلك فان بلدان أمريكا الجنوبية تختلف عن أمريكا الشمالية من حيث أن عدد المجموعات السلالية التى نزحت اليهـا واستوطنتها كانت مجموعات محدودة للغاية . فقبل عام ١٩٠٠ كان عدد الايطاليين الذين نزحوا الى البرازيل يفوق كثيرا عدد النازحين الى الولايات المتحدة ، وكانوا يشكلون ٧٠٪ من عدد المهاجرين الى الأرجنتين ، ومايزيد على ٦٣٪ من المهاجرين الى البرازيل . وكان ثلث سكان الأرجنتين خلال الجيل التـــالى لعام ١٨٩٥ من الايطاليين ؛ وكانوا يؤلفون ثلث سكان ولاية ساو باولو فى البرازيل عـام ١٩١٠ . ومثل هذا التركز لمجموعة ذات حضارة معينة يمثل صورة مقارنة لها أهميتها بالنسبة للموقف فى أمريكا الشمالية . مثال ذلك أن

(٨) لكل بلد نسبة خاصة به ممن عاودوا الهجرة ونزحوا ثانية . وتغطى هذه الارقام الفترة الواقعة ما بين عامى ١٨٢١ — ١٩٢٤ (فرينكزى — دراســة تاريخية ص ٣٧٤ — ٣٧٥) .

الايطاليين بسيطرتهم على مهنة البناء وهندسة المعمار أكسبوا مدن أمريكا الجنوبية طابعا ايطاليا • ومثل هذا التأثير الناجم عن الهجرة لا نجد له ما يناظره فى الولايات المتحدة •

ومن المقدر أن نسبة العائدين الى الوطن من الولايات المتحدة كانت تزيد على ٣٠٪ : وبلغت نسبه عاليه فى الارجنتين اذ تقدر بحوالى ٥٣٪ • ومن الواضح أن الهجرة الى أمريكا الجنوبية رغم أنها كانت أكثر منها الى أمريكا الشمالية ، الا أنها كانت ، وبالنسبة لقطاع هام من الأفراد ، هجرة وقتية وعابرة • ونحن نعلم أن هذه النسبة كانت تختلف اختلافا بينا من فترة الى أخرى• فقد بلغت ذروتها عندما بلغت الهجرة الصناعية « الجديدة » الى الولايات المتحدة أقصاها • كما كانت تختلف اختلافا بينا كذلك حسب المجموعات السلالية • ففى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٠٨و ١٩٢٣ ارتفعت نسبة العائدين الى الوطن من أبناء دول البلقان الى ٨٦ و ٨٩٪ وانخفضت فى نفس هذه الفترة بالنسبة للأيرلنديين ، حيث قدرت بحوالى ١١٪ ؛ وقدرت بالنسبة لليهود بحوالى ٥٪ (٩)• واختلف معدل التأقلم كذلك اختلافا واضحا : فهناك مثلا بالنسبة للايطاليين الجنوبيين الذين ألفوا الاقامة فى الولايات المتحدة نجد أن أقل من سدس عددهم أصبحوا مواطنين فى الولايات المتحدة وقت تشكيل مكتب الهجرة بالولايات المتحدة • وأيا كانت دلالة هذه الخبرة فان الهجرة لم تكن تعنى فى الغالب الاقامة الدائمة « والتأقلم الحضارى » •

---

(٩) فرينكزى • نفس المرجع • ص ٣٨٠ — ثمة معامل ارتباط بين معدلات العودة للوطن ونسبة الذكور الى الاناث • فهى مثلا نسبة عالية تصل الى ٩٦٪ من الذكور بين اليونانيين ، ونسبة منخفضة بين اليهود اذ تصل الى ٥٢٪ • هـ • ب • فيرتشيلد « الهجرة اليونانية الى الولايات المتحدة » — ١٩١١ — ص ١١٢ • ويلكوكس • نفس المرجع مجلد ٢ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ •

ولسوء الحظ أننا لا نعرف سوى النزر اليسير عن هذا الجانب الهام من تاريخ الهجرة الى ما وراء المحيط . ماذا كان معدل سرعة الهجرة العائدة ؟ ماذا كانت نسبة « المترددين » الذين اعتادوا التنقل من والى البلد التى يهاجرون اليها ، ونسبة «الجوالة الذين يتنقلون من بلد يستقبلهم الى آخر ؟ ماذا كانت خبرة أولئك الذين عادوا من مهجرهم واستقروا فى موطنهم الأصلى الذى نشأوا فيه ؟ هذه المجالات كلها التى تستحق الكشف عنها انما هى الوجه الآخر للقمر ؛ الا أن ما يتيسر لنا أن نجمعه من المصادر الوصفية يعطينا صورة على درجة كبيرة من الأهمية والتعقيد .

فمن الواضح فى البداية أن نسبة لايستهان بها من المهاجرين العائدين كانوا من « المترددين » الذين اعتادوا القيام بهجرات وقتية منتظمة . ففى عام ١٩٠٤ كان ١٠٪ من المهاجرين الايطاليين الذين دخلوا الولايات المتحدة هم ممن سبق لهم الهجرة .

وكان المهاجرون من بين العديد من المجموعات السلالية الهامة هم من العمال الموسميين الذين كانوا يؤجرون أنفسهم للعمل على ضفتى المحيط . فالمهاجر الايطالى المسمى جولو ندرينا (العصفور) هو فلاح اعتاد أن يترك ايطاليا فى نوفمبر بعد الحصاد ويرحل الى حقول القمح والكتان فى منطقة كوردوبا الشمالية وسانتافى ؛ ثم يعمل فى حصاد القمح فيما بين شهرى ديسمبر وابريل فى كوردوبا الجنوبية وبونيس آيرس ، وفى شهر مايو يعود الى بيدمونت لزراعة حاصلات الربيع . ولم تكن هذه الحركة الموسمية الكبرى تختلف عن هذا الفيض من عمال الحصاد المكسيكيين الذين يتدفقون على حقول القمح فى مونتانا وكاليفورنيا الا من حيث استخدام الزوارق التى تعبر بهم المحيط . وكان عمال البناء ينزحون من فينيسيا الى الولايات المتحدة كل عام فى شهر مارس ويعودون فى شهر أكتوبر ليعاودوا هجرتهم فى الربيع التالى . واعتاد هؤلاء أن

يسافروا ولكن طبقا لنظام أقل تعقيدا من النظام الذى اعتاد عليه عمـال طـلاء وتزيين المنازل من الانجليز الذين ألفوا السفر الى الولايات المتحـدة كل ربيع لمزاولة مهنتهم هنـاك ثم يعودون الى اسكتلندا صيفا قبل أن تنزح العائلات الانجليزية شمالا ثم يرحلون الى انجلترا فى الخريف بينما موسم الصـيد على الأبواب • وعامل المناجم الذى يعود الى اسكتلندا ليقضى الشتاء متسـكعا ، ينفق الدولارات التى اكتسبها خلال الصيف عن طريق العمل فى مناجم الفحم فى جبال الأبلاش كان يخاطر باحتمال أن يفسد عليه فرصته فى العمل فـلاح وافد من بولندا ليجنى بعض الدولارات ويشترى بها أرضا فى قريته التى وفد منها • كمـا وأن عامل الغزل الذى اعتاد التردد بين بولتون ولانكشـير وفول ريفير وماسوشيت كان يجد نفسه وقد استبدل بعامل كندى من أصل فرنسى يطمع فى العودة الى مقاطعة كويبيك وقد حصل على قليل من المال • وكان من شأن هذا الوضـع القلق أن يرغم المهاجر أحيانا على الرحيل والتنقل من بلد الى آخـر من البلدان المستقبلة ، مثلما كان يفعل الاسـكافى الايطـالى فى بنسلفانيا الذى عمل لسـنوات عدة فى البرازيل ، أو مثلما فعل والد المطرب شارلس فورت وهـو من مواليد لندن ، وعامل من عمال الصلب الايطاليين وكان يعمل فى بتسبرج حيث عرف هناك أهمية ينبوع المياه الغازية • وكان يدخل الولايات المتحدة كل عام ، قبل الحرب العالمية الأولى ؛ ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف من المهاجرين الايطـاليين الذين كانوا يفدون اليها من بلدان أخرى غير ايطاليا ذاتها • ومع ذلك فان هذه الطيور المهاجرة لم تزودنا الا بمعلومات جزئية عن أنماط الهجرة المعقدة الى ما وراء المحيط الأطلسى فى القرن التاسـع عشر ومطلع القـرن العشرين • أو كما عرضها أحد من يوثق بحكمه حين قال :

« ربما لو تيسر لنا جمع كل السـجلات الخاصـة عن هـذه الحركات لكشفت لنا عن صورة مذهلة للكادحين الذين يجـوبون

أرجاء المعمورة بصورة متكررة ؛ وهو تكرار لا نجد له مثيلا عند الرحالة من الطبقات الراقية فى البلدان الغنية » (١٠) ٠

ولو قدر لنا أن نفعل ما يفعله علماء الطيور الممتازون وثابرنا على وضع حلقات حول « طيور الهجرة » فاننا سنكتشف أن نمط الهجرة معقد الى حد كبير ٠ ويجب ألا نضع فى الاعتبار الحركة فى اتجاه واحد فقط من أوروبا الى ما وراء البحار ، ولا الحركة المتقابلة بين الموطن الأصلى والبلد المستقبل ، بل ولا حتى بين البلدان المستقبلة ، بل يجب كذلك أن نضع فى اعتبارنا الهجرة الواسعة داخل حوض البحر الأبيض المتوسط وداخل أوروبا ذاتها ٠

فهناك صانع الأوانى البريطانى فى شرق ليفربول ، أهيو ، الذى قضى أعواما وهو يعمل فى هولندا وفرنسا قبل أن يصل الى الولايات المتحدة ، والمهاجر الأيرلندى فى احدى شركات الغزل فى رود أيلاند ، الذى تعلم مهنته فى لانكشير ، والحائك اليهودى أو صانع السجاد الذى تعلم مهنته فى الطرف الشرقى من لندن وكان يعيش كالطائر المهاجر ما بين بلده وبولندا الروسية ٠ كل هؤلاء يمثلون دليلا حيا على أن حركات الهجرة فى القرن التاسع عشر كانت تقع تحت تأثير قوة جذب قوية تشدها الى العالم الجديد ولكن بعد أن تجد حافزاً لها على الحركة داخل أوروبا أولا ٠ فكانت موجات الهجرة التى تتدفق الى ما وراء المحيط قاصدة الأمريكتين فى حلقات تزداد اتساعا تتشكل بفعل دوافع محلية فضلا عن تأثرها بفعل تأثيرات مجاورة ٠ ولنأخذ البحر الأبيض مثالا على ذلك ٠ فهناك العامل الايطالى المسمى المديرو أو أرندانيو mediero orrendatio وهو أول من ارتاد حقول القمح من الأرجنتين

(١٠) ر ٠ ف ٠ فوستر : « الهجرة الايطالية فى عصرنا الحديث » ٠ ١٩١٩ ص ٣٧ ٠

ومزارع البن فى البرازيل وقد كان مواطنا للمستعمر الذى أتى من صقلية أو كلابرى وعاش فى مزارع القمح التى لاتبعد أكثر من ست ساعات عن باليرمو فى تونس . وهنـــاك اليونانيون الذين اقتفوا أثر الايطاليين الى كل من أمريكا الشمالية والجنوبية ، وكان قد سبق لهم أن زودوا بلغاريا ورومانيا بالعمـــال وأمدوا مصر وتركيا بالتجار وصغار الحرفيين . وأسهم الايطاليون فى انشاء قناة بناما ، بينمـــا كان مواطنوهم قد اسهموا فى حفر نظيرتهـــا عند السويس . وفى المراحل الأولى اتخذ أغلب المهاجرين الايطاليين من أوروبا وشمال افريقيا هدفا لهم يهاجرون اليه . بينما نجد أن نسبة الهجرة الى أوروبا وشمال افريقيا قد تغيرت من ٨٢٪ عام ١٨٧٦ الى ٣٦٪ عام ١٩١٣ . وبينما هاجر الى الأمريكتين ما يقرب من ٩ر٨ مليون ايطالى فيما بين عامى ١٨٧٦ و ١٩٢٦ نجـــد أن ما يقرب من ٥ر٧ مليونا كانوا قانعين بالحركة داخل نطاق أوروبا والبحر الأبيض .

وتشير الأرقام السابقة ضمنا الى أننا بصـــدد ظاهرة مجالها القارة الأوروبية وكذلك فيما وراء المحيط . فبينما كان العمال من كلابرى يعملون فى حفر قناة السويس كان الحرفيون من لومباردى وبدمونت ينشئون الأنفاق وخطوط السكك الحديدية فى سويسرا وفرنسا . وكان ثمة مايزيد على ربع مليون من الايطاليين فى فرنسا عام ١٨٨٦ وما يقرب من نصف مليون عام ١٩١١ وحوالى ثلث مليون من مواليد ايطاليا فى الولايات المتحدة . وثمة حقيقة أهملها تاريخ الهجرة وهى ظهور فرنســـا كأحد البلدان الكبرى التى اتخذها المهاجرون هدفا لهجرتهم . وذلك لأن تطور فرنسا البطىء فى مجال التصنيع لم يجذب اليها العمال الايطاليين فقط بل جذب اليهـــا كذلك العمال من برلندا وبلجيكا كما وفد اليهـــا أخيراً العمـــال الأسبان بحيث أصبح عدد المهاجرين اليها عام ١٩٢٠ قرابة المليونين

وذلك عندما أصبحت فرنسا الدولة الثانية بين الدول التى يقصدها المهاجرون ثم أصبحت أهمها جميعا بعد أن سنت الولايات المتحدة القوانين التى تقيد الهجرة اليها . ففى عام ١٩٣١ كان فى فرنسا ما يزيد على ٩٠٠ ٠٠٠ ايطالى وأكثر من ٥٠٠ ٠٠٠ بولندى وأكثر من ٣٣٠ ٠٠٠ أسبانى ومايزيد على ٣٠٠ ٠٠٠ بلجيكى . وجذبت حركة التصنيع فى ألمانيا عدداً أكبر من المهاجرين وان كانت هجرة قصيرة بعد عام ١٨٩٠ ، وكان معظمهم من القطاع النمساوى للمجر وايطاليا (١١) .

ومرة أخرى نقول انه لمن العسير علينا أن نمايز بين الهجرة للاستيطان والهجرة المؤقتة بين البلدان المختلفة . ويحدثنا فورستر عن الايطاليين الجنوبيين الذين اعتادوا التنقل شمالا فى اعداد غفيرة فيقول : « تشبه الهجرة للاستيطان من نواح كثيرة الهجرة الداخلية غير المألوفة فى ايطاليا أكثر مما هو الحال بالنسبة لحركة الهجرة الى ما وراء المحيط . » (١٢) وخبرة الايرلندى الذى كان يهاجر الى لانكشير أو الاسكتلندى الى برمنجهام أو سكان جنوب ويلز الى لندن ، انما كانت تختلف من حيث الدرجة فقط عن خبرة جيرانهم الذين هاجروا الى بوسطون وتورنتو وسترانتون على الترتيب . فكل حركة من هذه كانت تستلزم استئصال عقلية المهاجر وتطويرها بدرجات متفاوتة .

وخلاصة القول أن الهجرة عبر المحيط لم تكن سوى وجه واحد يثير الحيرة لنمط معقد للغاية لتيارات المد التى لم تكن تقتصر على هجرة المستوطنين النرويجيين الى مزارع مينو سوتا والمهاجرين

---

(١١) دادلى كيرك : « سكان أوروبا فيما بين الحربين » ١٩٤٦ ، ص ٩٧ ـ ١٠٥ .

(١٢) فورستر : نفس المرجع . ص ٦٩ .

الأيرلنديين من والى الولايات الألمانية الشرقية ومناجم الفحم فى مناطق الأبلاش وعمال الصلب فى سيليزيا والعمال الايطاليين الذين كانوا يتنقلون جيئة وذهابا بين شيكاغو وايلينوا وهوميكورت : وفى فرنسا عمال الفنادق فى تنقلهم من والى لوزان ونيس وريو دى جانيرو ، والاسكتلنديين من والى مارسيليا وسانتوس . وهكذا نجد أننا بعيدون كل البعد عن هذه القضية الساذجة المسماة « بالحمى الأمريكية » .

- ٢ -

ثانيا ، اننا اذا ما دققنا النظر الى منبت المهاجرين فاننا لا نكتشف ما نتوقعه من كل من الاحصاءات الاجمالية وأنماط التاريخ القديمة ، أو اننا لا نتبين هذه الحركة الجماعية غير المتمايزة « للفلاحين » أو « الحرفيين » الحقيقيين الذين يفدون فى حشود كبيرة الى موانئ الهجرة من « مواطن » مختلفة لانتبينها فى وضوح مثل ايطاليا أو المانيا بل وبولندا أو ايرلندا . وستظل الصورة التى أمامنا صورة زائفة حتى اذا علمنا هذه الحقيقة الواضحة وهى أن مثل هذه المصطلحات انما كانت فى أغلب الأحيان اسماء باطلة للتعبيرات الجغرافية أو المقاطعات السياسية . واذا نظرنا الى هذا السطح المتجانس للحركة الجماعية من خلال منظار مكبر سنراه أشبه بقرص يحتوى على عدد لاحصر له من الخلايا والأحياء والقرى والمدن لكل منها أوضاعها الخاصة بها بالنسبة لجاذبية الهجرة وربما لا يكون لقوة الجذب هذه أى تأثير عليها . فالأمر لم يعد مجرد قضية هجرة سكان الجبال الاسكتلنديين على هيئة جماعات الى كندا العليا أو هجرة سكان الراين الى وسكونسين، أو هجرة أبناء السويد الى مونتانا وسكان شمال ايطاليا الى فرنسا والأرجنتين وسكان جنوب ايطاليا الى الولايات المتحدة ، رغم أهمية هذه الفوارق

الأولية . واذا ما توخينا الصبر والأناة فى عملنا هذا فاننا سنصل الى المنابع الخفية للحركة . ومن ثم يجب أن يقتصر حديثنا عن ويلز بل بور تمادوك أو سوانس ، وليس جنوب أو شـــمال ايطاليا بل كذلك فينيسيا جوليا وفريولى وبازيليـكاتا وكلابريا ، ولا نتحدث عن اليونان بل ولا بيلو بونيز وانما عن تريبوليس واسبرطه وميجالو بوليس ولا يكون كلامنا بشكل عام عن لانكشير بل داروين أو بلاك بورن ؛ ولا ينصب حديثنا على النرويج عموما بل كريستيان ونورث بيرجينوس ، فثمة قرى فى منطقة بيلوبونيز مثل بازيلكاتا وفريولى شب أطفالها على الهجرة . وثمة قطاعات من نيويورك هـاجر اليهـا مهاجرون من ايطاليا أبناء أحياء بذاتها واستوطنوا شوارع خاصة . ونراهم يناصبون بعضهم العداء فى أغلب ، الأحيان . وسبيلنا الوحيد لفهم التشريح الحقيقى لعملية الهجرة أن ندرس هذه الأحياء والمدن دراسة فاحصة ونتعقب مصير أبنائها وما حققوه من نجـاح . وأقر (هانزن) هذا الرأى بوضوح حين قال « ان ظاهرة الهجرة لا تتحدد خصائصها فى لحظة معينة عن طريق نسبتها الى الأمة ككل وانما عن طريق نسبتها الى قطاع منها محدد للغاية . وعندما تتضح لنا هذه الخصائص فاننا ندرك منبت كل المهاجرين رغم أننا ندرجهم جميعا تحت اسم جامع مثل المهاجرين من الألمان أو الايطاليين »(١٣) .

وثمة مهن بذاتها ترتبط ارتباطا وثيقا بأحياء معينة ، واذا أحطنا بهذه المهن فان ذلك سيخلصنا نهائيا من الأسلوب النمطى الخاص بالكتلة المتجانسة من « الفلاحين » . ومن أهم القســمات المميزة والمثيرة لعمليات التحليل المتتالية للأجانب الذين استوطنوا الولايات المتحدة منذ ١٩١١ هو مدى ارتباط مجموعات ســلالية مختلفة بمهن معينة . وعلى الرغم من أن هذا الارتباط المهنى انمـا كان جزئيا نتيجة لفرص العمل المتاحة ، الا أنه فى أغلب الأحوال كان يرتبط بظروف العمل فى البلد الأم . وهكذا نجد أن العمال

(١٣) هانزن : « المهـاجر فى التاريخ الامريكى » . ص ١٩١ ــ ١٩٢ .

غير المهرة الذين وفدوا من جنوب ايطاليا كانوا يشتغلون فى الولايات المتحدة فى ميدان التشييد والصناعات الثقيلة • ولكنهم كانوا أيضا يتجمعون فى مهن مستقلة لها خصائصها المميزة • فالايطاليون ومن بعدهم اليونانيون الذين سلكوا طريقا مماثلا ، أسسوا أول ركيزة لهم ليثبتوا عليها أقدامهم فى المدن الأمريكية وذلك بأن عملوا كماسحى أحذية • وكانوا يحصلون بذلك على بضع دولارات نتيجة تجوالهم فى الطرقات وهيأ لهم ذلك الحصول على النفقات الخاصة بشراء عربة يد لبيع الفاكهة أو المرطبات ثم محال لبيع الايس كريم أو الزهور حتى يتمكنون أخيرا بفضل هذا كله من فتح مطعم أو العمل فى الفنادق • وقد تحول أربعة أخماس المهاجرين الذين وفدوا الى أمريكا من لورينزانا فى بازيلكاتا الى ماسحى أحذية •

ويرجع هذا التركز جزئيا الى غريزة التبعية للقائد والتى كان يستغلها السادة من مقاولى الأنفار الايطاليين أو اليونانيين الذين كانوا يجمعون الفتيان من أحيائهم لتشغيلهم طبقا لعقود شكلية وغالبا ما تكون عقود عمل مجحفة • ورغم ذلك فقد كان فى استطاعة مقاولى الأنفار فى الولايات المتحدة أن يقوموا بنفس الدور لأن نفس هذا النظام كان متبعا من قبل فى كل من جنوب ايطاليا واليونان • اذ كان المتبع فى الأحياء الوعوية الفقيرة فى البيلو بونيز أن يرحل الطفل فى سن العاشرة والثانية عشرة الى مدن اليونان أو تركيا ليكتسب بعض النقود لأبويه ، عن طريق العمل كماسح أحذية أو صبى فى مقهى أو محل بقالة ، وغالبا ما كان يعمل فى ظروف قاسية • واعتاد مقاولو الأنفار أن يجمعوهم من هذه الأماكن ليرسلوهم الى الولايات المتحدة •

وكان هذا العمل من الأعمال المنحطة والتى يستطيع أى انسان من الحقول أن يؤديه • ومع ذلك فان المهاجرين من « الفلاحين » لم يقتصر عملهم على هذه المهن وحدها • وكان الايطاليون يمثلون

الجانب الأكبر من الهجرات. هذا ولو أن ما لا يقل عن ثلث المهاجرين الايطاليين الذين هاجروا الى الارجنتين فى الفترة التى شهدت وفرة فى انتاج الحبوب فيمـــا بين عامى ١٨٧٦ و ١٨٩٧ لم يكونوا من الفلاحين بل من الحرفيين ، وكان من بين هؤلاء عمال البناء والنجارون وعمال المحاجر والبستانيون وعمال الطوب وعمـــال الطلاء بالملاط الذين أعطوا مدن أمريكا طابعها الايطالى . وكان من بينهم كذلك قباطنة السفن من جنوا والملاحون والبحارة الذين كانوا يشتغلون بعمليات الشحن والنقل النهرى . وكان ثمة مركز مماثل لحرفيين فى الولايات المتحدة . وهنا أيضا كان الأسلوب المتبع محددا من قبل أن يعبر أى من المهاجرين المحيط الأطلسى . وكان العمال المهرة يشكلون عنصراً هاما فى الهجرة الايطالية الى سويسرا وفرنسا ثم أخيراً الى ألمانيا وخاصة العمال الذين كانوا يفدون من فريولى وهى مصدر للمهاجرين بل والمصـــدر الوحيد حيث بدأ الصـــعوة من سكانها يفكرون مليا فى حدود الهجرة المؤقتة . وبدأ آلاف العمال يستوطنون فينسيا شتاء وهم العمال الذين فشلوا فى الحصول على عمل دائم هناك ولم يجدوا أمامهم من سبيل الا الهجرة . ومن ثم كان الغلمان فى فريولى يتدربون عن قصد على العمل فى قطع الحجارة أو النجارة لكى يستفيدوا من النقص الذى تعانى منه فرنسا فى هذه المهن . كما وأن الآباء فى كازيرتا أو بازيليكاتا كانوا يعدون أبناءهم بشكل مباشر للعمل فى صناعة الزجاج فى ليونز . وهكذا كانت هناك علاقة وثيقة فى أغلب الأحيـــان تربط ما بين الهجرة والمهنة ؛ وكان هذا هو الوضع القائم فى أوروبا قبـــل أن تصبح أمريكا مركز جذب لهم .

والملاحظ أننا فى مناقشتنا للمهاجرين من العمال المهرة عنينا الى حد كبير بالحرفى القروى الذى كانت تمتصه بسهولة الأوضاع الاقتصادية البدائية فى المناطق الزراعية المتاخمة . الا أن هـــذا

الموضوع يصبح ذا دلالة كبيرة عندما نتناول بالفحص دور المهاجرين من التكنيكيين فى تصنيع البلدان التى هاجروا اليها • فان ذيوع التكنولوجيا عن طريق هجرة التكنيكيين يمثل جانبا من تاريخ الهجرة ، وهو جانب جدير بدراسة مستفيضة • وهنا يجد الدارس للهجرة البريطانية ميدانا خاصا يسهم به فى دراسته • فان تفوق بريطانيا فى ميدان الصناعة ورأس المال والتجارة والطرق التجارية، كل هذا شجع على هجرة لا مثيل لهـا من التكنيكيين الذين أمدوا البـلاد التى هاجروا اليهـا الواحد بعد الآخر بطاقم من المهارات لتصنيعها • ويصبـح دور التـكنيكى البريطـانى فى التصنيع دوراً خطير الشـأن بالنسـبة للبلدان الحـديثة مثـل الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر وفى كندا أو اسـتراليا فى القرن العشرين بحيث يحق لنا أن ننظر الى التصنيع باعتباره صورة من صور تاريخ الهجرة • بل ان هـذا الدور له أهميته حتى بالنسبة للنظم الاقتصادية الراسخة منـذ القدم • وعلى الرغم من أن ثمـة محاولة للتركيز على الولايات المتحدة باعتبارها مثالا واضحا الا أننا هنا ، كما هو الحال فى جوانب أخرى من تاريخ الهجرة انما نتناول ظاهرة يحسن معالجتها باعتبارها ظاهرة عالمية • فالملاحظ أن الناس الذين ألفوا أداء مهنة متخصصة كانوا يستفيدون من حاجة غـيرهم الى هذه المهنة ورخص اسعار المواصلات ويعملون على نشر مهنتهم هـذه على نطاق العالم • فعمال المناجم فى أقصى الجنوب الغربى لانجلترا كانوا يؤجرون أنفسـهم للعمل حيثما كانت هناك حاجة لمهاراتهم ، وتكون منهم أول جيل أرستقراطى من رؤساء المناجم فى مناجم الرصاص والصفيح والنحاس • ولم يحدث هذا فى الينوا وميتشيجان فقط بل حدث أيضا فى بوليفيا وراند وبردكين هيل • وكانوا أحيانا يتنقلون من قارة الى قارة ليمارسوا فى بساطة وصدق مهنتهم الخاصة • وتولى عمال النسيج الذين هاجروا من البنين عملية انشاء وتشغيل الأنوال فى فرنسا وبلجيكا فى الوقت الذى كان فيه

كل من سلاتار وسكو لفيلد وخلفاؤهم يقيمون مصانعهم فى نيوانجلند وكذلك فان عمال السباكة فى انجلترا وويلز وعمال صهر الحديد قاموا بدور مماثل بالنسبة لصناعة الحديد ولم يقتصر دورهم على بنسلفانيا بل امتد الى فرنسا والروسيا ٠ وعمال الأوانى فى ستافورد شاير زاولوا مهنتهم كذلك فى فرنسا وروسيا كما أنهم استطاعوا أن يحلوا كل المشاكل الخاصة بالصلصال فى العالم الجديد ٠ وأشرف المهندسون الانجليز الاسكتلنديون على بناء وتشغيل خطوط السكك الحديدية فى كل بقاع الأرض تقريبا ، عدا الولايات المتحدة ، من بلجيكا الى نيوزيلندا ومن الهند الى الأرجنتين٠ وهكذا كان الوضع فى سائر مجالات التكنيك الصناعى فى القرن التاسع عشر ٠ وربما لو تيسر لنا أن نعرف الكثير عن ذلك لوجدنا أن المجتمعات البريطانية التى نشأت فى فول ريفر وماسوشيت أو ايست ليفر بول وأوهيو انما ترتبط بالمجتمعات البريطانية فى بونيس آيرس وشارنتون وموريال أكثر مما ترتبط بالمجتمعات الأمريكية المهجنة الأخرى فى الولايات المتحدة ٠ (١٤)

وغالبا ما تعطينا دراسة هجرة التكنيكيين المفتاح الذى يساعدنا على فهم المجتمعات التى تتميز بكيانها المستقل (دراسة الأفراد من خلال دراسة المجتمعات وهو ما نفتقر اليه فى دراستنا للجماعة السلالية الجديدة ٠ الا أنها تعد شيئا جوهريا ولازما اذا ما كنا بحاجة الى أن نتعلم شيئا له قيمته عن الحوافز والأسباب والتوافق بل

---

(١٤) من دواعى الاسف اننا لا نعرف غير النزر اليسير عن المجتمعات البريطانية فى الخارج بما فى ذلك الولايات المتحدة نفسها ، حيث المجتمعات الامريكية « المهجنة » لها الخاصية البريطانية المميزة مثلما لها خصائص مجموعات سلالية أخرى ، وذلك على عكس الاعتقاد الشائع . وثمة دراسة فريدة فى هذا الصدد وكتبها ل . ه . ح . رينولد : « المهاجر البريطانى وتوافقه الاقتصادى والاجتماعى فى كندا . » طبعة تورنتو ١٩٣٥ .

وأى شيء فى الحقيقة يتعلق بالطبيعة الحقة لتجربة المهاجر • وتقوم المهارة بدور جهاز الرسم ذى النشاط الاشعاعى الذى يتعقب حركة الدم من خلال الهجرة • وسبق لى أن أشرت الى أننا سوف نحسن صنعا اذا ما عملنا على تطوير دراستها باعتبارها تكنيكا يفيدنا فى هذه الدراسة(١٥) فنحن على سبيل المثال نعرف الكثير عن التكنيكيين البريطانيين فى الولايات المتحدة بحيث يتسنى للدارس أن يقدم الاجابة الشافية عن رضا لأكثر المشاكل الهامة •

وتتميز هجرة التكنيكيين البريطانيين بخاصية مميزة فنحن فى استطاعتنا أن نمايز بين مراحل متتابعة : أولها هجرة المخترعين المبدعين ونقلة هذه المخترعات فى صناعات النسيج والحديد والصلب والأوانى والمناجم الذين أدخلوا التكنولوجيا الحديثة، ثم هاجر فى أعقابهم مئات من العمال المهرة وكانوا يضمون الغزالين وصانعى الآلات وعمال السباكة والمناجم وكان بعضهم فقط مهاجرين موسميين بينما استوطن البعض الآخر وانخرط ضمن جماعات تتميز بتراثها البريطانى والولاء المهنى وألفوا نقابات مهنية • ثم كان الطور الثالث عندما ساعدت الآلات المتطورة وطرق الانتاج الأمريكية على تضييق نطاق العمل الماهر وزاد معها عدد المهن التى يمكن لأيد عاملة رخيصة وغير ماهرة وأكثر طواعية أن تؤديها • وكان هؤلاء يفدون من مواطن هجرة حديثة ـ من ايرلندا وفرنسا وكندا وشرق أوروبا • وما أن حدث هذا حتى ارتقى العنصر البريطانى ليحتل المراكز الاشرافية والادارية وتوقفت هجرة التكنيكيين ، اللهم الا اذا كان أحد الاخصائيين ممن تقتضى الظروف هجرته • وثمة جوانب كثيرة ومضيئة ترتبت

---

(١٥) ف • فيستلبنويت : « هجرة صناعة الاوانى عبر المحيط الاطلسى » مجلة التاريخ الاقتصادى ـ الحلقة الثانية ـ ص ١١ ـ ١٩٥٨ »

على ذلك ، الا أنها تخرج بنا بعيدا عن حدود هذا المقال(١٦) • ويكفى هنا الاشارة بأنه كانت لها خصائصها المميزة التى تكررت فى صناعة تلو الأخرى ابتداء من عمال غزل القطن فى لانكشـير عام ١٨٠٠ الى عمال الطلاء بالقصدير فى ويلز عام ١٨٩٠ • ورغم أننى كنت أود أن أتمكن من مقارنة مثل هذه الهجرة الى الولايات المتحدة بالهجرة الى بلدان أخرى مثل كندا واستراليا ، ولازالت الهجرة الى كل منهما مستمرة ، الا أن الدليل الذى بين أيدينا يقدم لنا دلالات عـامة عن المضامين الواسعة للهجرة الى ما وراء المحيط الأطلسى •

- ٣ -

ان هجرة التجـــار تسترعى انتباهنـــا للبحث عن الجـوانب الاقتصـادية للموضوع • وبالرغم من الحقيقة الثابتة من أن هجرة القرن التاسع عشر انما كان الحافز اليها أساسا حافزا اقتصاديا ، الا أن المحددات الاقتصادية الفعلية انما كانت تصاغ صياغة مبهمـة داخل الاطار الذهنى القديم • اذ كان الباحث يجد نفسه بصدد قائمة تحوى عوامل « جذب » و « دفع » والتى كان يتركها آنذاك فى خلفية تفكيره بسبب الانهماك فى الاعتبارات الثقافيـة والسياسيـة التى تتضمنها عوامل التمثل • وفهم الهجرة الحرفية هو الطريقة الصحيحة للوصول الى تعريف أكثر ثراء • فأولا كانت الطرق التجارية هى التى تحدد هذه الهجرة • وبالنسبة لأمريكا الشمالية فقد حددتها الطرق التجارية التى تبدأ من الجزر البريطانية • فمن الحقـائق الأساسيـة أن المهاجرين كانوا أساسا يمثلون حمولة لها قيمتها بالنسبة للسفن العائدة غير محملة بالقطن الخام أو أخشاب البنـــاء وقد بدأت هذه

---

(١٦) ثيسنلبثويت : « الرابطة الانجلو امريكية فى مطلع القرن التاسع عشر » — (فيلادلفيا ١٩٥٩) ص ٢٩ — ٣٣ •

الحقيقة الآن فقط تلقى ما تستحقه من اهتمام • وكانت شركات الشحن من كونارد وأستر _ أمريكان الى الخطوط اليونانية الحديثة تعتمد في تكوين ثرواتها على المهاجرين ؛ وظلت التجارة ردحا طويلا من الزمان في يد البريطانيين واستمرت الى حد ما تمر عبر الموانى البريطانية بعد أن انتقلت مناطق تجميع المهاجرين الى وسط وشرق أوروبا • وكان الاتجار في المهاجرين تطويرا للتجارة الأنجلوأمريكية الواسعة النطاق والتى وحدت بين أمريكا وشمال غرب أوروبا في وحدة اقتصادية للمحيط الأطلسى •

ومفهوم اقتصاد المحيط الأطلسى مثله كمثل تاريخ المحيط الأطلسى ، كلاهما حديث النشأة تماما ، الا أن لهما أهمية كبرى لفهم تاريخ الغرب في القرن التاسع عشر • والاصطلاح نفسه له مايبرره، ذلك لأنه لا يقتصر على وصف أحد ظروف التجارة العالمية ، أيا كان هذا الظرف ، بل الظرف الذى كانت تتمتع فيه عوامل الانتاج بحرية حركة لدرجة كبيرة بحيث يصعب علينا أن نمايز بين البلدين الرئيسيين المعنيين وهما بريطانيا والولايات المتحدة كنظامين اقتصاديين منفصلين كل منهما مغلق على نفسه• فكان اقتصاد المحيط الأطلسى يتعلق باستغلال العمل ورأس المال الأوربيين لمراعى شمال أمريكا بغية الحصول على منتجات رخيصة الثمن من القطن والقمح لأوروبا ، وفتح أسواق للصناعات الأوروبية فيما وراء البحار • وكانت هجرة العاملين التوأمين : الاستثمار الرأسمالى والعمل ، هى المفتاح لهذا الاقتصاد ؛ كما كان المهاجرون هم العنصر الجوهرى لتشغيله • أما كيف سارت هذه على وجه الدقة فلا زال موضع بحث وجدال • وتمت على يد الاقتصاديين الأمريكيين أول محاولة لتهذيب الفروض القديمة عن الهجرة ، وهى فروض غير ناضجة عن ميكانيزم الدفع للتضخم السكانى والاستغلال في أوروبا وميكانيزم الجذب للفرص السانحة على الأرض الأمريكية • ويلزم هنا أن ننوه

بمبادرة الباحثين الأمريكيين من غير المشتغلين بالتاريخ • وكانت محاولتهم هذه نتاجا فرعيا لبحثهم فى عمليات الدورة التجارية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما خلت • ووجد جيروم أن ثمة ارتباطا مباشرا بين الذبذبات التى تتعرض لها الهجرة الى الولايات المتحدة والدورة التجارية الأمريكية القصيرة المدى • وأخيرا أثبت كل من كوزينتس ولوبان أن ثمة ثلاث ذبذبات طويلة تعرضت لها الهجرة الحقيقية فيما بين عامى ١٨٧٠ ـ ١٩٤٥ والتى لازمت فى اتجاهها الذبذبات فى دخل الفرد •

الا أن هذه التقديرات التى تقوم على أساس احصائى ليس لها غير فائدة محدودة لمؤرخى الهجرة • ذلك أن عوامل « الجذب » تفعل أشياء كثيرة ، وتضع موضع الشك فكرة أن أمريكا هى مركز الهجرة • ومع ذلك فقد قام برينلى توماس منذ عهد قريب بمحاولة جديدة تتسم بأنها أكثر طموحا على المدى الطويل وأكثر قناعة لوضع نظرية تربط حركة الهجرة بنشاط اقتصادى آخر • ففى دراسته عن بريطانيا واقتصاد المحيط الأطلسى حاول توماس أن يبين لنا أن الحركة الايقاعية للنمو الاقتصادى فى كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بمسار الهجرة بين البلدين • وخلاصة القول أنه كشف عن وجود علاقة عكسية بين الاستثمار فى أمريكا ومستوى الدخل فى بريطانيا من ناحية وبين الهجرة وتصدير رأس المال من ناحية أخرى • كما كشف عن علاقة موجبة بين الهجرة والاستثمار والدخل فى الولايات المتحدة ، ويناظر ذلك تنافر بين معدلات النمو الاقتصادى على جانبى المحيط الأطلسى الشرقى والغربى • وعلى الرغم من أن بعض آراء توماس الاحصائية هى موضع جدل بطبيعتها ، الا أن عمله هذا يمثل خطوة كبيرة الى الأمام بالنسبة لدارسى الهجرة • اذ كشف أولا عن وجود ارتباط غير بسيط بين الزيادات التى تطرأ على النشاط التجارى فى أمريكا وبين الهجرة :

فقبل عام ١٨٧٠ تقريبا طرأ ارتفاع على النشاط التجارى فى أمريكا فى أعقاب ارتفاع الهجرة • والنتيجة التى نخرج بهـــا من ذلك ، بالنسبة لهذه الفترة على أقل تقـــدير هى أن عوامـــل « الدفع » فى أوروبا كانت هى القوة الدافعة للهجرة أكثر من عوامل « الجذب » فى الولايات المتحدة • ولـــكن ما هو أهم أنه حين ركز بحثه على اقتصاد المحيط الأطلسى خرج بنظرية اقتصاد الدولتين ؛ وهى نظرية أكثر تعقيدا بيد أنها أكثر فائدة للمؤرخ من النظريات السابقة وهى نظريات اقتصاد الدولة الوحيدة التى تسلم بمركزية أمريكا • فهو يبرهن لنا على أن الميكانيزم انما هو على أقل تقدير عملية ذات اتجاهين ولاسبيل الى فهمه الا اذا وضعنا فى اعتبارنا ظروف كل من البلد الذى تبدأ منه الهجرة والبلد الذى يتجه اليه المهاجرون ، وأن نضع فى اعتبارنا كذلك كل العوامل المعقدة التى تتفاعل مع بعضها ، وأن العمل ليس الا عاملا واحدا فقط من بين هذه العوامل التى أســـهمت فى تطوير اقتصاد حوض شمال المحيط الأطلسى •

والطريقة التى يتناول بها توماس موضوع الهجرة تتيح لنـــا امكانية ربط الهجرة بديناميات النمو الاقتصادى على نطـــاق أكثر شمولا : فرغم أنه يقدم لنا شواهد قيمة تعزز آراءه بالنسبة للسويد وبلاد الدومينون البريطانية الا أن المملكة المتحدة والولايات المتحدة قد ظلتا تمثلان البؤرة التى يتركز فيها اهتمامه • ونحن نستطيع أن نتخيل الزمن الذى يتحقق فيه تطور تكنيكى يمكننا من أن نستوضح الكثير مما غمض علينا بالنسبة لميكانيزم الهجرة ، ولن يقتصر ذلك على الهجرة فى حوض شمال المحيط الأطلسى فقط بل يمتد الى البلدان الأخرى التى كانت مسرحا للهجرة ، وكذلك فهم الروابط المعقـــدة التى تربطها ببعضها البعض •

ويجلو لنا توماس نظرتنا عن مشاكل الأطوار • فيقرر لنا أن اقتصاد المحيط الأطلسى لم يكن سوى طور واحد من بين أطوار التطور الاقتصادى ، وأنه كان يحمل فى داخله بذور تحلله • والحركة السهلة التى أدت بالفلاحين الى زراعة القمح فى البرارى أدت كذلك بالصناع الى استغلال المعادن والأسواق واقامة صناعة حديثة على الساحل الغربى للمحيط الأطلسى • وما أن تطور الاقتصاد الامريكى من وضع اقتصاد بلد مستعمر تابع الى اقتصاد بلد مستقل ومتطور حضاريا حتى انقطع اعتماده على رأس المال الأوروبى أو العمل والمهارات الأوروبية • والتطورات الصعبة التى واجهت حوض المحيط الأطلسى نتيجة ظهور الولايات المتحدة كقوة عظمى ، انما كانت نتيجة منطقية لتفوق الاقتصاد القديم لبلدان المحيط الأطلسى • وليس ثمة شك فى أن صعوبة هذه التطورات قد تفاقمت ، كما أشار توماس الى ذلك ، بسبب قصور سياسة الولايات المتحدة فى أعوام ما بين الحربين اذا ما قورنت باتجاه بريطانيا ازاء هجرة رأس المال والعمل خلال الحقبة الليبرالية الكبرى فى القرن التاسع عشر • وبالنسبة للجانب الخاص بالعمل الذى تتضمنه المشكلة ، يمكن القول بأن سياسة التقييد العنيفة التى اتبعتها الولايات المتحدة فيما بين عامى ١٩١٧ و١٩٢٤ بالاضافة الى سياسة أمريكا الجنوبية ، كان لها أثرها الهام على مسار الأحداث فى أعوام ١٩٢٠ و١٩٣٠ • وكان الرأى الشائع بين رجال الاقتصاد أن هذه القيود قد أسهمت فى « ركود » الاقتصاد الامريكى خلال فترة الكساد عام ١٩٣٠ • الا أننا بحاجة الى مزيد من الدراسة لهذا الرأى وكذلك لآثاره المزعومة على الاكتظاظ السكانى فى أوروبا مثل تحول الهجرة الايطالية الى امبراطورية موسولينى فى شمال افريقيا • وتعد دراسة آثار الهجرة الواسعة على بلدان أوروبا مشكلة تاريخية صعبة رغم اننا نجد هنا أحد الباحثين الامريكيين مثل دكتور سكراير يقدم عملا رائدا فى هذا المجال فى دراسته عن ايرلندا مستندا فى ذلك الى المعلومات التى

قدمتها لجنة الفولكلور الايرلندى(١٧) • الا أن دراسة الآثار المترتبة على هذه القيود قد تلقى مزيدا من الضوء على هذه القضية ، وهـــذه هى احدى المشاكل الكثيرة التى أغفلها الدارسون الأوروبيون منــذ ذلك الحين الى الآن •

ويبدو واضحا مع ذلك أنه أيا كانت المشاكل القصيرة المـدى المترتبة على قيود الهجرة فان الدورة الطـويلة للهجرة الجماعيـة من أوروبا كانت فى طريقها الى الانتهاء فيما بين الحربين • وانتهت هذه الدورة باستيطان المراعى الشاسعـــة غير المـأهولة الموجودة خارج أوروبا وهى جزء من دورة أكبر لم تكن قاصرة على استعمار استراليا والأرجنتين وأمريكا الشماليـــة بل امتـــدت لتشمل اندوس فالى وسيبريا ومونجوليا الداخلية ومانشوكو (١٨) • ومع عـام ١٩٣٠ بدأت حدود الاستيطان الفعلى تتقارب ، بما فى ذلك استراليا حيث ظل جزء كبير من أراضيها الداخلية صحراء حسب المقاييس الزراعية المعروفة • ومع بداية القرن العشرين كانت الاتجـاهات الطاردة المركزية للهجرة الأوروبية أصبحت معادلة لاتجاهات الجذب المركزية•

ولم تتجه أوسع الهجرات الى المراعى بل الى المناطق التى يتركز فيها الفحم والحديد حيث أقيمت الصناعات هناك • وفيما بين عامى ١٨٧٠ و١٩١٤ كانت هناك حركةهجرة حقيقية بلغ بها الأمر أنكانت تضم مواطنين أمريكيين هاجروا من المزارع الى المناجم والمصانع ومدن جبال روكى والأبلاش • ووجد كثير من المهاجرين الأوروبيين فـرص الحياة ميسرة لهم فى ميدان الصناعة الامريكية أكثر مما هى متوفرة

---

(١٧) ارنولد سكراير : « ايرلندا والهجرة الامريكية » ، مينيا بوليس — ١٩٥٨ •

(١٨) و . د . فورسيث : « اسـطورة الاراضى الفضـاء المبـاحة » . ملبورن — ١٩٤٢ — نقرات متناثرة •

ل . بومان : « حدود استيطان الارض » نيويورك ١٩٣٧ •

فى مزارع البرارى • وبوسعنا أن نتصور ذروة الدورة العظمى والمسماة بالهجرة «الجديدة» باعتبارها هجرة ريفية ـ حضرية ، وكان يغلب عليها طابع الهجرة العابرة للمحيط أكثر منها هجرة محلية • وبينما نجد بعض الايطاليين والبولنديين والأكرانيين ينزحون الى بتسبرج أو شيكاغو نجد غيرهم يضاعف من عدد السكان المهاجرين من الفرنسيين والالمان فى لوكروزو والرور وسيليزيا • ومع عام ١٩٢٧ تجاوز عدد المهاجرين الأوروبيين الى البلدان الأوروبية عدد أولئك الذين هاجروا الى بلدان تقع فيما وراء المحيط ، وأصبحت فرنسا أهم بلدان الهجرة فى العالم • وفى عام ١٩٣٠ وفد الى أوروبا لأول مرة فى التاريخ الحديث سكان عن طريق الهجرة الفعلية الى الداخل(١٩) •

وفضلا عن ذلك فثمة علامات تدل على أن هذه الهجرة الى ما وراء المحيط بدأت تضعف قبل أن تفرض أمريكا قيودا على الهجرة اليها • مثال ذلك شدة الهجرة ـ أو الحركة العالميةللعمل ـ أى نسبة المهاجرين لكل ألف من السكان ، فقد انخفضت لدرجة ملحوظة فيما قبل عام ١٩١٤ فى كل بلدان الهجرة والولايات المتحدة • كما وأن توقف الهجرة الى الولايات المتحدة لم يقابله أى تحول فى الهجرة الى البلدان الأخرى •

ولقد بدا فى الحقيقة مع نشوب الحرب العالمية الثانية وكان الدورة الكبرى قد انتهت وأصبح دارسو الهجرة بصدد مشكلة تاريخية خاصة لا علاقة لها بالمرحلة المعاصرة الا فى نواح قليلة • ولم تغير خبرتنا بعد الحرب من هذه النظرة تغييرا خطيرا • فلا زالت فى أوروبا مناطق ريفية مكتظة بالسكان خاصة فى جنوب ايطاليا واليونان وكذلك بلدان منطقة البلقان ، كما طرأ على هولندا حالة من

---

(١٩) كيرك : « السكان فى اوروبا » ص ٨٣ ــ ٨٨ •

حمى الهجرة لها أهميتها ٠ الا أنه بوجه عام لم يكن هناك ضغط كبير في أوروبا من أجل الهجرة ٠ وبينما نجد معدلات النمو الاقتصادى فى بعض البلدان المستقبلة تقليديا ، خاصة استراليا وكندا ، قد صاحبتها زيادة في الطلب على الهجرة ، وعلى الرغم من أن استراليا كانت لفترة من الزمن تمتص المهاجرين بمعدل قياسى ، فان حركة الهجرة قد حققت نسبا متواضعة ٠ وأجمع رجال الاقتصاد فى أحد المؤتمرات الدولية ، الذى عقد عام ١٩٥٥ ، على أن تجديد الهجرة على نطاق واسع لم يعد شيئا محتمل الوقوع ولا حلا ملائما لمشاكل البلدان المتخلفة فى منتصف القرن العشرين والتى تعانى أصلا من التضخم السكانى على عكس ما كان عليه الوضع بالنسبة للمراعى البكر فى القرن التاسع عشر(٢٠) ٠

وخلاصة القول أننا اذا ما تأملنا أطوار الهجرة الى ما وراء البحار فان ذلك يضعها داخل نطاق زمنى محدد ويرجع أهميتها الى علاقتها بالهجرة داخل أوروبا ٠ وتتضاءل هذه النسب كثيرا اذا ما فحصنا درجات حجم السكان فى أوروبا ككل ٠ ففى نفس الوقت الذى كانت فيه أوروبا تمد بلدان ماوراء البحار بما يربو على ستين مليونا من البشر كان تعداد القارة يتزايد كثيرا بحيث ارتفعت نسبة سكانها الى سكان العالم من ٧ر٢٠ ٪ عام ١٨٠٢ الى ٢ر٢٥ ٪ ٠ وجدير بالذكر أن الهجرة لم تؤد فى أى فترة من الفترات الى نزوح أكثر من ٤٠ ٪ من الزيادة الطبيعية لسكان أوروبا ٠ وبعبارة أخرى فان اتجاهات الجذب المركزية التى كانت تبقى على السكان فى أوطانهم كانت على أقل تقدير تعادل فى قوتها قوة اتجاهات الطرد المركزية التى كانت تدفع بهم الى الخارج ٠ واذا ما سلمنا بهذه الحقيقة ولم تنظر الى « التشتت الواسع » باعتباره العامل الديموجرافى الغلاب فى القرن التاسع عشر ، وانما باعتباره

(٢٠) برينلى توماس : « اقتصاديات الهجرة العالمية » لندن ـ ١٩٥٨ ـ فقرات متناثرة ٠

قسمة ثانوية للاتجاهات الديموجرافية داخل أوروبا ، فسوف تظهر أمامنا صورة جد مختلفة وأكثر تشويقا . فبدلا من أن نرى الأوروبيين يفرون الى الأمريكتين واستراليا اذا بنا نراهم هم أنفسهم يستعمرون بلادهم . ذلك لأنهم عن طريق استفادتهم من قوة عملهم ورأسمالهم ودرايتهم بكيفية استغلال المواد الغذائية والمواد الخام فى الأراضى البكر تمكنوا من اطعام سكان بلادهم الذين يتزايدون باطراد بل وتمكنوا أيضا من تصنيع قارتهم . فكما هاجر بعض السكان ، تكاثر البعض فى داخل بلادهم وتركزوا فى مناطق الفحم والحديد . وزيادة على ذلك فما أن بلغت حركة الهجرة الى الخارج المدى الذى يكفل توفير احتياجاتهم من المواد الخام الاساسية حتى بدأت هذه الحركة فى التراخى ولم يعد العنصر المتحرك من السكان يهاجر الى ماوراء البحار بل الى مركز الصناعة الحضرية فىأوروبا الغربية ذاتها . وأصبح هذا الاتجاه فى نهاية الأمر هو الاتجاه السائد ، وعلى حد تعبير فورسيت حلت « مناطق التمركز » محل « الأراضى الفضاء الشاسعة والمباحة » وأصبحت بمثابة مناطق الجذب للهجرة(٢١) . ومن ثم يحسن أن تعالج الهجرة الواسعة الى ماوراء البحار باعتبارها جانبا هاما ، ولكنه جانب ثانوى ، لمشكلة النمو السكانى والتصنيع فى أوروبا . وهكذا مرة أخرى نجد أنفسنا وقد بعدنا كثيرا عن حمى الشغف بأمريكا .

وبعبارة أخرى فان هذه الزاوية الجديدة التى أدعو الى أن ننظر من خلالها الى الموضوع تنقل البؤرة من مناطقالحدود الىالعواصم أى من عوامل « الجذب » الى عوامل « الدفع » وخاصة الى المؤثرات

---

(٢١) فورسيت : نفس المرجع ص ١٦ ١٧ .

ح . اسحق : « الهجرة العالمية والاتجاهات الاوروبية » مجلة العمل الدولية ٤٠ ٦٦ – ١٩٥٧ ص ١٨٦ – ١٩١ .

الديموجرافية التى قال عنها برينلى توماس أنها قد تكون العنصر الدينامى فى نمو اقتصاد المحيط الأطلسى • ومن ثم ينبغى علينا أن نبحث عن الاسرار الكامنة للهجرة من خلال تأثير هاتين « الثورتين » اللتين ترتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا وهما الثورة الديموجرافية والثورة الصناعية •

وليس ثمة مجال للدخول فى التعقيدات الذائعة عن الثورة الديموجرافية • ومع ذلك فيبدو أن نقصا فى نسبة الوفيات دون أن يقابله نقص فى نسبة المواليد ، كعامل تعويض ، هو الذى أدى الى ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية مبتدئا من شمال غرب أوروبا ، ومتجها شرقا وجنوبا حسب تأثر المجتمعات بالتقدم فى ميدان الطب والغذاء • ورغم أن هذه الزيادة أمكن تعويضها بأنواع جديدة من الأطعمة ذات القيمة الغذائية ، خاصة البطاطس ، الا أن سكان الريف كانوا يعيشون على الكفاف • وكانت نتيجة ذلك ميلا خفيا الى الهجرة تحول فى بعض الأحيان ، ولكن بدرجات متفاوتة ، الى هجرة حقيقية • ولم تحدث هذه الهجرة فى أوقات الكوارث فقط التى نجمت عن فساد محصول البطاطس ، بل عندما تيسرت وسائل النقل والمواصلات الى الموانى والى بلاد ما وراء البحار • ومن ثم فاننا نجد فى بلد تلو الآخر ابتداء من ايرلندا الى ايطاليا ثم اليونان أخيرا ، معامل ارتباط مباشر بين معدلات الهجرة ومعدلات الزيادة الطبيعية السابقة عليها بعشرين عاما • ويمثل هذا المعامل هجرة النسبة الزائدة من بين مجموعة السكان الذين بلغوا من العمر الحد الذى يسمح لهم بدخول سوق العمل • ففى النرويج مثلا نجد منحنى الهجرة يرتفع ارتفاعا كبيرا مرتين ، أحدهما فى عام ١٨٣٠ والثانى فى عام ١٨٦٠ • وحدث هذا الارتفاع وقتما كان هناك عدد كبير جدا من كبار السن تتراوح أعمارهم ما بين العشرين والثلاثين عاما • وتأكدت صحة هذا الرأى نظرا لأن الغالبية الساحقة من المهاجرين كلهم من الشباب • واذا

نظرنا الى عدد المهاجرين في الولايات المتحدة خلال الفترة التى تيسر لنا فيهـــا الحصول على أرقامهم نجـــد أن ما بين ٨٦ و ٩٥٪ منهم دون الأربعين • وكان المهـــاجرون البريطـانيون فى مطلـع القرن العشرين دون الواحد والثلاثين من العمر • وتجلى شيطان مالتوس بمظاهره المختلفة في بلد بعد الآخر عبر القارة الأوروبية دون النظر الى البنية الاجتماعية الريفية أو قوانين الارث وحيازة الأرض أو ظروف الزراعة أو سياسة ملاك الأرض •

ومع ذلك فان تضـخم السـكان في الريف لم يؤد بذاته الى الهجرة الجماعية مثلما كان الوضع فى ايرلندا عام ١٨٣٠ أو اليونان عـام ١٨٩٠ • فقـد كانت هناك شروط أخرى ثلاثة حددها هانزن بما يلى : حرية الحركة والرغبة في الحركة ووسائل الحركة •

وتعتبر وسائل الحركة أسهل هذه الاصطلاحات تعريفا • الا أن الطرق والسكك الحديدية والقنوات والســفن التجـارية والبريد والبرق والبنوك ومكاتب السياحة ، والتى كان يستخدمها المهاجر فى سفره ، كانت فى ذاتها نتـــاجا لقوى حطمت الوجود المغلق للريف الأوروبى ، وأمدت الفلاح بحرية الحركة • ويتمثل جانبها السلبى فى القضاء على العبودية ، والايجابى فى اتاحة فرص العمل ، كمـا أمدته بالرغبة في الحركة التى تولدت عن اتساع الآفاق أمامه وضيق الفرص المتاحة داخل وطنه • وارتبطت الهجرة فى الحقيقـة ارتباطا وثيقا بنشاط المواصلات والأسواق والتجارة ورأس المال والذى يمثل الطور الأول فى اقامة اقتصـــاد حديث • ونلمس ذلك بالنســبة لاسكنديناقيا خلال الأربعينات والخمسينات من القرن التاســع عشر وبالنسبة لايطاليا خلال الثمانينيات والتسعينيات من نفس القرن • وكان تفتت المجتمع العرفى بفعل القوى التجـارية شرطا أســاسيا للهجرة • وأدى هذا الى حـــدوث نمو ثورى في الحركة الاجتماعية

والتى حولتها فرص السفر والحصول على وظيفة الى ميل نحو الهجرة ومن ثم فقد كانت الهجرة فى حقيقتها أحد جوانب الحركة الاجتماعية.

وارتباط الهجرة بالتصنيع والتحضر (وكلاهما لا ينفصمان) كان ارتباطا وثيقا مثل ارتباطها بشيطان مالتوس . وأصبح صحيحا الآن أن فلاحى لومباردو كانوا يفلحون الأرض فى الأرجنتين كما كان فلاحو السويد فى مونتانا . وأصبح صحيحا كذلك أن نسبة متزايدة من المهاجرين البريطانيين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر هم من التكنيكيين المهرة الذين تعودوا الانتقال من منطقة صناعية الى أخرى . ولكن أصبح الطابع الغالب للهجرات الكبيرة بعد عام ١٨٩٠ أنها كانت هجرة من المزرعة الى المصنع ومن القرية الى المدينة سواء أكانت هذه الهجرة من ايووا الى شيكاغو أو من سيليزيا الى بتسبرج أو من بيدمونت الى بوينس آيرس . وكان أبناء الأقاليم الذين يقطنون منطقة الفيوردات فى النرويج يعتبرون أى رفيق لهم يأخذ أهبته للابحار « أمريكيا » . بل وبعد الحرب العالمية الثانية كان مجتمع الهجرة النرويجى الذى يقيم على ضفتى نهر وسكونسين ويجاهد بغية الاحتفاظ بكيانه اللوثرى متكاملا يعتبر لفظ «الأمركة» مرادفا للفظ « التحضر » أو سكنى الحضر(٢٢) .

بيد أن القوى الدينامية التى خلقت الميل الى الهجرة فى وقت ما هى أيضا التى ساعدت على تنمية الصناعات التى هيأت فرص العمل ، ومن ثم لم تعد الهجرة أمراً لا مناص منه . وهنا بدأت الهجرة الى ما وراء المحيط فى التناقص . وكانت بريطانيا تمتص حتى عام ١٨٥٠ غالبية صغار ملاك الأراضى الانجليز ممن كانت ظروفهم تهيئهم للهجرة كما بدأت منذ عام ١٩٠٠ تمتص الكثيرين من

(٢٢) بيترمونش : « التوافق الاجتماعى بين سكان نهر وسكونسين من النرويجيين » المجلة الاجتماعية الامريكية – ١٩٤٩ .

الايرلنديين الذين كانت ظروفهم تهيئهم للهجرة كذلك الى أمريكا • وفى السبعينيات من القرن التاسع عشر بدأت الأخشاب النرويجية والمعادن السويسرية تشق طريقها ضمن الهـــجرة الاسكنديناڤية ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ مسارها يتحدد بفعل جاذبية العمالة فى أمريكا ، والتقدم غير المتعادل للصناعة الاسكنديناڤية ، الى أن نضب هذا المعين عشية الحرب العالمية الأولى• وتعتبر الهجرة الألمانية من أكثر هذه الحالات وضوحا فقد بلغت أقصاهـا بالنسبة للغرب والجنوب الغربى فى الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، وبالنسبة للبلد ككل فى منتصف الثمانينيات مع بداية الصناعات الثقيلة فى هذا العقد من القرن التاسع عشر • بيد أن العمالة لم تكن هى الوجه الوحيد لعملية التحضر والتصنيع التى أضعفت من جاذبية الهجرة • اذ كانت حياة الحضر أكثر استهواء ،نظرا لرخص أسعار اللحوم والحبوب فى بلدان ما وراء البحار فضـــلا عن تزايد عـدد مهن ذوى الياقات البيضاء • كما وأن ظهور مفهوم رفاهية الدولة بالاضافة الى التعليم العام والتأمين ضد البطالة والشيخوخة كل هذا طرد المخاوف القديمة عن الخدمة العسكرية • ووجد الفلاح فى المفهوم الجديد عن القومية تعويضا كاملا وممتازا لمـا خسره من احساسه بذاتيته فى قريته • وأدى هذا المفهوم الى وقوف الدولة ضد الهجرة • ثم هناك أخيرا انخفاض نسبة المواليد والتى كانت زيادتهـا ، بالاضـافة الى ما صاحبها من انخفاض فى نسبة الوفيات ، سببا فى انطلاق الثورة الديموجرافية • الا أن انخفاض نسبة المواليد أدى الى تخفيف الضغط على السكان والذى كان الشرط الكامن للهجرة وأدى بالتالى الى خفض معدلات النمو السكانى الى ما دون المستوى الذى يعوض الفاقد من السكان • وهكذا فان الهجرات الكبرى عبر المحيط فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قد حدثت خلال طور انتقـالى من أطوار التطور الاوروبى بين تفتيت المجتمعات الريفية القديمة وبداية عصر التصنيع الحديث •

السكان والاتجاهات السكانية * في فرنسا الحديثة

بقلم : دادلى كيرك

كثيرا ما ننظر الى فرنسا باعتبارها دولة عـريقة فى التخلخل السكانى . ولقد كانت مخـاطر التخلخل السـكانى هى موضوع الدراسة المفضل طوال مائتى عام لدى أولئك الذين يعنيهم مستقبل فرنسا .

- ١ -

كانت فرنسا فى عصر نابليون لا يفوقهـا من حيث التعـداد السكانى سوى روسيا القيصرية التى تجاوزت تعـداد فرنسا على مايبدو فى فترة من الفترات ابان القـرن الثـامن عشر . ولم تكن

---

* نقل هذا المقال عن كتاب « فرنسا الحديثة : مشاكل الجمهوريتين الثالثة والرابعة » . اشرف على اصداره ادوارد م . ابرل (برينستون ـ مطبعة جامعة برينستون ـ ١٩٥١) . الباب الثامن عشر ص ٣١٣ ـ ٣٣٣ . مع حذف بعض فقراته باذن من المؤلف ومطبعة جامعة برينستون ـ نسخة طبق الاصل ـ ١٩٥١ . مطبعة جامعة برينستون .

فرنسا آنذاك أكثر بلدان غرب أوروبا سكانا بل أكثرهم تمتعا بمزايا الاتحاد السياسى قياسا بوضع ألمانيا وايطاليا ؛ وكانت كذلك أكثرهم تمتعا بالتجانس الثقافى قياسا ببلدان النمسا والمجر التى تعددت فيها اللغات . وكانت فرنسا تضم داخل حدودها ما يقرب من ١٥ ٪ من مجموع سكان القارة الأوروبية .

وفى عام ١٨٧٠ تجاوزت الولايات المتحدة والامبراطورية الألمانية فرنسا من حيث التعداد السكانى ، وتجاوزتها المملكة المتحدة عام ١٩٠٠ وتجاوزتها ايطاليا حوالى عام ١٩٣٠ . وفى عام ١٩٣٩ احتلت فرنسا فى عهد دلادييه المرتبة الخامسة بعد أن كانت الدولة الثانية فى أوروبا . اذ أصبح تعداد سكان فرنسا عام ١٩٣٩ لا يتجاوز ٧٫٣٪ من مجموع سكان أوروبا والاتحاد السوفيتى .

وكان ينظر الى هذا التدهور الديموجرافى فى فرنسا باعتباره مسألة نسبية وليست مطلقة . فعلى العكس من ايرلندا التى كانت بلدا تعانى من تخلخل سكانى حقيقى فان فرنسا لم تكن تعانى خسارة سكانية غير محتملة . وكل ما حدث هو أنها فشلت فى النمو بنفس معدل سرعة النمو السكانى فى بقية البلدان الأوروبية . فقد حققت أوروبا منذ عام ١٨٠٠ أعظم توسع سكانى عرفه التاريخ . ولم تشارك فرنسا فى هذا التوسع الا بنصيب متواضع .

ففى خلال القرن التاسع عشر زادت فرنسا ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة أو ما يعادل ٤٤ ٪ . وزادت بريطانيا العظمى خلال هذه الفترة ذاتها ٢٦ مليونا (أكثر من ثلاثة أمثال عددها) وألمانيا ٣٢ مليونا وبلدان النمسا والمجر ٢٣ مليونا ، وروسيا الأوروبية حوالى ٧٠ مليونا . وزاد سكان أوروبا ككل أكثر من الضعف رغم الهجرة الواسعة ورغم تعثر النمو السكانى فى ايرلندا وفرنسا وجنوب أوروبا .

ولم يكن النمو السكانى البطىء فى فرنسا يقينا نتيجة فقر أو كوارث • اذ كانت فرنسا أكثر تقدما من جيرانها فى المجالين الاقتصادى والثقافى • ولم تتعرض فرنسا فى منتصف القرن التاسع عشر الى المجاعات التى اجتاحت ايرلندا وامارات الجرمان ، والتى قضت على عدد كبير من سكانهما ودفعت بكثيرين الى هجرة هذه الأراضى الى ما وراء البحار •

وتفسير النمو البطىء لسكان فرنسا يكمن فى الانخفاض التدريجى لنسبة المواليد خلال الفترة التى كانت تحتفظ فيها بقيه الدول الأوروبية بالمستويات البدائية للخصوبة ، وهى المستويات التى تميزت بها مجتمعات ما قبل التصنيع • فثمة أسباب عديدة ومتباينة ترجع اليها الرغبة فى تحديد حجم الأسرة • وربما كانت نظرية لوبلاى هى أكثر النظريات رواجا • فقد أرجع أسباب نقص الخصوبة الى تشريعات الارث التى سنتها فرنسا أثناء الثورة ضمن القانون المدنى الفرنسى • وتلزم هذه التشريعات الآباء بأن يوصوا لكل ابن بنصيب معين من ممتلكاتهم (أى أن يقسموا أراضيهم الزراعية بين أبنائهم جميعا) • والمعتقد أن الخوف من تبديد ممتلكات العائلة بتفتيتها يفسر لنا نقص نسبة المواليد فى القرن التاسع عشر والتى ظهرت بالفعل فى وقت مبكر فى الريف •

وتعد آراء ليروى ــ بوليو ومدرسته الفكرية من أكثر الآراء ارتباطا بالفكر الديموجرافى السائد • اذ يربط نقص الخصوبة بظهور مجموعة من العوامل أسماها جميعا « التحضر » • وتشمل عملية التحضر نشأة المدن وظهور الطبقة المتوسطة وانتشار التعليم وأسباب الرفاهية وتوفر وقت الفراغ وازدياد الطموح الفردى والعائلى وتهيئة الفرص أمام الجميع للترقى فى مدارج السلم الاجتماعى • ومن ثم فقد

كانت نسبة المواليد فى فرنسا أقل من غيرها حسب وجهة نظر هذه المدرسة الفكرية لأن فرنسا كانت أكثر البلدان تقدما (١) ٠

وأيا كانت الأسـباب فالشيء المؤكد أنه كان ثمة نقص بطيء وثابت فى نسبة المواليد ومعدل النمو السكانى خلال القرن التاسع عشر ٠ ومع عام ١٨٦٠ كانت نسبة التكاثر الخالصة فى ٣٧ مقاطعة فى فرنسا دون المستوى الذى يعوض الفاقد من السكان ٠ ومع عام ١٨٩٠ كانت أكثر من نصف مقاطعات فرنسا (٤٩ مقاطعة من بين ٨٧) لا تعوض مواليدها عدد الفاقد منها وأصبحت القرى المهجورة ظاهرة شائعة فى فرنسا ٠

وتجلى الضعف الحقيقى للوضع الديموجرافى فى فرنسا عندما واجهت فرنسا متطلبات الحرب العالمية الأولى ٠ فقد خسرت فرنسا فى هذا الصراع ٠٠٠ ١٣٢٠ قتيل من العسكريين فضلا عن ٢٤٠٠٠٠ قتيل من المدنيين ٠ وكانت خسارتها من المواليد تعادل هذه الخسارة العددية الجسيمة ــ وهم المواليد الذين كان مقدرا لهم الوجود لو لم تنشب الحرب ٠ ومن ثم فان العجز الكلى لسكان فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى يقدر بمـا يزيد على ٣ مليون نسـمة ٠ وتعادل هذه الخسارة ٧و٨٪ من مجموع سكانها عام ١٩١٤ ٠

وكانت خسائر فرنسا فى الحرب العالمية الأولى خسائر لانظير لها أو أمرا غير مألوف ٠ وبلغت خسائر ألمانيا وايطاليا وبلدان المجر

---

(١) عرضت المؤلفات التالية المشهورة وجهة النظر هذه وأكدتها بدرجات متفاوتة . ج ٠ برتيلون : « التخلخل السكانى فى فرنسا » ـ باريس ١٩١١ ٠ ب ٠ ليروى ـ بوليو : « المشكلة السكانية » ـ باريس ـ ١٩١٣ ٠ م ٠ ليفاسور : « السكان فى فرنسا » ـ باريس ١٨٩٨ ـ ثلاث مجلدات ٠

والنمسا قدرا مساويا ان لم تزد (٢) الا أن هذه البلدان كان لديها احتياطي كبير من الأطفال والشبان يعوض قتلى الحرب · أما فرنسا فلم يكن لديها هذا الاحتياطي · وزيادة على ذلك فان نسبة المواليد العالية في هذه البلدان مكنتها من التغلب بسرعة على خسائرها في الحرب · وتصور لنا الحقيقة التالية قدرة ألمانيا على تعويض خسائرها · اذ استطاعت حتى عام ١٩٣٠ أن تتجاوز تعداد سكانها عام ١٩١٠ ـ رغم خسائرها الفادحة في الأرواح خلال الحرب وفقدانها لما يقرب من ٧ ملايين نسمة في أراضيها التي تخلت عنها · ولم تستطع فرنسا أن تستعيد ما خسرته الا بعد ضم منطقة الألزاس واللورين اليها وما أضافته اليها الهجرات الواسعة منذ عام ١٩٢٠ ·

- ٢ -

واصلت فرنسا خلال أعوام ما بين الحربين تخلفها عن جيرانها في النمو السكاني · ففيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٩ زاد سكان فرنسا ٧ر٢ مليون نسمة أو ٧٪ · وتمثل نسبة النمو هذه نصف نسبة النمو في ألمانيا (حسب مساحتها عام ١٩٣٧) ، وأقل من النصف بالنسبة لايطاليا وأقل من الربع بالنسبة لاوروبا الشرقية·

وترجع هذه الزيادة الطفيفة في النمو السكاني في فرنسا لسبب واحد فقط وهو الهجرة اليها والتي تمت على نطاق واسع للغاية · فأربع أخماس الزيادة السكانية في فرنسا على الأقل مردها الى حركة الهجرة السكانية الضخمة الى داخل فرنسا خلال العقد

---

(٢) جمع المؤلف بيانات المقارنة من كتاب : فرانك و · نوتشتين : « سكان المستقبل في أوروبا والاتحاد السوفيتي » · (جنيف ـ ١٩٤٤) · الباب الثالث ·

الثانى من القرن العشرين عندما حلت فرنسا محل الولايات المتحدة باعتبارها الدولة الاولى التى يقصدها الاوروبيون المهاجرون. وكانت هذه الهجرة ذات قيمة كبيرة بالنسبة لفرنسا ، ذلك لأنهـا كانت تضم أساسا شبانا فى ربيع عمرهم عوضوها عن خسائرها العسكرية فى الارواح خلال الحرب العالمية الاولى ٠

وتسبب الكساد الاقتصادى عام ١٩٣٠ فى نقص نسبة المواليد وتوقف الهجرات الجماعية ٠ ومن ثم جمد تعداد السكان فى فرنسا خلال هذا العقد ٠ وزادت الوفيات عن المواليد زيادة طفيفة منذ عام ١٩٣٥ ٠ ومن ثم فقد تهيأت أخيرا كل الاسباب التى تدعو الى وجود خلخلة سكانية حقيقية ٠ ونتيجة العوائق التى حالت دون المزيد من الهجرة الى فرنسا فقد ظلت اتجاهات ما بين الحربين قائمة مما أدى الى احتمال نقص السكان فيها من ٤١٫٢ مليون نسمة عام ١٩٤٠ الى ٤٠٫٣ مليونا عام ١٩٥٠ و ٣٩ مليونا عام ١٩٦٠ و ٣٦٫٩ مليونا عام ١٩٧٠ ٠

ولقد كانت هذه النظرة نظرة سوداوية لمستقبل فرنسا ٠ واذا تحدثنا بلغة القوة البشرية العسكرية التى تمثل عنفوان الشباب فان المسار التاريخى لعدد الذكور ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠و٣٤عاما يصور لنا التدهور المطرد لوضع فرنسا (جدول رقم ١) ٠ فعند اندلاع الحرب الفرنسية البروسية كانت لدى فرنسا وألمانيا قـوة بشرية متعادلة تقريبا من الشباب الذى بلغ سن الجندية ٠ وعند نشوب الحرب العالمية الثانية كان لدى فرنسا أقل من نصف مالدى ألمانيا من الرجال الذين يدخلون ضمن هذه المجموعة من الاعمار ٠

جدول ١
تعداد الذكور فى ألمـانيا وفرنسا
ممن تتراوح أعمارهم بين ٢٠ ـ ٣٢
(مقدرا بالمليون)

الفترة الزمنية	فرنسا*	ألمـانيا *
الحرب الفرنسية البروسية	٤ر٤ (١٨٦٦)	٧ر٤ (١٨٧١)
الحرب العالمية الأولى	٥ر٤ (١٩١١)	٧ر٧ (١٩١٠)
الحرب العالمية الثانية	٣ر٤ (١٩٤٠)	٩ر٤ (١٩٣٩)

(*) حسب مساحة أراضى كل من الدولتين فى التاريخ المذكور : والرقم الخـاص بألمانيا حسب مسـاحة أراضيها عام ١٩٣٧ هو ٣ر٨ مليونا ٠

* * *

وكان هناك بعض العزاء لفرنسا من حيث أنهـا لم تعد هى الدولة الوحيـدة بين القوى الأوروبية التى تواجـه خطر التخلخل السكانى ٠ فقد شهدت الدول الغربية الأخرى كذلك فى فترة مابعد الحرب تدهورا سريعا للغاية فى نسبة المواليد ، بل لقد كان معـدل التكاثر السنوى الخالص فى عديد من هذه البـلدان فى عام ١٩٣٠ أقل مما كان عليه فى فرنسا ٠ الا أن سكان هذه البـلدان المجاورة كانوا فى نمو مطرد ، وذلك لأن توزيع الأعمار بين سكانها كان توزيعا مواتيا ٠ فقد كان هناك تركز بين السكان للشباب ممن هم فى مقتبل العمر ـ وهو العمر الذى يحقق أعلى نسبة من المواليد ويتعرض لأقل نسبة من الوفيات ٠ وكانت دول غـرب أوروبا تشعر بجزع حقيقى

خوفا مما ينتظرها من نقص فى تعداد سكانها • فهنـــاك على سبيل المثال دراسات عن اتجاه حركات النمو السكانى فيمـا بين الحربين ، دلت على أن النمو الســكانى بدأ يتناقص فى انجلترا وويلز وأنه سيسير فى خط مواز تماما لحركة النمو السكانى فى فرنسا •

ولـكن شعوب البلدان الأخرى كانت تنــاقش منذ زمن خطر التخلخل السكانى الذى يتهددهم ، أما فرنسا فقد كان الحـديث عن هذا الخطر قد بدأ وشيكا • وأكثر من ذلك فان التدابير التى اتخذتها ألمانيا بعد عام ١٩٣٩ لاعادة تشغيل العاطلين وتشجيع النسل أدت الى ارتفاع نسبة المواليد ثانية لدرجة كبيرة •

وخلال فترة ما بين الحربين كان التخلخل السكانى مصدر جزع عام يصرح به الناس فى فرنسا علنا • واتبعت المؤسسات الصناعية فى فرنسا لأعوام طويلة نظام العلاوات الاجتماعية للأسرة ـ أى منح علاوات اضافية زيادة على أجور أو رواتب العاملين من أجل الأطفال الذين يعولونهم • وذاع هذا النظام فى فرنسا على نطاق واسع خلال فترة ما بين الحربين وكان يمثل سياسة عامة لتشجيع النســل حتى أصبح على حد تعبير أحد الكتاب بمثابة محاولة « للتعاقـد على شراء أطفال نظير دفع الثمن »(٣) • ولم تتعد قيمة العلاوة الممنوحة نسبة ضئيلة جدا من تكاليف اعالة الطفل •

وثارت ثائرة الجمـاهير تطـالب باتخـــاذ اجراءات تكفل اعفاءهم من الأعباء الاقتصادية الخاصـة بالحمـل ورعاية الأطفــال ، وبلغت ذروتها فى قانون الأسرة• ووضع هذا القانون لأول مرة نظاما شاملا للعلاوات الأسرية تشمل غالبية السكان فى فرنسا • ولكن لم

---

(٣) دافيد ف • جلاس : « الحركات والسياسة السكانية فى أوروبا » (اكسفورد ـ ١٩٤٠) ص ٣٧١ •

يكد هذا القانون يؤتى ثماره كاملة حتى اندلعت الحرب ؛ ومن ثم لم يكن له تأثير واضح بطبيعة الحال على الوضع الديموجرافى فى فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية .

- ٣ -

ليس ثمة مايثير الدهشة اذا عرفنا أن غالبية الزعماء الفرنسيين كانوا يخشون تماما اراقة الدماء فى حرب عالمية ثانية . وعندما نشهد هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ ونقل قرابة مليون ونصف مليون من الأسرى الفرنسيين الى الرايخ ، واحتلال الأعداء لفرنسا خمسة أعوام ، وزج الكثيرين من الفرنسيين الى معسكرات العمل الاجبارى ـ فاننا ينتابنا احساس بالخوف من أن يكون فى كل هذا ضربة قاضية لفرنسا كدولة كبرى .

ولقد دفعت فرنسا حقيقة ضريبة كل هذا . اذ سقط ٩٢٠٠٠ من القوات الفرنسية صرعى فى الميدان خلال معارك عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ـ وقتل أكثر من ٥٨٠٠٠ من قوات جيوش التحرير خلال الفترة من ١٩٤٠ الى ١٩٤٥ كانوا يحاربون فى شمال أفريقيا وايطاليا وفرنسا الأم وفى أماكن أخرى . ومنيت المقاومة الفرنسية بخسائر تقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ قتيل . ومات ستون ألفا من جراء الغارات الجوية ، وفقدت فرنسا أكثر من هذا العدد فى العمليات الحربية البرية والمذابح . ويقدر عدد من نفذ فيهم حكم الاعدام لأسباب متفاوتة بحوالى ٣٠٠٠٠ . ويضاف الى هذا ٢٨٠٠٠٠ ماتوا خارج فرنسا كأسرى حرب أو مبعدين لأسباب سياسية أو عنصرية أو فى معسكرات العمل بل وباعتبارهم فرنسيين سيقوا الى الفيرماخت وكان أكثر هؤلاء مواطنين فرنسيين من منطقة الألزاس واللورين التى يتحدث سكانها اللغة الألمانية .

ويضاف الى هذه الخسائر المباشرة زيادة عدد الوفيات عن عدد المواليد بحوالى ٥٥٠٫٠٠٠ خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٩٣٦ الى ١٩٤٦ . ولم تكن هذه الزيادة بأى حال من الأحوال مردها الى الحرب لقد كان عدد الوفيات قبل الحرب يزيد على عدد المواليد بحوالى ٣٠٫٠٠٠ فى السنة . ولذلك فقد كان من المتوقع أن ينقص السكان خلال العقد الذى نتحدث عنه بحوالى ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة . أو بعبارة أخرى ، يمكن لنا أن نرد الى الحرب وفاة ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة زيادة على الوفيات « الطبيعية » .

وفى حساب الموازنة الصافية بلغت زيادة الوفيات على المواليد فيما بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٤٦ بما يساوى ١١٥٠٠٠٠ تقريبا وكان ذلك نتيجة للحرب بشكل أساسى . وأمكن موازنة هذه الخسارة جزئيا عن طريق هجرة ٣٢٠٫٠٠٠ واستيطانهم فى فرنسا . وكان من بين هؤلاء حسب ما هو مقدر ٢٥٠٫٠٠٠ فرنسى عادوا الى فرنسا الأم من المستعمرات والبلدان الأجنبية . يضاف الا هؤلاء هجرة ٧٠٠٠٠ من الأجانب هجرة كاملة الى فرنسا نتيجة للظروف الاقتصادية المواتية فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، وكذلك نتيجة لهذا الفيض المتدفق من اللاجئين الأسبان الذين وفدوا الى فرنسا ابتداء من عام ١٩٣٩ . ومن المعتقد أن ما يقرب من ٢٥٠٫٠٠٠ من الأجانب ، من بينهم ١٥٠٫٠٠٠ ايطالى تركوا أرض فرنسا بسبب الحرب .

وكانت خسائر الحرب العالمية الثانية من السكان خسائر جسيمة ولكنها لم تصل الى حد الكارثة مثلما حدث فى الحرب العالمية الأولى . ومما يثير الدهشة تلك السمة التى تميزت بها الحرب الحديثة فى فرنسا وكذلك فى بلدان أوروبا الغربية وهى احتفاظ نسبة المواليد بارتفاعها رغم مشاق الحرب واغتراب أعداد غفيرة من الرجال خارج بلادهم سواء فى الجيش أو كأسرى حرب . بل وغى

أثناء الحرب ذاتها وخلال أيام الاحتلال السوداء زادت نسبة المواليد فى فرنسا عما كان مقدرا لهـــا من قبل نظريا على أساس استمرار نسبة الخصوبة قبل الحرب على ما هى عليه • واذا استشهدنا بأعوام مابين ١٩٣٩ و١٩٤٥ سنجد أنالمواليد فىفرنسا قد زادوا ٢٥٠٠٠٠ عما كان متوقعا على أساس خصوبة ماقبل الحرب• وبالمثل فان نسبة الوفيات المدنية أمكن التحكم فيها على نحو أفضل خلالالحرب العالمية الثانية •

واذا تحدثنا على أساس بيولوجى فان فرنسا خرجت من الحرب العالمية الثانية وهى في وضع أقل سوءا بكثير مما كانت عليه بعد انتصارها الفرغوسى فى الحرب العالمية الأولى • وهى من هذه الناحية لم تختلف فى كثير عن غيرها من الدول العظمى فى غرب أوروبا •• وقد كانت خسائر بريطانيا قليلة نسبيا كما كانت خسائر ايطـاليا أقل بكثير من خسائرها فى الحرب العالمية الأولى• أما الدول الصغيرة التى كانت تقف على الحياد فى الحرب العالمية الأولى فهى وحدها التى كانت خسائرها أفدح من غيرها فى الصراع الحديث بعد أن دهمتها قوات النازى عام ١٩٤٠ • ومن ناحية أخرى فاذا ما قارنا ما منيت به فرنسا بما حدث في ألمـانيا سنجد أن وضع فرنسا كان أفضل • اذ أن عدد فرنسا التليد خسر ما لا يقل عن ثلاثة ملايين ونصـف من القتلى العسكريين وما لا يقل عن ٧٠٠٠٠٠ من المدنيين لقوا حتفهم نتيجة للحرب بشكل مباشر ، ولا زال هناك عدد غير محدد من أسرى الحرب لم يعودوا الى وطنهم •

ومقاومة الشعب الفرنسى لصدمة الحرب تدعونا الى التفـاؤل بقدرة هذا الشعب البيولوجية على البقاء مستقبلا• ولقد تحققت هذه البشرى بالفعل خلال الأعـوام الأولى التى تلت الحرب • اذ كشف الشعب الفرنسى عن قدرة حيوية تثير الدهشة لتعويض خسارته •

ولقد حدث ما كان متوقعا ؛ اذ زاد عدد الزيجات زيادة ملحوظة بعد عودة أسرى الحرب واستقرار الأوضاع على نحو أفضل فى زمن السلم • اذ كان هناك نقص واضح فى عدد الزيجات خلال الحرب كما أرجئت دون شك زيجات كثيرة نتيجة سوء الأوضاع الاقتصادية عام ١٩٣٠ • وبدأت الزيجات الجديدة تتناقص منذ عام ١٩٤٦ لسبب مفهوم ، الا أن معدل الزواج ظل أعلى بكثير مما كان عليه قبل الحرب بما فى ذلك عام ١٩٤٩

وليس من غير الطبيعى أن تعقب هذه الزيادة الهائلة فى عدد الزيجات طفرة سريعة فى نسبة المواليد بعد الحرب • وواضح أن ارتفاع نسبة المواليد فى فرنسا ثانية بعد الحرب انما يرجع جزئيا الى عودة أسرى الحرب من ألمانيا وعودة من سيقوا قسراً الى معسكرات العمل واستعادة الحياة الأسرية السوية • ومع ذلك فلنا الحق فى أن نفترض وجود أسباب أخرى أكثر أهمية ، خاصة بالنظر الى القوة التى كان لها تأثيرها الفعال على فرنسا لتستعيد نسبة المواليد العالية بعد الحرب العالمية الثانية بالقياس الى وضعها بعد الحرب العالمية الأولى • فمن الواضح مثلا أن المستوى العالى لعدد الزيجات والمواليد ارتبط من ناحية بظروف العمالة الكاملة التى سادت فرنسا منذ الحرب • وثمة فارق واضح بالنسبة للوضع الذى كانت عليه فرنسا عام ١٩٣٠ • فقد عانت فرنسا بعد الحرب من عجز حاد فى القوى العاملة • وتوفرت كل أسباب الضمان الاقتصادى لكل راغب وقادر على القيام بعمل مفيد •

بل أننا قد نصل بهذه الحجة الى مدى أبعد على مستوى وجهة النظر الأيديولوجية الاساسية التي تؤمن بها الغالبية العظمى من السكان • فقد رأى الفرنسيون بأنفسهم على ضوء خبرتهم الخاصة خلال أعوام الحرب وما بعدها أفول المذهب الفردى الكلاسيكى وهو مذهب القيم الذى أعطى كل القيمة لنمو الفرد فى تعارضه مع

التأثير الغلاب للجماعة · وترتب على أسلوب الحكومة فى التخطيط والتموين والاجراءات الاجتماعية وضع نظام اجتماعى يؤكد قيما فردية وجماعية تختلف اختلافا بينا عما يقرره المذهب الفردى الكلاسيكى ·

وعلى نحو أكثر تحديدا فقد انعكس هذا التقويم الجديد للاتجاهات الأساسية فى شكل اجراءات تهدف الى زيادة الضمان الاجتماعى فى فرنسا مما أدى الى تحقيق تقدم ملموس بغية اقامة دولة تنعم بالرفاهية · واتخذ هذا التقويم بالنسبة للمشكلة السكانية شكل اجراءات تنظيمية واجراءات تشريعية · ويوجد فى فرنسا الآن ادارة على مستوى الوزارة تختص بالشئون السكانية وهى وزارة الصحة العمومية والسكان ·

واتخذت الاجراءات التشريعية كأساس لها قانون الأسرة السالف الذكر والذى صدر عام ١٩٣٩ · ويمثل نظام العلاوات الاجتماعية للأسرة أساس السياسة الفرنسية بالنسبة للسكان · ويمنح العاملون بناء على هذا النظام علاوات اضافية زيادة على أجورهم أو دخولهم نظير رعاية من يعولونهم من الأطفال · وليس من اليسير أن نعرض أسلوب تطبيق هذا النظام فى عبارة بسيطة· ذلك لأنه نظام معقد ويتفاوت تطبيقه بتفاوت المجموعات المهنية ، كما وأنه يعطى أهمية كبرى لعدد العاملين فى الأسرة ممن يحصلون على أجر مقابل عملهم · وتدفع علاوات كبيرة للطفلين الثانى والثالث · وعلى ذلك فان نظام العلاوات الأسرية يفضل الأسرة ذات الحجم المتوسط ويحبذ بدرجة أقل الأسرة التى يزيد حجمها عن ذلك · وهنا نستطيع أن نقارن هذا النظام بنظام العلاوات الأسرية المطبق فى المملكة المتحدة الذى يمنح علاوة ثابتة لكل الأطفال بعد الطفل الأول ·

ويميل الفرنسيون الى رد ارتفاع نسبة المواليد بعد الحرب الى نظام العلاوات الأسرية • ولكن من الصعب علينا أن نحصل على الدليل المباشر الذى يؤكد هذا الاعتقاد ويبدو أن الزيادة فى انجاب الأطفال « التى سادت بعد الحرب انما ترجع أساسا الى زيادة عدد الولادات الأولى والثانية والثالثة كما هو الحال فى الولايات المتحدة التى لا تطبق نظام العلاوات الاجتماعية للأسرة وأنها كانت ، بدرجة أقل ، نتيجة لوجود أسر أكبر حجما • وقد يكون من الصواب القول بأن العلاوات الاجتماعية للأسرة قـــد أسهمت فى تمكين فرنسا من استعادة نسبة المواليد المرتفعة ؛ الا أنه من المؤكد أن العمالة الكاملة والتغيرات الأساسية التى طرأت على اتجاهات الأسرة كان لها بالمثل دورها فى هذا الصدد •

المشكلة السكانية فى ألمانيا *
فى عصر التصنيع

بقلم : فولف جانج كولمان

على عكس فرنسا ونموها المبكر على أساس نظام الاسرة الصغيرة وتخلفها الصناعى بعد عام ١٨٧٠ ، وعلى عكس انجلترا بأسطولها البحرى الذى يمتد على النطاق العالمى وارتباطاتها الاستعمارية ، على عكس هاتين الدولتين سارت ألمانيا فى نموها الديموجرافى والذى كانت قسماته الرئيسية مطابقة لعديد من قسمات النمو الديموجرافى لبلدان أوروبية أخرى كثيرة حتى وان وجد فارق زمنى فى مراحل التصنيع ٠

ويقدم لنا المقال التالى أيضا بعض المعلومات التى تصلح لمقارنة الهجرة الداخلية فى أوروبا والهجرة الى ما وراء المحيط الاطلسى اللتين تتماثلان فى نواح عديدة أكثر مما هو شائع عنهما ٠

* ترجم المقال هربرت موللر واعيد طبعه عن مجلة « الجمعية الالمانية للعلوم السكانية » عدد ٣ (نوفمبر ١٩٦٢) مع حذف بعض فقراته باذن من المؤلف . نسخة طبق الاصل ١٩٦٢ بقلم دكتور فولف جانج كولمان .

فى عام ١٨١٨، أرسل أحد موظفى مقاطعة أرنسبرج تقريرا الى رئيسه حاكم مقاطعة وستفاليا البروسية ، يقول فى جانب من تقريره ما يلى : « أصبح جنون الهجرة الى أمريكا وباء متفشيا فى مقاطعتى فتجنشتين ، وهو أمر يسترعى اهتمامنا بوجه خاص ٠ فهناك أربعة عشر من أرباب الاسر و ٧١ ممن يعولونهم و ٢٤ أعزبا ، ويقدر مجموعهم ب ١٠٩ من الأنفس ، قدموا طلبات رسمية يطلبون فيها السماح لهم بالهجرة ٠ وتقدر قيمة الممتلكات المسجلة لهؤلاء والتى سيرحلون بها بحوالى ٧٥٦١ تالر من عملة برلين ، ولا يزال هناك الكثيرون ممن ينتوون السعى الى نفس المصير ٠ ويقال أن نفس هذه الافكار التى تدعو الى الشرود قد تفجرت أيضا فى مقاطعة هيس ـ دار مشتاد المجاورة ٠ حقا لقد أرسل المهاجرون الاول دعوات الى هذه المقاطعات تحمل وعودا براقة تبشر بظروف أفضل فى أمريكا ٠ الا أن السلطات المحلية ترى أن السبب الرئيسى للهجرة لا يكمن فى عمليات الاستهواء هذه وانما يكمن فى الفقر والمشاق القاسية التى يعانى منها الناس الآن فى سعيهم من أجل الرزق ٠ ولو صح هذا فان جنون الهجرة ، وهو أمر قائم على الدوام بدرجة أو بأخرى ، قد يكون سببا فى المخاوف الكثيرة التى تنتابنا فيما يتعلق بالكساد الذى تعانى منه الآن كثير من الصناعات ، خاصة اذا ما لقيت رذيلة الجشع قبولا فى نفوس الناس جميعا ٠ ومن ثم ففى رأينا أنه يجب العمل على اجتثاث هذا الشر منجذوره ٠ ويحسن بنا أن نحول دون الفقراء العاطلين وتحقيق نياتهم وسبيلنا الى ذلك أن نقدم لهم بعض المساعدة ونهيىء لهم فرص الارتزاق ، هذا اذا كان لزاما علينا أن نتحاشى كل ما من شأنه أن يكره الناس على ذلك » (١) ٠ ويعد هذا التقرير الوارد من احدى المناطق الفقيرة فى

---

(١) ارشيف رئاسة الجمهورية ـ تحت رقم ٣٥٠ ـ مجلد ١ ٠

مقاطعة وستفاليا من أول التقارير التى تشير الى تزايد الفقر فى مناطق الريف ، وربما يعبر بصدق عما كان واقعا فى مناطق واسعة فى ألمانيا ابان النصف الاول من القرن التاسع عشر .

واذا استثنينا القطاع الشمالى الشرقى من ألمانيا حيث كانت الزراعة الواسعة لا تزال قادرة آنذاك على امتصاص الزيادة فى تعداد السكان فقد ظهرت بوادر واضحة تنذر بتزايد السكان بدرجة خطيرة بحيث لم تكن الهجرة علاجا ناجعا لها ، هذا على الرغم من أن ما يزيد على ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة قد غادروا ألمانيا فيما بين عامى ١٨١٥ و ١٨٤٩ . وتفسر لنا هذه الاوضاع أسباب الترحيب بكتاب مالتوس « مقال عن مبدأ التكاثر السكانى » والذى ظهر فى ترجمته الألمانية فى وقت مبكر عام ١٨٠٧ . وتفسر لنا كذلك التشريع الخاص بقيود الزواج الذى أجازته كل من ولاية بادن وفورتيمبرج وبافاريا وهانوفر . وهذه هى أيضا المناطق التى خرج منها العدد الأكبر من المهاجرين فى أوائل القرن التاسع عشر . ومع ذلك فلا قيود الزواج ولا الهجرة استطاعت أن تخفف من حرج الموقف الذى تجلى واضحا بوجه خاص فى بؤس الصناعات المحلية القديمة وكساد التجارة بين الحرف المختلفة التى فقدت حمايتها النقابية ، كما تمثل فى حوادث الاضراب التى أثارها عمال النسيج فى سيليزيا عام ١٨٤٤ والتيارات السرية التى تعبر عن الاستياء من الاوضاع الاقتصادية وتفجرت فى ثورات ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ .

ومع ذلك فقد أمكن بفضل التصنيع تجنب كارثة سكانية ، على عكس ما حدث فى أيرلندا . فبعد عام ١٨٥٠ انتهت مسألة الفقر التى كانت هى الشغل الشاغل وحلت بدلا منها المناقشة العامة حول وضع الطبقة العاملة الجديدة . ولكن بعض الكتاب خاصة ماركس ، واصلوا استخدام الكلمة المأثورة « الفقر » وشرعوا يطبقونها على مجموعة من الوقائع . وكان لمشاكل الضغط السكانى دور ثانوى

التاريخية . ومن ثم فانها تساعد على تقديم تفسيرات تاريخية أكثر تماسكا حيث يمكن وضعها موضع الاختبار . حقا . ان البيانات أو الاحصاءات السكانية القديمة والتي يمكن ان نخرج منها بمعلومات كمية وفيرة ليست كافية الى حد كبير فى أغلب الاحوال ولا يمكن مقارنتها من حيث الدقة ببعض البيانات الحديثة المماثلة لها فى طبيعتها . الا ان هذا ليس سببا يدعونا الى الفزع وذلك ، أولا : لأن التقديرات التقريبية تفى بالحاجة فى كثير من عمليات العرض التاريخى، كما وأن الدقة الكبيرة فى التقدير الرقمى لا تؤثر فى النتائج التى نصل اليها تأثيرا يذكر . وقد يكون من دواعى الاطمئنان هنا ، أن نذكر أن الاحصاءات السكانية فى الولايات المتحدة ليست احصاءات دقيقة تماما . ففى عام ١٩٥٠ أحصى رجال التعداد ١٥٠٦٩٧٣٦١ نسمة واكتشف مكتب الاحصاء عند مراجعة هذا العدد أن حوالى ١٣٠٠٠٠٠ نسمة قد تم احصاؤهم مرتين ، وأن حوالى ٣٤٠٠٠٠٠ لم يدخلوا ضمن الاحصاء على الاطلاق . ولقد كان معدل الخطأ فى كل الاحصاءات الأوروبية السابقة على عام ١٨٥٠ يزيد كثيرا على معدل الخطأ فى احصاء الولايات المتحدة لعام ١٩٥٠ وهو ١½٪ . كما وأن أكثر الأرقام السابقة كانت تقوم على أساس احصاءات متميزة للأفراد أو الأسر . ومن ثم فان الارقام القديمة لتعداد السكان تخضع لعامل خطأ كبير ، فضلا عن أنها تفتقد تماما فى أغلب الأحيان أهم البنود النوعية للمعلومات التى يجمعها الآن رجال الاحصاء المحدثين . ومع ذلك فان البحث المحلى سيساعدنا ، وسوف يساعدنا بكل تأكيد ، على اكتشاف كثير من البيانات الديموجرافية الهامة .

ثانيا : فان المواد التى نحصل عليها حتى وان كانت غير وافية فقد تكون لها قوة توكيدية ــ اذا ما أمكن تعزيز كل ما قد تتضمنه هذه المواد ببيانات مستقلة . ومن ثم ، وعلى هذا النحو فان عدد السكان فى مرحلة تاريخية معينة ، وفى منطقة معينة ،

الحركة اذا عرفنا أنه من بين ٦٠ر٤ مليون ألمانى فى عام ١٩٠٧ ، كان نصفهم فقط على وجه التقريب ، أو ٣١ر٤ مليونا ، يعيشون فى موطنهم الأصلى · ومن بين ٢٩ مليون نسمة ، وهم عدد من نزحوا عن موطنهم الأصلى ، انتقل أكثر من ثلثهم ، أى حوالى ٨ر٩ مليونا ، الى مسافات بعيدة فيما وراء حدود المقاطعات أو الولايات التى نشأوا فيها ·

وكان التحضر هو أهم النتائج المترتبة على هذه الحركة المكانية الهائلة · ويقدر عدد السكان الالمان الذين يقطنون مناطق يقل عدد سكانها عن ٥٠٠٠ نسمة بما يعادل ٧٦ر٣٪ عام ١٨٧١ و ٥١ر٢٪ عام ١٩١٠ و ٤١ر٧٪ عام ١٩٣٩ وذلك فى مقابل المدن التى يزيد تعداد سكانها عن ١٠٠ر٠٠٠ نسمة ، اذ كانت تمثل ٤ر٨٪ عام ١٨٧١ و ٢١ر٢٪ عام ١٩١٠ و ٣٢٪ عام ١٩٣٩ · والسبب الاول لعملية التحضر هذه هو نمو الاقتصاد الصناعى حتى وان بدت لنا بعض المدن وكأنها تتميز بوظائف أخرى مختلفة ، كما هو الحال بالنسبة لبعض المراكز الادارية أو المدن البحرية ·

ويرجع التباين الشديد فى البنية الاجتماعية للمجتمع الصناعى الى حد ما الى تأثير العوامل السكانية · اذ يتميز المجتمع الصناعى بالقدرة على الحركة الاجتماعية أكثر مما هو الحال بالنسبة للمجتمعات التقليدية ، كما وأنه يمكن التغلب فيه بسهولة أكبر على الحواجز الاجتماعية · ومع ذلك فليس ثمة علاقة بين الهجرة والبنية الاجتماعية · ونخطىء اذا ما افترضنا ان الأهمية الاجتماعية للهجرة الداخلية تتمثل فقط فى انتقال الزائد عن الحاجة من سكان الريف فى الأقاليم الى الشريحة الدنيا للمجتمع الصناعى · حقا ان هذا الكلام يصدق بالنسبة لقطاع هام من المهاجرين الداخليين ويصدق كذلك بشكل قاطع تقريبا بالنسبة للتحركات بعيدة المدى

من الشمال الشرقى لألمانيا الى برلين ومنطقة الرور · ففى عام ١٩١٠ كان يوجد فى منطقة برلين - براند نبرج طبقا لتقـديرات موثوق بها ، ١٩٨٣٠٠٠ نسمة ، موطنهم الأصلى شرق ألمانيا ، كما كان يوجد فى منطقة الراين - وستفاليا (وتشمل منطقـة الرور) ٨١٠٠٠٠ نسمة نزحوا اليها من نفس ذلك الموطن · الا أن الاحصاء المهنى والتجارى فى ألمانيا لعام ١٩٠٧ ، وهو المصدر الوحيـد لدينا عن معامل الارتباط الاحصائى بين الهجرة الداخلية والبنيـة الاجتماعية ، يعطينا نتيجة مثيرة · اذ أن العمال وأصحاب الياقات البيضاء والموظفين الحكوميين وأصحاب المهن الحرة يمثلون نسـبة عالية بين المهاجرين الداخليين فى المدن الكبرى وهى أعلى من نسبة أهل المدن الاصليين · ويشير هذا الى وجود رابطة وثيقة بين الهجرة الداخلية وارتفاع القدرة على الحركة الاجتماعية خاصة بالنسـبة للأفراد المدربين تدريبا عاليا(٣) ·

وينبغى علينا ألا نغض من قيمة العبء العاطفى الذى يثقـل نفس المهاجر حين ينتقل الى مكان غريب يختلف اختلافا كليا عن بيئته الأصلية ولا يجد فيه الوافد الجديد غير القليل من المساعدة · وكانت عملية التمثل تقتضى عادة فترة طويلة تمتد الى أكثر من جيل وتكون حصيلتها فى النهاية نمطا بشريا جـديدا يتسم بالطابع الحضرى الصناعى · وتقدم لنا منطقة الرور ، وهى أكبر منطقـة المتجمع الصناعى فى ألمانيا ، أصدق مثل لهذا التطور · اذ نجـد هنـاك طرازا اقليميا جديدا من الألمـان ، وهو رورفولك (شعب

---

(٣) اذا شاء القارىء أن يتزود بالبيانات الخاصة عن ذلك والتى تدعم هذا العرض الموجز الذى أسلفناه ، يمكنه الرجوع الى كتـاب فولف جانج كولمان : « مشكلة التصنيع والهجرات او تاريخ نشاة المدينة الصناعية الالمانية فى القرن ١٩ » نشرة ربع سـنوية (التاريخ الاقتصـادى والاجتمـاعى ١٩٥٩) ص ٤٥ - ٧٠ ·

الرور) الذى نشأ من جماع الخصائص الســـلالية لشرق وغرب ألمانيا (١) وعلى الرغم من أن بعض مناطق الهجرة تعرضت لتطورات مماثلة الا أن العناصر الفطرية الخاصة بالوطن الأصلى ظلت ، كقاعدة عامة محتفظة بتمايزها الخاص · وغالبــا ما كان الوافدون يعملون من ناحيتهم على الاحتفــاظ ببعض الروابط التى تربطهم بموطنهم الاصلى · وجماع القول أن هذه الهجرات الداخليـــة ساعدت على تكامل المناطق المختلفة فى ألمانيا والتى توحدت سياسيا عام ١٨٧١ فى دايخ بسمارك · ويمكن اعتبار هذه التحركات واحدة من أهم القوى المؤثرة فى تطور الوعى القومى الالمانى المتميز فيما قبل الحرب العالمية الاولى ·

ويمكن تقسيم الهجرات الألمانية الداخلية الى مرحلتين متمايزتين· استمرت المرحلة الاولى حتى عــــام ١٨٨٠ ، وتميزت بالتحركات القصيرة المدى التى كانت سائدة آنذاك ، كما تميزت بجاذبية المدن المجاورة · وخلال هذه المرحلة لم يكن للهجرة الطويلة المدى شأن خطير فيما عدا الهجرة الى برلين · وبعد عــــام ١٨٩٠ اكتسبت الهجرة الطويلة أهمية كبيرة على نطاق ألمانيا كلها · وكان أوضح مظاهرها الحركة الكبرى من الشرق الى الغرب · وارتبطت هـــذه الحركة الطويلة داخل ألمانيا بالهجرة الالمانية الى أمريكا · فمن بين ٥ر٣ مليون نسمة هاجروا من ألمانيا فيما بين عامى ١٨٦١ و ١٩١٤ غادر البلاد ٣ مليون قبل عام ١٨٩٥ أى قبــل أن تتجمع القــوة الدافعة للحركة الداخلية فى ألمانيا · وأكثر من ذلك فقبل عـــام ١٨٩٠ كان ما يقرب من ٤٠٪ من مجموع المهاجرين الالمان هم من سكان شمال شرق ألمانيا حيث توقف التوسع الزراعى هناك · وكان

---

(٤) فيلهلم بريبول « تحــــول ســـكان منطقة الرور من عمال زراعيين الى عمال صناعيين » .. (توبنجن ــ مور ١٩٥٧) .

هذا الاتجاه الجديد للهجرة الالمانية الوافدة من الشـــمال الشرقى مشروطا بشكل مباشر بعبور الحدود فى الولايا المتحدة · ولما توقفت آمريكا عن اتاحة الفرصة للوافدين الجدد ممن لا يملكون رأس مال لمواصلة العمل حسب نمط الحيـاة الريفية ، لم يبق أمام أولئك الذين ينتظرون الهجرة سوى احدى اثنتين : اما الصناعة الأمريكية أو الصناعة الالمانية · ويبدو أن هذا الموقف هو المسئول عن تحول تيار الهجرة الذى كان يزمع الاتجاه الى الخارج من قبل واضيف الى التحركات التى نمت داخل ألمانيا ، وأدى بوجه خاص الى تضخم تيار الهجرة الواسعة من شرق ألمانيا الى غربها · وجدير بالذكر أن نسبة كبيرة من المهاجرين من الشرق الى الغرب كانوا ممن يحملون الجنسية البولندية · ويقدر عدد السكان البولنديين الذين كانوا يعيشون فى منطقة الرور عشية الحرب العالمية الأولى بما يتراوح بين ٢٥٠٠٠٠ و ٤٥٠٠٠٠ (٥) ·ا الا أن غالبية هؤلاء البولنـديين اما أنهم عادوا ثانية الى بولندا بعد الحرب أو نزحوا الى مناطق مناجم الفحم فى الشمال الشرقى لفرنسا ، وبذلك حلت مشكلة التمثيل الاقليمى فى منطقة الرور على نحو أيسر بكثير مما كان متوقعا ·

وحتى عام ١٩٠٠ تضاعف السكان فى ألمانيا الى ثلاثة أمثال ما كانوا عليه عام ١٨٠٠ وتبرز أهمية التصنيع اذا عرفنا أن بوادر التضخم الســـكانى التى كانت مثـار قلق شديد فى أوائل القرن التاسع عشر قد اختفت تماما وأصبح فى ألمانيـــا فيما بين عامى ١٨٩٥ و ١٩٠٥ على أقل تقدير فائض طفيف من المهاجرين اليهـــا يزيد عن عدد المهاجرين منها · وكشف الاحصاء المهنى لعام ١٩٠٧

---

(٥) هانز الريتش فيلر : « البولونيون فى منطقـــة الرور حتى ١٩١٨ » نشرة ربع سنوية « مجلة التاريخ الاقتصادى والعلوم الاجتماعية » · (١٩٦١) ص ٢١٣ ــ ٢٣٥ ·

عن أن ٤٢٪ من السكان الذين يعملون أعمالا مربحة كانوا يمثلون عناصر نشطة فى الصناعة والحرف المختلفة مقابل ٢٨٪ فقط كانوا يعملون بالزراعة وقطع الاخشاب · وهـــكذا أصبحت المانيا أمة صناعية ، بل كانت حقيقـــة أكثر أمم القارة تقدما فى ميــــدان الصناعة

وطرأ على البيئة الديموجرافية لألمانيا بعض التغيرات الأساسية أسوة بما حدث فى كل البلدان الصناعية الاخرى · وأول هـــذه التغيرات ان طالت نســبة الأعمار ، وكان من أهم العوامل الحاسمة انخفاض نسبة الوفيات بين المواليد والاطفال ، وهو السبب الرئيسى فى الزيادة الكبيرة فى السكان · وثمة تغير واضح وهو اختفـــاء الأوبئة الخطيرة عدا الكوليرا التى كانت لا تزال تتفشى بشكل دورى فى القرن التاسع عشر الى أن تفشت بشـــكل رهيب فى هامبورج عام ١٨٩٢ وكانت هذه هى آخر مرة لها · أما التغير الديموجرافى الآخر والخطير فهو انخفاض نســـبة المواليد والذى بدأ فقط فى السبعينيات فى القرن التاسع عشر ، واستمر بعد ذلك ولكنه كان يتفاوت تفاوتا كبيرا بين الطبقات والاقاليم المختلفة · وحدث هذا التغير نتيجة تغير موقف الأسرة فى مجتمع صناعى بلغ درجة عالية من التطور · وكانت الزيادة فى تعداد السكان فى المرحلة الاولى من التصنيع تمتص جل الزيادة فى الانتاج مثلما كان الوضع فى عصور ما قبل التصنيع · وعندما تحول سكان الريف الى الاعمال الصناعية نقلوا معهم الى المدينة تقاليدهم الاسرية · وظلت نسبة المواليـــد لعشرات من السنين أعلى بكثير من المتوسط العـــام فى الدولة فى مراكز التصنيع الاولى مثل مدينتى بارمن والبرفيلد · وكانت غالبية الوافدين من الاقاليم هم من الشباب ممن وجدوا الفرصـــة أمامهم متاحة للزواج وتكوين أسرة ، ولم يتيسر لهم ذلك الا بعد الاشتغال فى وظائف صناعية ·

وتنخفض نسبة المواليد عادة نتيجة لعمليات اجتماعية معقدة · فاذا كانت الاسرة هي الوحدة الانتاجية في الاقتصاد الزراعي والحرفي فانها تفقد وظيفتها هذه في الاقتصاد الصناعي الذي يقوم على أساس مشاريع صناعية ضخمة · فلم يعد الاطفال هنا « بركة » تعم خيراتها بل سببا يحد من الاستهلاك والفراغ · بل وأكثر من ذلك ، فكلما زاد عدد الاطفال في الاسرة كلما قلل ذلك من الفرص المتاحة أمام الآباء لتحقيق تقدم مهني أو اجتماعي بل ومن التقــدم الاقتصادي الاجتماعي للأطفال أنفسهم ولعل هذا هو الأهم · وبدأت الطبقـات الاجتماعية المختلفة تستجيب لهذا الموقف على فترات مختلفة · فأول من عمل على تحديد الاسرة كانت الطبقات الراقية وبخاصة الشرائح المتوسطة التي تكونت حديثا في المجتمع الصناعي · وكانت‌الشرائح المتوسطة احدى اثنتين : اما عناصر أضيرت بوجه خاص نظرا لأنها امتداد للطبقة المتوسطة القديمة من الحرفيين والتجار الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص وحاولوا أن يحتفظوا بوضعهم التقليدي ولكن كانت لهم خسائرهم في مقابل ذلك ، واما عناصر تنتمي الى الطبقة الجديدة من العمال المدربين أو المهنيين من ذوي الياقات البيضاء وكان عليهم أن يكابدوا لينتزعوا لأنفسهم مكانة اجتماعية وسط مجتمع صناعي (٦) ·

وبدأت الطبقة العاملة تتجه الى تحديد الاسرة في وقت متأخر عن الشرائح المتوسطة ، ولكن كان يوجد داخل الطبقة العاملة فوارق اجتماعية أدت الى التعجيل أو تأجيل قبول القيم الاسرية الجديدة ·

---

(٦) يجد القارىء تحليلا فذا وعميقـا للدوافع التي أدت بالطبقـات الوسطى في العصر الفيكتوري في انجلترا الى تحـديد الاسرة في الدراسـة التي قام بهـا ج . أ . بانكس : « الرخاء والعلاقة الابوية » · (لندن : روتليدج وكيجان بول ليمتد ــ ١٩٥٤) ·

(ملاحظة بقلم المشرف على اصدار الكتاب) ·

وكانت الدعاية الاشتراكية واحدة من أهم العوامل المؤثرة فى هـذا الصدد • فثمة دراسة عن انخفاض نسبة المواليد صدرت فى أوائل عام ١٩١٢ اتضح منها أن هناك علاقة سلبية فى الدوائر الانتخابية بين نسبة الأصوات الاشتراكية ونسـبة المواليد(٧) • ومن ثم فقد بدأت نسبة المواليد تنخفض بسرعة كبيرة فى المدن الكبرى بعد فترة تاريخية معينة • اذ كانت نسبة المواليد فى برلين على سبيل المثال فى أعوام ١٨٧٥ ـ ١٨٨٠ تعادل ٤١ر٦ لكل ألف من السكان ، وهى أعلى من المتوسط العام فى ألمانيا الذى كان آنذاك ٣٩ر٣ • ولكن انخفضت نسبة المواليد فى برلين الى ٢٣ فيما بين عامى ١٩٠٦ ـ ١٩١٠ بينما كان المتوسط العام فى ألمانيا ٣١ر٧ •

وظلت هذه الاتجاهات سائدة الى ما بعد الحرب العالمية الاولى رغم بعض المؤثرات الطارئة التى نجمت عن خسائر الحرب ـ وأثرت تأثيرا مباشرا فى التطـــور الديموجرافى ـ وكانت خسائر الحرب حوالى ٢ر٤ مليون فى الحرب العالمية الاولى وحوالى ٧ر٢ مليون فى الحرب العالمية الثانية ونظرا لأن هذه الخسائر من السكان كانت فى الاساس من الشبان الذكور فقد نقص عـــــدد العناصر النشطة اقتصاديا بدرجة خطيرة بينما زاد لدرجة كبيرة عدد كبار السن • هذا فضلا عما لحق بالقدرة التناسلية من أضرار بسبب ذلك • وفى عام ١٩٣٣ بلغت نسبة المواليد الحد الادنى لها وهـــو ١٤ر٧ فى الالف • وبدأت نسبة المواليد فى الارتفاع منذ ذلك الوقت فصاعدا فى عهد هتلر وبلغت ٢٠ر٤ فى الألف فى عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٠ • ولكن يبقى سؤال بعد ذلك هل كان هذا الارتفاع نتيجة للسياسة المحمومة التى اتبعتها الحكومة لتشجيع انجاب الاطفال أم كان نتيجة

---

(٧) جوليوس وولف : « تدهور نســـبة المواليد » فينا ـ جـ • فيشر ١٨١٢ ص ١٤٧ •

لتوفر ظروف أفضل للعمالة بعد زوال فترة الكساد الخطير والتى أرجأ فيها الكثيرون زواجهم أو أنهم على الأقل أرجأوا انجاب الأطفال ؟ الا أن أيا من التفسيرين يوحى بأن الناس عالجوا مشكلة التناسل بطريقة واعية . وجاء ذلك أيضا نتيجة لما حدث من تقدم بعد الحرب العالمية الثانية . وظلت نسبة المواليد ثابتة كما هى لعشر سنوات تدور حول ١٦ر٠ . وبعد عام ١٩٥٥ بدأت ترتفع تدريجيا ببطء وثبات حتى بلغت ١٨ر٢ عام ١٩٦١ . وهنا وللمرة الثانية يبرز أمامنا تفسيران بديلان : ترى هل كان ارتفاع نسبة المواليد نتيجة تعويضية لعمليات الارجاء السابقة ؟ أم أن السكان فى مجتمع صناعى ناضج يمتصون جانبا من الزيادات الضخمة فى الانتاج عن طريق تكوين أسر كبيرة ؟

ونعود أخيرا الى حركات الهجرة التى تأثرت تأثرا عميقا بالتغيرات الاجتماعية الواسعة التى حدثت خلال الخمسين عاما الماضية . ونستطيع هنا أن نمايز بين فترات أربعة :

أولا ـ عادت من جديد ، بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الاولى ، حركة الهجرة الداخلية المتجهة من الشرق الى الغرب واستمرت حتى منتصف العشرينيات . وفى نفس الوقت هاجر كثير من الالمان الى داخل ألمانيا وكانت أيضا هجرة من الشرق الى الغرب ، وكان أكثرهم يفدون من الاراضى التى تنازلت عنها ألمانيا لبولندا . ونضيف الى ذلك أن جانبا من المتحدثين باللغة الالمانية ممن استوطن أجدادهم شرق أوروبا وجنوبها ، بدءوا يعودون ثانية الى ألمانيا مثل من عادوا من بلدان بحر البلطيق ورومانيا . وبلغ عدد الالمان الذين انتقلوا من شرق أوروبا الى ألمانيا حتى عام ١٩٢٥ بما يساوى ١ر١ مليون نسمة .

وامتدت الفترة الثانية من ١٩٣٩ الى ١٩٤٤ ، وتتألف من حركتين نظمتهما ودعت اليهما الحكومة الهتلرية . فقد استوطن

حوالى ٩٥٠٠٠٠ من سكان شرق أوروبا الذين هم من أصل ألمانى داخل حدود الرايخ الالمانى بعد توسعه خلال عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤٠ وفى نفس الوقت فان حوالى ٥٠٠٠٠٠ من المواطنين الألمـــان وفدوا من الاراضى الألمانية التى كانت تابعة لالمانيا قبل الحرب واستوطنوا الأراضى التى انتزعت من بولندا ٠

وتبدأ الفترة الثالثة بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالميـــــة الثانية ٠ وخلال هذه الفترة فر وأبعد الكثيرون من الاراضى الالمانية الواقعة شرق حوض الاودر ـ نيس ٠ كما فر وأبعد كل الاوروبيين الشرقيين الذين هم من أصـــل ألمـانى الذين كانوا يقيمـــون فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا والمجر ويوغوسلافيا ٠ وقدر عدد المنفيين فى المانيا الاتحادية وبرلين الغربية عام ١٩٥٠ بحوالى ٨ مليون نسمة كما قدر عددهم فى منطقة الاحتلال السوفيتية وبرلين الشرقية بحوالى ٩ر٣ مليونا ٠ وأدى هذا الى تجدد حركة الانتقال داخل ألمانيا من الشرق الى الغرب ٠ وخلال الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ نزح ما يقرب من ٣ر١ مليونا من منطقة الاحتلال الشرقية الى مناطق الاحتلال الغربية واقتفى أثرهم ١ر٢ مليونا ابتداء من عام ١٩٤٨ حتى تاريخ اقامة سور برلين ٠ ومع عام ١٩٦٠ أصـــبح ١٨٪ من سكان ألمانيا الاتحادية وأطفالهم من المنفيين (٨) ٠

ويمكن اعتبار الفترة الرابعة هى الفترة التى تكامل فيها عدد المنفيين رغم تداخلها مع الفترة الثالثة ٠ واستطاعت ألمانيا الاتحادية

---

(٨) بيتر بول نام : « المهاجر والمنفى » قاموس الجيب للعلوم الاجتماعية ٠
(اكثر المؤلفات شمولا عن المهاجرين والنازحين هو كتاب جوزيف ب ٠ سيكتمان) « الانتقال السكانى فى اوربا بعد الحرب » ١٩٤٥ ـ ١٩٥٥ ٠ (فيلا دليفيا : مطبعة جامعة بنسلفانيا ـ ١٩٦٢) ٠
(ملاحظة بقلم المشرف على اصدار الكتاب ٠)

أن تمتص بسهولة نسبيا هذه الملايين من البشر. ويرجع ذلك أساسا الى عمليات التعمير الاقتصادى فى ألمانيا الاتحادية التى تضم الآن ٥٥ مليونا من البشر ، أى زيادة عن سكانها عام ١٩٣٩ بحوالى ١٦ مليونا . ويوفر اقتصادها فرص العمل الكاملة للقوى العاملة بها . ونظرا لأنه من المتوقع ألا تكون الزيادة السكانية سوى زيادة بطيئة فان التوسع الصناعى فى المستقبل يستلزم سياسة ادارية واعية وحريصة على توفير العدد اللازم من العاملين ، على عكس سياسة تبديد القوى العاملة فى المرحلة الاولى من التصنيع .

وجدير بالذكر أن المجتمع الصناعى قد كشف عن قدرة ملحوظة على تحقيق التكامل بين السكان والتى ثبت أنها أقوى بكثير من روابط الحماية ذات الطبيعة الاقليمية والتقليدية . وتجلى ذلك واضحا فى عمليات الاختيار السياسية التى قام بها المقترعون الالمان فى الانتخابات الأخيرة . فقد أمكن التغلب على قوى الممانعة التى تدعو الى التمايز الاقليمى وذلك تحت ضغط الحركات الديموجرافية الكبيرة والتى أدت الى خلق أمة ألمانية بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة . ومع ذلك بات محتملا الآن أن الاتجاه القومى المحموم الذى ظهر خلال تلك الفترة ذاتها قد أصبح فى عداد الموتى .

السكان فى الاتحاد السوفييتى اليوم *

دراسة تحليلية للنتائج الأولية للإحصاء عام ١٩٥٩

بقلم : وارين إيزون

يعكس لنا الاحصاء السوفيتى لسكان عام ١٩٥٩ صورة لدراما تشيع فى النفس الخوف والرجاء معا ، وهى دراما المعاناة البشرية والبقاء · وهو شاهد كذلك على التغيرات السلوكية العميقة التى تحدث فى المجتمع السوفيتى · فضلا عن أنه يكشف لنا عن الحدود التى يفرضها الاساس الديموجرافى والتى ترى الحكومة السوفيتية نفسها مضطرة الى أن تضعها موضع الاعتبار عندما تتخذ قراراتها السياسية سواء على الصعيد المحلى أو العالمى ·

– ١ –

ظل المحللون الغربيون للشئون السوفيتيـــة طوال العشرين عاما الماضية يعانون بين الحين والآخر من ندرة المعلومات الاحصائية

---

* عن مجلة الشئون الخارجية ـ ٣٧ ـ العدد الرابع ـ يوليو ١٩٥٨ ـ ص ٥٩٨ ـ ٦٠٦ ـ مع حذف بعض فقراتها باذن من الكاتب وهيئة تحرير مجلة الشئون الخارجية · نسخة طبق الاصـــل ـ ١٩٥٩ ـ من مجلس العلاقات الخارجية ·

الرسمية عن السكان فى الاتحاد السوفيتى . وها قد بدأ يواتيهم الغوث الذى طال انتظارهم له .

وثمة حقيقة تبرز من بين كل البيانات التى وصلت الينا . فقد كانت خسائر السوفييت فى الارواح خلال الحرب العالمية الثانية أفدح بكثير مما كنا نتصور . والحقيقة أن عدد الوفيات بين الذكور من السكان يكاد يدير رؤوسنا . ولكن قبل أن نتم حديثنا عن هذه النقطة ، نلقى أولا نظرة الى البيانات التى وصلت الينا ونناقش فى ايجاز نصيبها من الصحة .

تشير الدلائل الاولية للاحصاء الى أن المجموع الكلى للسكان هو ٢٠٨٫٨٠٠٫٠٠٠ نسمة ، يمكن توزيعهم على النحو التالى :

ذكور	٩٤٠٠٠٠٠٠
اناث	١١٤٠٠٠٠٠٠
سكان الريف	١٠٩٫٠٠٠٠٠٠
سكان الحضر	٩٩٫٠٠٠٠٠٠

ولدينا بالاضافة الى ذلك تعداد سكان الريف والحضر فى كل جمهورية على حدة من خمس عشرة جمهورية وتقسيماتها الادارية (اقليم ومقاطعة ودائرة انتخابية) وعدد مناطق الحضر بأنماطها المختلفة وسكانها ، وكذلك سكان العواصم التى تمثل مراكز الأقسام الادارية وفروعها وكذلك المدن التى يزيد تعداد سكانها على ٥٠٠٠٠ نسمة . ويعرض لنا التعداد احصاء غير وارد فى النتائج الأولية . عن فئات الأعمار والجنسية واللغة والتعليم ووضع الأسرة والتصنيف الاجتماعى ومصادر الكسب والمهنة حسب فروع الصناعة .

اذا كان المجموع الكلى لسكان الاتحاد السوفيتي هو ۲۰۸٫۸۰۰٫۰۰۰ حتى عام ۱۹۵۹ فان هذا يكشف لنا كما ذكرنا عن مدى الخسارة التى لا تصدق فى الأرواح خلال الحرب العالمية الثانية • حقا لقد كنا متنبهين لمثل هذا الاحتمال بعد صدور نشرة رسمية تقدر تعداد السكان ب ۲۰۰٫۲۰۰٫۰۰۰ نسمة حتى أول أبريل عام ۱۹٥٦ • بيد أن هذا المجموع الكلى يزيد زيادة طفيفة عن تعداد ۱۹٤۰ ـ ۱۹٤۱ ، والذى لا يستند الى مصادر اعلامية مختصة بالاحصاء ويشوبه ضعف احصائى واضح • وقد شعر عدد من رجال الاحصاء السوفييت أن تعداد ۱۹٥۹ سيبين ، ان كان ثمة ما يدل عليه ، أن العدد الكلى للسكان أعلى من ذلك بقليل ، وبالتالى فان خسائر الحرب الرهيبة ستكون أقل • والحقيقة هى أن المجموع الكلى للسكان حسب ما هو وارد فى تعداد ۱۹٥۹ يقل عما يوحى به تقدير ۱۹٥٦ بحوالى ۱٫٤۰۰٫۰۰۰ مع احتساب الزيادة الطبيعية فى السكان خلال الشهور الفاصلة بين التقديرين •

ان « خسائر الحرب » التى تشير اليها أرقام التعداد السكانى غير دقيقة تماما وذلك لما يلى : أولا ـ لأن الجهد اللازم لاعادة افتراض ما كان مقدرا له أن يحدث لو لم تكن هناك حرب أمر موضع فروض تختلف عن بعضها اختلافا بينا للغاية فيما يتعلق بنسبة المواليد ، ثانيا : لأن التأثير الكلى للحرب على نمو السكان يتطلب مرور أجيال عدة حتى يظهر أثره بالكامل ، ومع ذلك فلو أننا قصرنا حديثنا على فترة الحرب والأعوام التى تليها مباشرة وحاولنا أن نقدم فروضا مبسطة فيما يتعلق بنسبة المواليد والوفيات على فرض أن الحرب لم تقع سنجد أن مجموع الأشخاص الذين كان

يمكن ألا يموتوا بالاضافة الى من كان يمكن أن يولدوا يقـــارب ٢٥٠٠٠٠٠٠ نسمه .

هذا التقدير للمجموع الكلى لخسائر الحرب والذى لا يستقر على وضع محدد مصدره الاعتبارات التالية : ـ

١ ـ يقدر تعداد سكان الروسيا حتى أول يناير ١٩٤٠ قياسا الى تعدادهم بعد الحرب مـع استثناء الاشخاص الذين هاجروا من الاتحاد السوفيتى بعد ذلك بحوالى ١٩٤٫٠٠٠٫٠٠٠ (١) .

٢ ـ ويمكن تقدير السكان بعد عشر سنوات ابتداء من أول يناير ١٩٥٠ بحوالى ١٧٩٫٠٠٠٫٠٠٠ وهكذا يقدر النقص فى عدد السكان بحوالى ١٥ مليونا فيما بين ١٩٤٠ و ١٩٥٠ (هـذا عدا النقص الذى حدث نتيجة الهجرة الى الخارج وتعديل الحدود) . ولقد كان النقص فى تعداد السكان خلال أعوام الحرب نفسها أضخم من ذلك من ٢٠٠ مليون فى أول يناير ١٩٤١ الى حوالى ١٧٠ مليونا عام ١٩٤٥ .

٣ ـ كان من المقدر ، لو لم تنشب الحرب ، أن يصبح تعداد السكان حوالى ٢٢٤ مليونا عـام ١٩٥٠ وقـد كان ١٩٤ مليونا عام ١٩٤٠ . معنى هذا أن نفترض حدوث نقص حاد نسبيا فى نسـبة المواليد عن المستوى العالى الذى كانت عليه قبـــل الحرب وهو ٣٨ فى الألف حسب ما هو مقرر لعام ١٩٣٨ . ويتسق هذا الفرض مع المستويات الفعلية التى تحققت عام ١٩٥٠ كما يتسق مع التقديرات

---

(١) الهدف من استبعاد المهاجرين هو أن نحصر المقارنة ببيانات ما بعـد الحرب فى حدود أثر تغير نسب المواليد والوفيات . والمصادر التى استقينا منها هذه البيانات الواردة فى المقال وغيرها هى ، علاوة على تعداد ١٩٥٩ كتاب و . و . ايزون «القوة البشرية السوفيتية : السكان والقوى العاملة فى الاتحاد السوفيتى» وهى رسالة دكتوراة مودعة بمكتبة جامعة كولومبيا .

الفرضية التى قدمها لوريميز على ضــوء الوضع فى الدول النامية الاخرى · هذا مع افتراض أن نســبة الوفيات كان لا بد لهـا وأن تنخفض فيما بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٥٠ لو لم تحدث الحرب أسوة بما حدث فى البلدان الاخرى (٢) ·

واذا قارنا المجموع الكلى الفعلى للسكان فى عام ١٩٥٠ وهــو ١٧٩ مليونا بالمجموع الكلى الفرضى وهو ٢٢٤ مليونا اذن معنى هذا أن خسائر الحرب تقدر بحوالى ٤٥ مليونا · ويمكن توزيع هــذا الرقم بين من كان يمكن أن يولدوا ومن كان يمــكن ألا يموتوا على النحو التالى :

١ ــ يمكن تقدير عدد السكان ممن لم تتجاوز أعمارهم التاسعة فى عام ١٩٥٠ بحوالى ٣٠ مليونا بينما يقدر عدد السكان من هذه السن لولم تحدث حرب بحوالى ٥٠ مليونا · معنى هذا أن عــدد الأشخاص الذين لم يولدوا أو ماتوا وهم أطفال نتيجة للحرب بحوالى ٢٠ مليونا ويدل هذا على حدوث نقص فى نسبة المواليد أو زيادة فى نسبة وفيات الاطفال أو كليهما معا خلال أعوام الحرب ذاتهــا تقدر بما يزيد على ٥٠٪ ·

٢ ــ اذا طرحنا عدد الفئة التى تتراوح أعمارها بين صفر ــ ٩ من المجموع الكلى للسكان لعام ١٩٥٠، يتبقى لنا ١٤٩ مليونا ، وهو عدد من بلغوا العاشرة من عمرهم وما فوقها · ويمثل هذا الرقم عدد من بقوا على قيد الحياة بعد الحرب من بين ١٩٤ مليونا ، هم عدد الأحياء فى أول يناير ١٩٤٠ · معنى هذا أن حوالى ٤٥ مليون نسمة لقوا حتفهم بالفعل خلال الأعوام العشرة السابقة على عام ١٩٥٠ ، بينما كان المتوقع أن يكون عددهم حوالى ٢٠ مليونا على أســاس نسبة

---

(٢) النسب المشار اليها فى هــذه الافتراضــات مأخوذة عن كتاب ف · لوريمر : « السكان فى الاتحاد السوفيتى : تاريخ وتوقعــات للمســتقبل · » (جنيف : عصبة الامم ــ ١٩٤٦) ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ ·

المواليد المفترضة سابقا . وبعبارة أخرى فقد كانت الحرب مسئوولة عن موت حوالى ٢٥ مليون نسمة من بين من كانوا أحياء من السكان عام ١٩٤٠ . ويجب أن نضيف الى هذا الرقم ٢٠ مليونا وهو عدد من لم يولدوا ، أو عدد من لم يحيوا طفولتهم بسبب الحرب .

ولكن سنرى أن هذا التقدير الاجمالى لخسائر الحرب والبالغ ٤٥ مليونا سيقل عندما توزعه على أساس اختلاف الجنس . فتعداد السكان حسب احصاء عام ١٩٥٩ هو ٠٠٠ ٨٠٠ ١١٤ من الاناث و ٩٤ مليونا من الذكور . ويشير بذلك الى وجود عجز مطلق بين الذكور يقدر بحوالى ٠٠٠ر٨٠٠ ٢٠ . ويمكن مقارنة هذا بعجز آخر مقداره ٠٠٠ر٧٠٠ حسب احصاء عام ١٨٩٧ و ٥ ملايين عام ١٩٢٦ و ٠٠٠ر٢٠٠ر٧ عام ١٩٣٦ . واذا قارنا هذه الزيادة المطردة فى العجز من الذكور بالفترة السابقة على النظام السوفيتى فانها تعيد الى الأذهان الأحداث التالية على الترتيب : الحرب العالمية الأولى، الحرب الأهلية ثم فترة التجميع الزراعى وفترة العجز فى المواد الغذائية فى أوائل الثلاثينيات وأخيرا الحرب العالمية الثانية .

وفى نفس الوقت فان الزيادة فى العجز بين الذكور والتى حدثت من جراء الحرب العالمية الثانية تتجاوز كثيرا كل ما كان يمكن أن نتوقعه . وثمة مصادر وتصورات عديدة ومتميزة تعطينا تقديرا متساهلا نسبيا لعدد الذكور الذين قتلوا أثناء الخدمة العسكرية كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة للحرب ويقدر بحوالى ١٠ ملايين نسمة . ويسلم هذا التقدير بموت قرابة نصف العشرين مليونا من الرجال الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية فى هذا الوقت أو ذاك ضمن صفوف القوات المسلحة للاتحاد السوفيتى ابان الحرب العالمية الثانية .

وكما أوضحنا سابقا فمن المقدر أن ٢٥ مليونا ماتوا نتيجة كل الأسباب مجتمعة فيما بين عامى ١٤٠ و ١٩٥٠ علاوة على العدد

الذى كان مقدرا له أن يموت لو لم تنشب الحرب · واذا كان عدد من لقوا حتفهم وهم فى ثياب الجندية هو ١٠ ملايين اذن لنا أن نقدر عدد الخسائر فى الأرواح من المدنيين ب ١٥ مليونا (مع استبعاد الوفيات من الأطفال) · وعلى ضوء البيانات الخاصة بعدد الذكور والاناث الواردة فى تعداد سكان ١٩٥٩ نجد أن من بين الخمسة عشر مليونا ، وهو عدد الوفيات من المدنيين ، حوالى ١١ مليونا من الذكور و ٤ ملايين من الاناث ·

ولكن ما هو السبب ، أو مجموعة الأسباب التى تفسر لنا لماذا كان عدد الوفيات من الذكور الذين ماتوا خارج الخدمة العسكرية أثناء الحرب وبعدها يساوى ثلاثة أمثال الاناث ، فضلا عن عدد من كان مقدراً لهم أن يموتوا فى ظروف « طبيعية » ؟ ونظراً لأنه من غير المحتمل أن يكون عدد الوفيات ١٠ ملايين ، فان تفسير ذلك يشير الى الاحتمالات التالية : –

١ ـ أن نسبة الذكور بين سكان الأراضى التى ضمها الاتحاد السوفيتى الى أراضيه بعد الحرب كانت أقل بكثير مما هو مقدرلها ·

٢ ـ ارتفاع نسبة الذكور بين المهاجرين من السكان ، وربما كان هذا السبب أهم من غيره بكثير ·

٣ ـ العوامل المختلفة التى أدت الى زيادة الوفيات بين المدنيين وهى : العمليات العسكرية ضد المدنيين ، وانخفاض مستوى الصحة بوجه عام ، وانخفاض مستوى التغذية ، واستخدام الألمان لنظام فرق العمل وابادة السكان ، ونظام معسكرات العمل الاصلاحية ـ وقد وقع عبء هذا كله على الذكور ·

وقد تفيدنا هنا مطابقة ذلك بما حدث فى الثلاثينيات · ففى هذه الفترة زاد العجز بين الذكور بما يربو كثيرا على ٢ مليون – من المجموع الكلى وهو ٥ ملايين عام ١٩٢٦ الى ٧ ملايين عام

١٩٣٩ – بينما كان يجب أن يقل العجز فى ظل الظروف «العادية». معنى هذا بعبارة أخرى أن « الزيادة فى فترة تطبيق سياسية التجميع الزراعى على نطاق واسع والهجرة الواسعة من الريف الى الحضر والتوسع فى تطبيق نظام معسكرات العمل الاصلاحية . وقد وقع عبء كل هذا أيضا على الذكور من السكان .

وقد بدأ العجز فى الذكور يتناقص خلال خمسة أعوام تقريبا ؛ وهو ينحصر الآن حسب نتائج التعداد السكانى بين من بلغوا الثانية والثلاثين من العمر وما فوقها . لذلك فان مشكلة النقص فى القوى العاملة التى نجمت عن العجز فى الذكور قد بدأت تخف تدريجيا . ومن ناحية أخرى فقد بدأ الاتحاد السوفيتى يحس الآن فقط بأثر الحرب على مجموعة الأعمار التى بدأت تدخل الآن ضمن القوى العاملة . وبينما زاد تعداد السكان ممن هم فى سن العمل زيادة طبيعية من مليون الى مليونين كل عام ، فلن يتعدى هذا النمو خلال العقد التالى بضع مئات من الآلاف سنويا . وبدأ الاتحاد السوفيتى يولى المشاكل المترتبة على هذا التطور اهتماما متزايدا ، ويتجلى ذلك فى التغيرات الأخيرة التى طرأت على السياسة السوفيتية فيما يتعلق بوسائل تعبئة وتدريب القوى البشرية والاستفادة منها .

– ٣ –

يتعين علينا أن نفحص طراز النمو السكانى فى الاتحاد السوفيتى من زوايا متعددة وذلك حسب ما يظهر لنا من خلال النتائج الأولية للتعداد السكانى فضلا عن بعض البيانات الأخرى. فاذا وضعنا فى الاعتبار الفترة كلها منذ بداية حركة التصنيع – أى ابتداء من التعداد السكانى لعام ١٩٢٦ الى تعداد ١٩٥٩ –

سنجد أن معدل نسبة الزيادة السكانية تصل تقريبا الى ٨ ٠ ر فى المائة كل عام (٤) ٠ وهذا المعدل أقل من معدل الزيادة خلال فترة طويلة الأمد تشمل فترة روسيا القيصرية ٠ ذلك لأن السكان زادوا داخل أراضى الاتحاد السوفيتى من ١٨٥٠ حتى وقتنا هذا بمعدل يزيد زيادة طفيفة على ٠ر١ فى المائة كل عام ٠ وكانت الزيادة خلال فترة الخمسين عاما السابقة على ١٨٥٠ ، أى فى عهد روسيا أقل بنسبة طفيفة من ٠ر١ فى المائة كل عام ٠

وأحد أسباب انخفاض نسبة الزيادة طوال السنوات الثلاثين يكمن بطبيعة الحال فى الآثار الديموجرافية الناجمة عن الحرب العالمية الثانية والتى أسلفنا ذكرها ٠ ويتضح لنا ذلك اذا ماعرفنا أن مقدار نسبة الزيادة فى السكان فيما بين مقدار ١٩٣٩ ومقدار ١٩٥٩ لم يتجاوز ٥٪ فى المائة لكل عام ٠ وفى نفس الوقت فان نسبة الزيادة فى السكان أثناء فترة السلم منذ بداية حركة التصنيع كانت أيضا أقل من نسبة الزيادة فى الاعوام السابقة ٠ وكان النقص فى نسبة النمو السكانى ابان الأعوام الاولى لحركة التصنيع السريعة (١٩٣١ ـ ١٩٣٤) لايقل أبدا عن نسبة النمو فى فترات الكوارث ؛ وذلك للأسباب التى سبق أن ألمحنا اليها ٠ وعلى الرغم من أن النمو السكانى قد استعاد ارتفاعه ثانية فى أواخر الثلاثينيات الا أن أثر هذه الأعوام القليلة فى أوائل الثلاثينيات كان قاسيا بحيث أنه أدى الى نقص معدل الزيادة خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٦ و ١٩٣٩ الى ٢٣/١ فى المائة كل عام ، أو أنه تجاوز قليلا نصف المعدل الذى توقعه رجال التخطيط السوفيت ٠ ومع هذا كله فقد كان أعلى من معدل الزيادة التى حققتها بلدان أخرى كثيرة ٠

---

(٤) استبعدنا من حسابنا على طول الخط فى هذا المقال الاراضى التى ضمت الى الاتحاد السوفيتى منذ عام ١٩٣٩ ٠

وكانت نسبة النمو السكانى منذ ١٩٥٠ حوالى ١/٦ فى المائة – وهى أيضا أقل من نسبة النمو قبل بداية حركة التصنيع السريعة ، ولكن الفارق هنا ليس فارقا كبيرا جدا • ومرة أخرى ، وكما تؤكد لنا المصادر السوفينية ، فان نسبة الـ ٦ر١٪ كل عام هى نسبة مرتفعة نسبيا قياسا بنسبة النمو فى غالبية البلدان الأخرى • ومع ذلك فان هذا النقص المعتدل نسبيا فى نسبة النمو السكانى ابان ظروف السلم انما يخفى نقصا حادا نسبيا فى كل من نسبة الوفيات والمواليد منذ أوائل العشرينيات وثمة بعض الاحصائيات الهامة صدرت مع النتائج الاولية للتعداد ، علاوة على بعض البيانات التى استقيناها من مصادر أخرى ، تشير الى أن نسبة المواليد الاجمالية فى الفترة الراهنة هى ٢٥ فى الألف مقابل أكثر من أربعين فى الألف عشية مرحلة التصنيع السريع ؛ وأن نسبة الوفيات أقل من ٨ مقابل ١٨ ، وأن متوسط العمر ٦٧ عاما مقابل ٦٤ عاما • ومحاولة وضع مقاييس محددة للتغيرات التى تحدث فى بنية الأعمار بالقياس الى التغيرات فى العشرينيات ستؤدى الى خفض نسبة المواليد الحالية ورفع نسبة الوفيات شيئا ما ، بحيث أن كلا من هاتين النسبتين هى الآن نصف ما كانت عليه منذ ٣٥ عاما • واذا كانت نسبة الوفيات قد نقصت من ١٨ الى ٨ فى الألف ، فان نصف هذا النقص تقريبا يرجع الى النقص فى وفيات الأطفال والتى قدرت بخمس وأربعين حالة وفاة بين كل ألف من المواليد فى عام ١٩٥٧ مقابل ١٨٤ عام ١٩٤٠ •

ونسبة الوفيات الاجمالية التى تقل عن ٨ فى الألف انما هى دون نسبة الوفيات الاجمالية فى أى بلد آخر ، وتشابه نسبة الوفيات الاجمالية فى الولايات المتحدة حيث تقل عن ١٠ فى الألف ، مع العلم بأن الولايات المتحدة بها نسبة عالية من المسنين •

ونسبة الوفيات بين الأطفال التى تقدر بخمسة وأربعين بين كل ألف من المواليد تعادل نفس النسبة فى هـذا البلد عام ١٩٤٠ تقريبا ٠

وظهر أخيرا مصـدر سوفيتى واحد فقط يتضمن محاولة لتفسير انخفاض نسبة المواليد الاجمالية (٥) ٠ وحتى فى هذه الحالة أختيرت تواريخ ما قبل الحرب لعمل مقارنة تقلل من مدى هـذا النقص والتى تنسبه الى :

١ ـ انخفاض نسبة الوفيات بين الأطفال (وأظن أن المقصود بذلك أنها تؤدى الى خلق حاجة أو رغبة فى الاقـلال من عـدد الأطفال) ٠

٢ ـ الزيادة فى نسبة المقيمين فى المدن ٠

٣ ـ تغير النسبة بين الجنسـين من جراء الخسـائر فى الأرواح فى زمن الحرب وأيا كانت الاحتمـالات المتوقعة فان كل هذه العوامل تقصر تماما عن تفسير كل هذا النقص ٠ وعلى أية حال فمن الواضح تماما على ما يبدو أن العائلات التى تسكن الحضر ، وكذلك العائلات الريفية ، بدأ حجمها يتناقص باطـراد ـ ويتفق هذا الاستنتاج مع انطباعات الزوار الذين كان لزاما علينا أن نتأمل الأسباب الكامنة وراء هذا التحول فى الاحداث فاننا نستطيع على أقل تقدير أن نشير الى عدد من العوامل وهى : ارتفـاع مستوى التعليم بين السكان بمعدل سريع ٠ مشـاركة النسـاء فى ميدان

---

(٥) م ٠ يا ٠ سونين : « حول المشاكل الراهنة لانتاج موارد العمل فى الاتحـاد السـوفيتى » ٠ اكاديميـة العلوم باتحـاد الجمهـوريت الاشـتراكية السوفيتية ـ مشاكل تجديد الانتاج الاشتراكى موسكو : ١٩٥٨ ص ٢٥٧ ـ ٢٨١) ٠

العمل على نطاق واسع سواء فى الريف أو المدن . النقص المستمر فى مساكن المدن .

ونظرا لأن « أطفال الحرب » سيبلغون سن الانجاب خلال العقد الثانى أو نحو ذلك تقريبا فان نسبة المواليد قد تنخفض الى ٢٠ فى الألف أو أقل من ذلك حتى وان لم تقل نسبة الخصوبة . وبعبارة أخرى فان نسبة المواليد ستظل ثابتة أو ترتفع فى حالة واحدة فقط اذا ما زادت نسبة الخصوبة زيادة حقيقية .

– ٤ –

تبين لنا البيانات الخاصة بسكان الريف والحضر التى أعدنا عرضها سالفا أن نسبة السكان فى الحضر (وهى ٤٨٪) أضخم مما نتوقعه على ضوء التقدير الرسمى غير الاحصائى لأول أبريل عام ١٩٥٦ (الذى يشير الى أن نسبة السكان فى الحضر ٤٤٪) استنادا الى الزيادات الواردة عن سكان الحضر فيما بين عامى ١٩٥٠ – ١٩٥٥ . ويبدو لنا هنا أحد احتمالين : أ – اما أن سكان الحضر قد زادوا فى الواقع منذ عام ١٩٥٦ بما يزيد على ٥ ملايين نسمة فى السنة قياسا الى ٣٤٠٠٠٠٠ فيما بين عامى ١٩٥٠ – ١٩٥٥ ؛ ب – واما أن الدقة الكبيرة للتعداد الكلى للسكان يضع الرقمين فى وضع فريد لا مثيل له فى الحقيقة . وعلى أية حال فاذا كان أكثر من نصف السكان فى الاتحاد السوفيتى يعيشون الآن فى الحضر ، فان هذه الحقيقة تضع الاتحاد السوفيتى فى مصاف أكثر بلدان العالم تحضرا رغم أنه فى هذا الصدد دون الولايات المتحدة بكثير (٥٩٪) والدانيمرك (٦١٪) والمملكة المتحدة (٨٠٪) .

والنسبة المئوية لسكان الحضر فى الاتحاد السوفيتى الآن تماثل النسبة المئوية للولايات المتحدة حوالى عام ١٩١٠ ، بينما بدأت فترة التصنيع السريع وسارت معها حركة الانتقال الى الحضر بنفس الدرجة التى كانت عليها فى الولايات المتحدة عام ١٨٦٠ . ومع ذلك فقد كانت حركة التحضر فى الاتحاد السوفيتى خلال الثلاثينيات أسرع منها فى الولايات المتحدة بعد عام ١٨٦٠ . وبصورة مقلقة فقد تضاعف عدد سكان الحضر خلال الاعوام العشرة الأولى لحركة التصنيع فى الاتحاد السوفيتى ، بينما تضاعفت فى الولايات المتحدة خلال العشرين عاما الأولى . أو اذا شئنا أن نعبر عن ذلك بعبارة مختلفة نقول : تضاعفت النسبة المئوية لزيادة السكان فى الحضر فى الاتحاد السوفيتى خلال عشرين عاما ، بينما تضاعفت فى الولايات المتحدة خلال أربعين عاما .

وهذه الأرقام لا تفسرها فقط زيادة معدل سرعة الهجرة لسكان الاتحاد السوفيتى من الريف الى الحضر ، بل تفسرها كذلك عملية الابادة فى الحرب العالمية الثانية والتى وقع عبؤها أساسا على سكان الريف السابقين الذين انخرطوا فى صفوف جيش يتألف أكثره من « الفلاحين » وهذا أمر يزيد عن الحد ، مما لا يتيسر تعويضه ، بالقياس الى ما حدث فى الولايات المتحدة ، ذلك لأن نسبة كبيرة من السكان الذين هاجروا الى الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر استوطنوا المدن .

وتفيدنا النتائج الأولية للتعداد موزعة على التقسيمات الادارية فى أنها تعطينا صورة أكثر دقة عن التحركات السكانية بعد الحرب الى الأجزاء الوسطى والشرقية للبلاد . وسوف تظل روسيا الأوروبية أكثر المناطق الآهلة بالسكان ، الا أن سكانها تغيروا تغيرا طفيفا

منذ أعوام ما بعد الحرب · لذلك فاننا نفترض أن كل الزيادة التى طرأت على المجموع الكلى للسكان منذ تعداد ١٩٣٩ ، رغم ضآلتها ، حدثت فى المناطق الموجودة خارج روسيا الأوروبية · وحدث ذلك نتيجة اتجاه حركة التصنيع ناحية الشرق وتعبئة الجهود لاستصلاح « الأراضى البكر » ، وقد تطلب كلاهما هجرة واسعة · ولكنها تعكس أيضا حقيقة أخرى وهى أن نسبة المواليد ظلت عالية نسبيا فى بعض المناطق الشرقية ، خاصة فى آسيا الوسطى السوفيتية ·

وجماع القول أن دلالة نتائج الاحصاء التى وصلت إلينا ذات شقين · أولا فهى نتائج هامة لما تكشفه لنا عن بلد يجتاز حربا ضروسا وتحولا سريعا فى مجال التطور الاقتصادى والاجتماعى ؛ ولأنها تسجل لنا عددا من العوامل الديموجرافية والتى لابد وأنها أثرت الى حد ما على الحكومة السوفيتية فى صياغة سياستها بالنسبة للعمل والجيش وغيرها من المجالات الاخرى · ثانيا ـ ترجع أهميتها الى حقيقة بسيطة وهى أنها وصلت الينا لتكون جزءا مكملا للمعلومات التى تدفقت من المصادر الرسمية والتى بدأت ترد الينا منذ عام ١٩٥٦ وتبشر بالمزيد منها مستقبلا ؟

السكان والسياسة في أوروبا..

بقلم : أ. ف. ك. أرجانسكى

تباينت الشعوب الأوروبية تباينا واضحا خلال القرن العشرين من حيث تطورها الديموجرافى واتجاهاتها السياسية • وتكشف الاتجاهات السياسية لفرنسا والسويد وألمانيا النازية وانجلترا المعاصرة عن جانب كبير من الأفكار القومية لكل منها •

وقد برزت مشكلة جديدة منذ الحرب العالمية الثانية بعد أن تكونت فى أوروبا كتلتان ، شيوعية وغير شيوعية ، وبدأت العوامل الديموجرافية تسهم بنصيب فى تحديد قوة كل منهما •

* * *

يتميز السكان فى أوروبا اليوم بالكثافة ، والكثرة معا • واذا نظرنا اليهم من حيث الكثافة فى كل كيلو متر مربع سنجد أن كثافة السكان فى أوروبا أكبر منها فى آسيا • ولكن الضغط السكانى فى

---

* عن مجلة العلم ـ ٣١٣ ـ العدد ٣٤٦٧ (١٩٦١) مع حذف بعض فقراتها باذن من المؤلف وهيئة تحرير مجلة العلم . نسخة طبق الاصل ١٩٦١ لرابطة تقدم العلوم الامريكية .

أوروبا لا يمثل عقبة فى طريق التقدم الاقتصادى أو الاستقرار السياسى • بل ان السكان فى أوروبا لا يتزايدون بنفس السرعة التى يتزايد بها سكان المناطق المتخلفة التى هى شغلنا الشاغل الآن • فمعدل الزيادة السنوية فى أوروبا منذ ١٩٥٠ حتى ١٩٥٨ لم يتعد ٧ر٠ فى المائة مقابل ٨ر١٪ فى آسيا و٩ر١٪ فى أفريقيا و ١ر٢٪ فى الامريكتين و٣ر٢٪ فى بلدان المحيط الهادى (١ — جدول ٢) ونظرا لأن أوروبا الغربية قد حققت بالفعل مستوى عال من التقدم فانها قادرة على أن تمتص بسهولة أية زيادة يحتمل حدوثها فى المستقبل • واذا كانت مناطق جنوب وشرق أوروبا لم تصل بعد الى نفس المستوى من التطور ، الا أنها تعمل على زيادة كفايتها الاقتصادية بخطوات سريعة لذلك فانها ستستطيع هى الأخرى مستقبلا أن تعالج هذه الزيادة السكانية •

الا أن هذا لا يعنى أن الأحداث الديموجرافية لم تعد تؤثر على الاتجاهات السياسية فى أوروبا • فالاتجاهات السكانية سواء فى الماضى أم فى الحاضر تؤثر تأثيرا مباشرا على مراكز القوى للدول الاوروبية من حيث علاقتها ببقية دول العالم وكذلك من حيث علاقتها ببعضها البعض • وهذا هو التأثير الهام ، وسبب ذلك على وجه التحديد أن التنظيم الاقتصادى والاجتماعى للدول الأوروبية من النوع الذى لم يعد معه النمو السكانى يمثل مشكلة فى الوقت الراهن • ونظرا لأن غالبية الدول الأوروبية هى دول صناعية تخطو خطوات سريعة فى طريق التصنيع ، فانها تستطيع الاستفادة من شعوبها لتحقيق أغراضها الخاصة بتدعيم قوتها وذلك على عكس وضع الدول المتخلفة المناضلة التى قد تجد فى نموها السكانى عبئا يثقلها •

ان العلاقة بين السكان والسياسة فى أوروبا علاقة لها تاريخ طويل • فقد كان للاتجاهات الديموجرافية أثرها على القوة الأوروبية ابان قرن حرية العمل ، بينما كان للتطورات السياسية أثر ضئيل على الاتجاهات الديموجرافية وكان للنمو الهائل للسكان فى أوروبا، وهو نمو غير مخطط أو موجه ، أثره الحاسم فى جعـل الأوروبيين القوة الأولى فى العالم • فالانفجار السكانى فى أوروبا هو الذى أمدها بالأيدى العاملة التى أنجزت النظم الاقتصادية الصناعيـــة الحديثة داخل البلاد ، وهو الذى زودها بالمهـــاجرين الذين خلقوا لأوروبا حلفاءها فى الخارج وزودها بالاداريين والجنود الذين ساعدوا على خلق امبراطوريات مترامية الأطراف تمتد الى نصف مســاحة الكرة الأرضية وتضم ثلث سكانها •

الا أن النمو السكانى الذى مكن أوروبا من ان تجنى مثل هذه النتائج السياسية العظيمة بفضل تقدمها الاقتصادى بدأ يهن خلال القرن العشرين • وحدث أول انخفاض فى نسبة المواليد فى أوروبا الغربية قبل غيرها فهى مهد الثورة الصناعية وحيث القيم الحضرية التى ترتبت عليها والتى تؤثر الأسر الصغيرة الحجم وقد استغرقت هذه القيم أمدا طويلا الى أن أصبحت قيما سائدة وعميقة الجذور • ولكن بمضى الأعوام فى القرن العشرين بدأت تنخفض نسبة المواليد فى شرق أوروبا كذلك • (٢ ص ١٢ ـ ١٣) • وأصـــبحت اليـوم نسبة المواليد المنخفضة ونسبة الوفيات المنخفضة ونسبة الزيادة المنخفضة أو المعتدلة للسكان من حقائق الحياة فى أغلب أنحاء أوروبا• بيد أن الحكومات الأوروبية بدأت الواحدة تلو الأخرى تشن حربا ضد هذا الأمر الواقع؛ وتغيرت العلاقة القائمة بين السكان والسياسة

أثناء القرن العشرين • اذ حاولت السياسة أن تؤثر على الاتجاهات الديموجرافية •

ونهجت الحكومات سياسة تهدف الى رفع نسبة الخصوبة بعد أن واجهتها مشكلة انخفاض نسبة المواليد واحتمال نقص عدد السكان • ولكن حدث فى نفس الوقت أن اعترضتها أحداث سياسية من نوع مختلف أشد الاختلاف من شأنها أن تؤثر على السكان فى أوروبا مثل الحروب والثورات التى قضت على كل المكاسب التى كان من الممكن أن تجنيها سياسة تشجيع انجاب الأطفال والتى كان يمكن أن يتدفق عنها فيض جديد من الهجرة •

واذا نظرنا الى مدى الاهتمام بنسبة المواليد الآخذة فى الانخفاض فى أوروبا والتى انخفضت ابان سنوات الكساد الى الحد الذى أصبحت تهدد فيه النمو السكانى بل وكانت تنذر بتدهور سكانى ، فان ما قد يثير الدهشة أن نجد عددا قليلا جدا من الدول الأوروبية هى التى اختطت لنفسها سياسة سكانية ؛ كما يدهشنا كذلك مدى تهافت بعض هذه الاتجاهات السياسية • فانجلترا على سبيل المثال رغم أنها أولت هذه المشكلة اهتماما كبيرا الا أنهـا لم تقدم على فعل شيء ما الى ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما سنت برنامجا للعلاوات الاجتماعية التى تمنح للأسر من أجل الأطفال • وكان هذا الاجراء بمثابة اجراء للرفاهية أكثر منه محاولة للتأثير على حجم الأسرة ، ذلك لأن هذه العلاوات كانت من الضآلة بحيث لا تشجع على انتاج أسرة كبيرة • وفى أوائل الخمسينيات ثبتت المجر سياسة تشجيع انجاب الأطفال ولكنها تخلت عنها عام ١٩٦٠ (٤ — ص ١٩٣) • وتعتبر السويد وبلغاريا (٤ ص ١٩٦) مثالين للأمم التى تتخذ اجراءات لتشجيع انجاب الأطفال وتتخذ فى نفس الوقت اجراءات أخرى ضدها • وتطبق روسيا سياسة لتشجيع انجاب الأطفال ، وتعد أكثر هذه السياسات اتساقا • بيد أنها ظلت

لأعوام طويلة وهى تنكر أنها وضعت برنامجها الشامل هذا بهدف التأثير على حجم الأسرة • وربما كانت ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية وفرنسا المعاصرة تستحق كل منها جائزة لسياستها المتسقة وان كان مدى فعالية سياسة كل منها أمرا موضع مناقشة •

وتعتمد السياسة السكانية فى فرنسا على تشريع مقيد للحريات واجراءات قضائية وبوليسية واسعة المدى للحيلولة دون عمليات الاجهاض أو استخدام موانع الحمل ، كما تعتمد على نظام العلاوات النقدية الفورية ، وهى علاوات مرتفعة بقدر كاف بحيث تضمن زيادة حقيقية فى دخل الأسر الكبيرة • ويشمل البرنامج الفرنسى كذلك قروضا للزواج وعلاوات حمل ومنحا للولادة وعلاوات ومنحا للاسكان وخفضا للمصاريف والمدرسية واعفاءات مالية لأطفال الأسر الكبيرة •

ويتضمن برنامج السويد بعض اجراءات خاصة متميزة مثل العلاوات النقدية ، ولكنه يركز أساسا على اتباع سياسة تحقق الرفاهية الاجتماعية العامة بحيث توفر لكل الأسر دخلا كافيا وسكنا ورعاية طبية • وذلك على فرض أن هذا كله من شأنه أن يزيح بعض العقبات التى منعت سكان السويد من أبناء الجيل السابق من انجاب أسر كبيرة • ومع ذلك فقد اتخذت السويد فى نفس الوقت سلسلة من الاجراءات تعتبر من حيث نتائجها ، ان لم تكن تهدف الى ذلك عمدا ، اجراءات مضادة لسياسة تشجيع انجاب الأطفال • فقد أجازت الاجهاض لأسباب عضوية أو نفسية أو اقتصادية ، كما وأن موانع الحمل تباع فى الصيدليات ، أو تقدم المعلومات عن منع الحمل كجزء من التربية الجنسية فى المدارس الثانوية • فمن الواضح أن السويد تسعى من أجل انجاب أسر كبيرة ولكن فقط اذا كان الأطفال شيئا مرغوبا فيه •

وربما كان برنامج الاتحاد السوفيتى هو أكثر البرامج شمولا فهو يشمل اجراءات للرفاهية على نطاق واسع ، واعانات مالية وأوسمة شرف للأمهات اللائى ينجبن أسرا كبيرة . ومع ذلك فقد خففت فى الأعوام الأخيرة قيود التشريع الذى يحرم الاجهاض أو استخدام موانع الحمل . والرعاية الطبية ميسورة للجميع وان كانت تولى الأمهات والأطفال رعاية خاصة . ويعد « التخصص فى رعاية الأم والطفل » أحد التخصصات الأساسية الثلاثة التى يتدرب عليها كل الأطباء فى الاتحاد السوفيتى . كما وأن التعليم المجانى الى مستوى الجامعة يزيد من خفض نفقات اعالة الأطفال . وتمنح الأمهات العاملات عملا مخففا أثناء الحمل واجازة وضع مدفوعة الأجر وفسحة من الوقت أثناء العمل للارضاع ، ودور للحضانة لصغار الأطفال أثناء النهار . وتشجيع الاعفاءات الضريبية والمكافآت التقدمية على انجاب أسر كبيرة ، كما أن الحكومة السوفيتية تكرم الأمهات اللائى ينجبن أسرا كبيرة بمنحهن أوسمة وميداليات خاصة بذلك تبدأ من ميدالية الأمومة التى تمنح للأم التى تنجب خمسة أطفال الى وسام الأم البطلة والذى يمنح للأم التى تنجب عشرة أطفال بالغين ، علاوة على شهادة من مجلس الرئاسة السوفيتى الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . (٤ — ص ١٧٩ و٨) .

- ٢ -

ان العدد الكبير من السكان ليس هدفا فى ذاته بطبيعة الحال. وكل الشعوب الأوروبية التى يعنيها زيادة حجم سكانها لها أهداف أخرى بعيدة ، هى الرفاهية الاقتصادية والمنعة القومية والمحافظة

على التراث الثقافى . ولقد عبر الكتاب فى بريطانيا والسويد عن قلقهم خشية أن يقلل التدهور السكانى من فرص الاستثمار ويؤدى الى حالة من الركود الاقتصادى ومن ثم بالتالى الى خفض مستوى المعيشة (٥ ـ ص ١٢٤ ، ٩ ـ الباب العاشر والحادى عشر) .

واعتبارات القوة هى أكثرها حسما وكان لها دورها فى كل السياسات التى تشجع انجاب الأطفال . وكان الألمان والايطاليون أكثر وضوحا فى تحديدهم لهذه الاعتبارات . فقد أعلن جوزيف جويلز : « اذا كانت ألمانيا ترغب فى الوفاء بمهامها القومية والعالمية الكبرى .. فانها بحاجة الى الأيدى . ولهذا السبب يشجع النظام الجديد الأسر الكبيرة . » (١٠)

بل ان موسولينى كان أكثر صراحة حين قال : « اذا كانت ايطاليا تريد أن تكون شيئا ذا قيمة فى هذا العالم فلابد وأن يصبح تعداد سكانها على الأقل ستون مليونا فى أوائل النصف الثانى من هذا القرن .. لنكن صرحاء مع أنفسنا . ما قيمة أربعين مليونا من الايطاليين بالقياس الى تسعين مليونا من الألمان ومائتى مليون من السلاف ؟ (١١) .

والسياسة السكانية فى فرنسا كان يحركها أساسا الخوف من التكاثر السكانى السريع فى ألمانيا . ويمكن النظر الى قانون الأسرة الذى صدر فى فرنسا عام ١٩٣٩ باعتباره جزئيا رد على السياسة التى نهجتها من قبل ألمانيا النازية لتشجيع انجاب الأطفال فى شكل سباق للتسلح الديموجرافى . وكان رجال الدولة فى بريطانيا يدركون بدورهم جيدا الدلالات السياسية لانخفاض معدل النمو السكانى فى البلاد . وعبرت اللجان الملكية للهجرة والسكان عن خشيتها من أن تتعرض روابط بريطانيا بشعوب الكومنولث للخطر اذا لم ينم السكان فى بريطانيا بسرعة كافية تكفل خلق تيار مستمر من المهاجرين حتى يظل الأصل البريطانى هو الطابع

الغالب لشعوب هذه البلدان مثل كندا واستراليا ونيوزيلاندا (٩ ـ ص ١٢٥ ، ٢٢٥ ، ١٣٣) ٠

وربما كانت اعتبارات القوة هى الشىء الكامن وراء السياسة السكانية التى تنهجها روسيا أيضا ، وان كان من الصعب أن نقيم الدليل على صدق هذا الكلام ٠ فان الاتحاد السوفيتى لا يحتاج الى القوة البشرية ليعوض بها خسائره فى الحروب ولكى يوفر القوة اللازمة لصناعاته النامية فقط ، بل يحتاج اليها كذلك ليملأ بها أراضيه الفضاء ويتجنب وضعه كقزم بالقياس الى حليفه وجاره العملاق فى الجنوب ٠

ويبدو من ناحية أخرى أن السويد تهتم بالمحافظة على تراثها الثقافى أكثر من اهتمامها بالقوة ورسمت سياستها السكانية على أساس تخليد التراث الثقافى للسويد وكذلك لتدعيم مركز البلاد فى المحيط الدولى ٠ وعبرت (ألفا ميروال) عن هذا الشعور بالكلمات التالية : « ان مجتمعنا غير جدير بالبقاء على الاطلاق ٠٠٠ انه لا يريد أن يستجمع همته للعمل من أجل الحفاظ على ثقافة قومية فى طريقها الى الاندثار ٠ انه لا يريد أن يقتنع بضرورة تدعيم بناء اجتماعى سيحرم أطفالنا من وراثته » (١٢) ٠ ومن الطبيعى أن سياسة تشجيع انجاب الأطفال فى جميع الأمم ترتكز بشكل ما على الرغبة فى المحافظة على التراث الثقافى ٠

ومن العسير علينا أن نحكم على مدى فعالية السياسة الأوروبية لتشجيع الانجاب ٠ وربما كانت حالة ألمانيا هى أكثر الحالات التى درست دراسة شاملة ٠ فقد ارتفعت نسبة المواليد فى ألمانيا ارتفاعا كبيرا بعد تطبيق اجراءات تشجيع الانجاب مباشرة ٠ وكان طبيعيا أن يزهو رجال الدولة النازيين بهذا التحول ؛ الا أن الشىء الأكثر احتمالا على ما يبدو هو أن ارتفاع نسبة المواليد انما يرجع الى عودة

الرخاء الاقتصادى والعمالة الكاملة : نظرا لأن هناك معامل ارتباط عال بدرجة لانظير لها (+ ٧٩) بين معدل العمالة الشهرية ونسبة المواليد الشهرية بعد تسع شهور ابتـــداء من عام ١٩٣١ الى عام ١٩٣٩ (١٣) ٠

وشهدت السويد أيضا ارتفاعا فى الخصـــوبة ، وكان هذا الارتفاع مصاحبا لتطبيق سياستها السكانية ٠ اذ ارتفعت نسـبة المواليد من ٧ر١٣ عام ١٩٣٤ الى ٦ر٢٠ عام ١٩٤٤ ٠ ومع ذلك فقد بدأت نسبة المواليد تتناقص تدريجيا منذ ذلك الحين (اذ ارتدت الى ٢ر١٤ عام ١٩٥٨) رغم استمرار الدولة فى سياســـتها لتشجيع الانجاب ٠

وتتميز تجربة فرنسا باهمية خاصة ٠ فقد صاحب سياستها السابقة على الحرب انخفاض مستمر فى نسبة المواليـــد ٠ الا أن تطبيق قانون الأسرة لازمته زيادة فى الخصوبة ابان الأعوام الأخيرة للحرب ؛ ومع نهاية الحرب ارتفعت نسبة المواليد فى فرنسا كثيرا ٠ واحتفظت فرنسا بهذا الارتفاع النسبى للمواليد بعد أن تم تطبيق سياسة تشجيع انجاب الأطفال فى غيرها من بلدان أوروبا الغربية بعد الحرب ٠ ويضع الخبير الفرنسى الفريد سوفى ثقته فى سياسة فرنسا (١٤) ولكن يجب أن نلاحظ أن نسبة المواليد فى الولايات المتحدة قد ارتفعت هى الأخرى كثيرا وحافظت على ارتفاعها منـــذ الحرب العالمية الثانية دون تطبيق سياسة سكانية مقصودة أيا كان نوعها ٠

- ٣ -

قضى الصراع الســـــياسى فى أوروبا على كل المكاسب التى حققتها سياسة الحكومات الأوروبية لزيادة السكان فقد شهد هذا

القرن ، وهو أكثر القرون سفكا للدماء ، فأوروبا قد خربتها حربان عالميتان ، وحرب أهلية ، وثورة وعدد من الصدامات المحدودة ٠ومن العسير أن نحصى جملة خسائر أوروبا من السكان ، ذلك لأنها لا تشمل فقط صرعى الحرب ، بل تشمل كذلك الوفيات التى حدثت من جراء المرض وسوء التغذية التى جاءت فى أعقاب الحروب، و « الخسائر » التى يمكن ارجاعها الى أن عددا كبيرا من المواليد ممن كان يمكن أن يولدوا فى زمن السلم ، لم يأتوا فى زمن الحرب ٠ وتقدر جملة ما تكلفته أوروبا من حياة أبنائها (١٥) خلال الحربين فقط بما يزيد على مائة مليون نسمة ٠

ومن الأمور التى لها دلالتها أن خسائر أوروبا الشرقية فى كل من الحربين كانت أفدح من خسائر أوروبا الغربية ٠ ولكن كان الفارق جسيما فى الحرب العالمية الثانية بوجه خاص ٠ وفيما يتعلق بالدول الكبرى فقد كانت الخسائر التى تكبدتها فرنسا فى قواتها العسكرية ابان الحرب العالمية الثانية تقدر بحوالى ٢٠٠٠٠٠ ٠ واذا أضفنا الى هؤلاء صرعى الحرب من المدنيين والمثقفين والأسرى سيصل المجموع الكلى الى حوالى ٦٠٠ر٠٠٠ أو أقل من نصف خسائرها فى الحرب العالمية الأولى ٠ وكانت خسائر بريطانيا بالنسبة لجميع الفئات ـ القتلى من العسكريين والعدد الهائل من وفيات المدنيين بالاضافة الى العجز فى المواليد ـ أقل مما كانت عليه فى الحرب العالمية الأولى ٠ أما خسائر روسيا فهى على النقيض اذ كانت أكثر من ضعف ما كانت عليه فى الحرب العالمية الأولى ، ذلك لأن الاتحاد السوفيتى تكبد ما يقدر بخمسة وعشرين مليونا من صرعى الحرب بالاضافة الى عجز فى المواليد يقدر بعشرين مليونا نتيجة للحرب العالمية الثانية وبالنسبة لدول شرق أوروبا المتحالفة مع الاتحاد السوفيتى فقد كانت خسائرها من الوفيات فقط ما يزيد على ٦ مليون (٢ ـ ص ١٤ ، ١٦) ٠

ويمكن أن نرجع جزئيا هذا الفارق الضخم بين خسائر بلدان شرق أوروبا وغربها الى الفترة القصيرة التى خاضت فيها أوروبا الغربية الحرب • يضاف الى هذا ذبح الألمان لأسراهم من الأوروبيين الشرقيين وكان هذا أسوأ بكثير من كل ما حدث فى أوروبا الغربية •

ومع ذلك فليس العجز السكانى وحده هو التغيرات الديموجرافية الوحيدة التى نجمت عن الصراع السياسى فى أوروبا• فالحرب والثورة والتمرد والاضطهاد السياسى كل هذا دفع الملايين من الأوروبيين الى ترك ديارهم وأكرههم على الهجرة من بلد لآخر وأدى الى خسارة جسيمة بالنسبة لسكان أوروبا •

وللمرة الثانية نقول انه لعسير علينا أن نصل الى الأرقام الدقيقة لأن الكثيرين ممن أكرهوا على الهجرة كانوا مهاجرين غير قانونيين ومن ثم لم يحسب عددهم ، أو نظرا لأنهم غيروا أماكنهم ابان الحرب • الا أن التقدير الاجمالى للمهاجرين من اللاجئين فى أوروبا منذ الحرب العالمية الأولى يقارب الثلاثين مليونا من الأنفس • ويشمل هذا العدد ١ر٥ مليونا من اللاجئين بعد الثورة الروسية وحوالى نصف مليون من الجمهوريين اللاجئين من اسبانيا ، (وعاد أكثر من نصفهم الى أرض الوطن) وحوالى ٨٠٠٠٠٠ من اللاجئين قبل الحرب الذين فروا من حكم النازى فى ألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا •

ومع ذلك فلا شيء مما حدث قبل الحرب يمكن مقارنته بهجرة ما لا يقل عن ٢١ مليونا من البشر ومغادرتهم بلادهم مع الحرب العالمية الثانية • فعندما كانت الجيوش الهتلرية تواصل زحفها فرت أمامها الملايين من الأوروبيين بينما ما لا يقل عن ثمانية ملايين ممن لم يسعفهم الفرار أعيد شحنهم ثانية الى ألمانيا كأسرى حرب وعمال

أرقاء . وعلاوة على ذلك فقد نفى الألمان ما يزيد على المليونين من البولنديين والسلاف وسكان الألزاس واللورين وأخرجوهم من ديارهم ليفسحوا مكانهم لمستوطنين من الألمان . ثم ما أن بدأت ألمانيا تخسر الحرب وبدأت جيوشها فى التراجع حتى قام النازى بحملة ابادة جماعية للمدنيين من غير الألمان ، ورحل معهم وبمحض اختيارهم من شرق أوروبا المستوطنون الألمان ورجال الأعمال من غير الالمان واعداء الشيوعية ومع نهاية الحرب كان فى أوروبا ما قد يزيد على اثنى عشر مليونا من غير الالمان من المطرودين من بلادهم ، وما يقرب من ٩½ مليونا من اللاجئين الالمان الذين لجأوا من مناطق أخرى وتكدسوا جميعهم فى ألمانيا .

وأدت التغيرات الاقليمية التى حدثت فى نهاية الحرب العالمية الثانية الى مزيد من الامتزاج بين سكان أوروبا ، وتحول فى ولاء الكثيرين من الأوروبيين حتى وان لم يكونوا قد هاجروا ، كما أدت كذلك الى تغير فى حجم الدول . وكانت المانيا بطبيعة الحال هى أكثر البلدان تأثرا بذلك . وما أن حل عام ١٩٥٣ حتى بلغ المجموع الكلى لسكان ألمانيا نفس الحجم الذى كان عليه عام ١٩٣٩ . وأصبحت ألمانيا الغربية مرة ثانية أضخم بلدان أوروبا الآن من حيث حجم السكان (ما لم نحسب الاتحاد السوفيتى) . الا أن ألمانيا الآن لم تعد قادرة على أن تزهو على بريطانيا بتعداد سكانها مثلما كانت تفعل قبل الحرب . وخسرت رومانيا أكثر من أربعة ملايين نسمة (خمس تعداد سكانها) بسبب ما خسرته من أراضيها . وتكبدت بولندا خسارة صافية تقدر بثلاثة ملايين . وأصبح سكان بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا اليوم أقل مما كانوا عليه عام ١٩٣٩ .

وخسرت أوروبا الشرقية ككل (عدا الاتحاد السوفيتى) خمسة وعشرين مليونا من البشر فيما بين عامى ١٩٣٨ و١٩٤٧ وهى

النتيجة النهائية للتغيرات الاقليمية وخسائر الحرب (٢ · ص ١٦) ومنذ الحرب العالمية الثانية غادر ألمانيا الشرقية الى المانيا الغوبية ما يقرب من ٣ر١ مليونا وغادر المجر ٠٠٠ر١٩٠ أثنـــاء التمرد الفاشل ·

ومن الأمور الهامة ذات الدلالة هذا التدفق المستمر من الالمان المعادين للاشتراكية الذين يبـــحثون عن ملاذ لهم فى ألمانيا الغربية وبرلين الغربية · وكانت هذه الهجرة من الضخامة بحيث محت أثرا الزيادة الطبيعية من السكان فى ألمانيا الشرقية والتى نتجت عنزيادة عدد المواليد على عدد الوفيات مما تســـبب عنه انخفاض مستمر فى المجموع الكلى لسكان ألمانيا الشرقية · وعـــلاوة على ذلك فقد أثرت الهجرة فى بنية الأعمار نظرا لأن غالبية المهاجرين من الشباب ، اذ أن ٤٠ ٪ منهم هم ممن تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ٢٤ عاما · (٢-ص ٢١) · (١)

- ٤ -

ان الرحيل عن ألمانيا الشرقية يعطينا صورة حية لأهم ماورثته أوروبا عن الحرب العالمية الثانية : ألا وهو تقسيم القارة الى معسكرين متعارضين · ومن المحتمل أن يظل هذا التقسيم تقسيما دائما ذلك لأنه لا يرتكز فقط على هذه الخصومة الواضحة بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية والقوى الغربية ، وهى خصومة لا سبيل الى المصالحة بينها ؛ وانما لأنه بدأ يرتكز على شيء آخر أبعد غورا من الأيديولوجية — أى على أساس عملية التكامل النامية فى المجالين الاقتصادى والعسكرى لبلدان كل من الكتلتين ·

---

(١) انظر « المقدمة » جدول ٢ — (ملاحظة بقلم المشرف على اصدار الكتاب) ·

وتلعب العوامل الديموجرافية دورا خطيرا فى تشكيل القوة النسبية لهاتين الكتلتين ذلك لأن حجم السكان يمثل فى منتصف القرن العشرين أحد المحددات الرئيسية لقوة الشعوب ، رغم وجود محـددات أخرى هامة كذلك • وتعتبر الكتلتان متساويتين تقريبا من حيث حجم السكان • ولا نعنى بذلك أنهما متعادلتان من حيث القوة ذلك لأن الغرب يمتاز بأنه أكثر تقدما من الناحية الاقتصادية بينما يمتاز الشرق بأنه يتألف من عدد أقل من الوحدات والتى ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا أقوى من الغرب •

بيد أن توزيع السكان بين شعوب أوروبا يعطيها ميزة كبيرة على شعوب الدول الشـــيوعية ذلك لأنه لا يوجـــد فى أوروبا الشيوعية سوى تسع دول فقط ، بينما يوجد ثمان عشرة دولة أوروبية غير شيوعية (دون احتساب الدويلات الصـغيرة الحجم مثل أندورا وليكتنشتين وموناكو وسان مارينو والفاتيكان) . هذا فضلا عن ان سكان الدول الأوروبية الشيوعية تتركز تركزا كبيرا حيث يوجد ثلثا السكان فى الاتحاد السوفيتى . ويضاف الى هذا الحقيقة التالية ، وهى أن الاتحاد السوفيتى ، ويمكن هنا أن نستثنى تشيكوسلوفاكيا ، هو أيضا أكثر بلدان أوروبا الشرقية تقدما من الناحية الاقتصادية . وواضح أن روســـيا تتمتع بقوة هائلة تميزها على جيرانها .

وميزة القوة هذه لها أهمية كبرى فى تحديد مسار الأحداث فى شرق أوروبا . فلولا قوة روسيا لما بقيت الدول التابعة لهـا

داخل المعسكر الشيوعى على الاطلاق . واستخدمت روسيا قوتها بما لها من نفوذ غلاب ، والتى تستند أساسا الى تفوقها السكانى لتفرض التكامل الاقتصادى بين دول أوروبا الشرقية . وتسير المؤسسات العسكرية لهذه الدول فى اتجاه التكامل أيضا *.

والموقف على خلاف ذلك تماما فى أوروبا الغربية . فثمة خمس دول غير شيوعية لا تدخل من وجهة النظر السياسية ضمن المعسكر الغربى على الاطلاق (وهى النمسا وفنلندا وايرلندا والسويد وسويسرا) . والثلاث عشرة دولة الباقية هى أبعد ما تكون عن الوحدة . وسبب الافتقار الى الوحدة أننا لا نجد دولة من الدول التى تتميز بحجمها الهائل تتولى مهمة قيادة المنطقة . فالسيادة على أوروبا الغربية مقسمة بين أربع دول متوسطة الحجم وكلها متساوية من حيث الحجم تقريبا : وهى بريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية وايطاليا وتحكم هذه الدول ثلثى سكان أوروبا الغربية . ولا ترغب أى من هذه الدول أن

---

* الملاحظ ان كاتب المقال ، خلال حديثه كله ، ينظر الى مجموعة الدول الاشتراكية نظرة الدول الاستعمارية المعادية لاتجاه الاشتراكية عموما . نعداؤه للاشتراكية يملى عليه نظرته واسلوبه فى التعبير عن ان الاشتراكية نظام مفروض على شعوب هذه الدول وليست نظاما يتفق تماما مع مصالح هذه الشعوب ويتعارض أيضا تعارضا تاما مع مصالح الربعيين من المفكرين والرأسماليين . فالتكامل الاقتصادى مثلا بين مجموعة من الدول تؤمن بالاشتراكية يخدم حقا مصالح الشعوب لانه يبتغى رفاهيتها وليس نظاما مفروضا من مركز قوة بعينه . هذا على عكس السوق الاوروبية او الاتفاقيات الاقتصادية بين الولايات المتحدة والمانيا الغربية او اليابان او دول امريكا اللاتينية فهى تعنى مزيدا من استنزاف اموال وخيرات هذه الشعوب لصالح أصحاب رؤوس الاموال الامريكيين وليس تعاونا من اجل رفاهية الشعوب كاتفاقيات التكامل الاقتصادى بين الدول الاشتراكية .

(المترجم)

الحبوب فكانت أسبانيا والبرتغال ، ابتداء من النصف الثانى للقرن الخامس عشر ، تعتمدان الى حد كبير على وارداتهما من حبوب منطقة البلطيق ، بل ان ايطاليا كانت تستهلك بعض انتاج منطقة بحر البلطيق • وبدأت انجلترا فى أواخر القرن السادس عشر ، أى من عهد اليزابيث الاولى ، تستورد الحبوب من منطقة بحر البلطيق بكميات لم يسبق لها مثيل • وكذلك فعلت هولندا • وكانت ألمانيا الغربية والوسطى تحصلان على السلع الشرقية عن طريق النقل البرى • وسرعان ما أصبحت بولندا وشرق ألمانيا وكذلك ليفونيا والدانيمرك مناطق التموين للمنتجات الزراعية ومنتجات الغابات• وعمل أمراء الشرق على توسيع ضياعهم وذلك أولا : عن طريق الاستيلاء على الأراضى البور أو افتداء الفلاحين وأخيرا عن طريق الاستيلاء عنوة على أراضى الفلاحين • وفى القرن السادس عشر ربح كثير من الفلاحين الشرقيين من فرص التسويق الجديدة ولم يقاوموا التطورات التى أثقلت آنذاك كاهل بعضهم فقط بتحمل زيادة طفيفة فى خدمات العمل • وسرعان ما أصبح الأمراء هم أصحاب السطوة الاقتصادية والسياسية ، وخنقت التجارة والصناعة فى المدن • وبذلك أصبحت أوروبا الشرقية بمثابة مؤخرة ريفية للغرب الذى تحضر وتم تصنيعه • وتكررت عملية مماثلة لهذه على نحو مستقل فى المناطق الوسطى من الروسيا • ففى الوقت الذى تزايد فيه السكان فى القرنين الخامس عشر اتسعت المدن القديمة وظهرت مدن جديدة ونشأت فرص جديدة للانتاج الزراعى المربح • وبدأ صغار النبلاء ـ ممن منحهم أمراء موسكو أراض وفلاحين مقابل تعضيدهم لهم ، وما يقدمونه لهم من خدمات ـ يطالبون الفلاحين بالمزيد من الضرائب المالية والخدمات فى مجال العمل ، وبخاصة فى القرن السابع عشر عندما بدأت الروسيا تزود السوق الغربى بما يحتاج اليه •

٥ ــ ج . ميردال « المشكلة السكانية مشكلة من أجــل الديمقراطيــة » (مطبعــة جامعــة هارفارو ــ كامبريدج) ماسوشيت ١٩٤٠) .

٦ ــ ك . واطسون « دراســات فى السكان » ٢ ــ ٢٦١ (١٩٥٢) ــ ٨ ــ ٤٦ (١٩٥٤) .

٧ ــ أ . ل . كالفستن « الزواج والحياة الأسرية » ١٧ ــ ٢٥٠ (١٩٥٥) هـ . جيــل « دراسات فى السكان » ٢ ، ٣ (١٩٤٨) ــ نفس المرجع السابق ٢ ، ١٢٩ (١٩٤٨) .

٨ ــ م . ح . فيلد « الزواج والحيــاة الأسرية » ١٧ ، العدد ٣ (١٩٥٥) .

٩ ــ تقرير اللجنة الملكية عن السكان : المملكة المتحــدة (مكتبة صاحبة الجلالة ــ لندن ١٩٤٩) .

١٠ ــ هذه الفقرة استشهد بها ف.س. رايت فى كتاب « السكان والسلام » عصبة الأمم ــ باريس ١٩٣٩ ص ١٤٧ .

١١ ــ استشهد بهذه الفقرة د . ف . جلاس فى كتاب « الصراع من أجل السكان » كلاريندون ــ اكسفورد ــ ١٩٣٦ ص ٣٤ ، ١٢ ــ أ . ميردال « الأمة والأسرة » (هاربر نيويورك ــ ١٩٤١) ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .

١٣ ــ د . كيرك . المجموعة التذكارية لميلبانك ٢٠ و ١٢٦ (١٩٤٢) .

ج . هاجنال « دراسات فى السكان » ١ ــ ١٣٧ (١٩٤٧).

١٤ ــ أ . سوفى « المجلة الاقتصادية لمقاطعة هينــــو البلجيكية » (مارس ١٩٥١) .

١٥ — وتشمل البيانات الخاصة باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية .

١٦ — ف . و . نوتشتين وآخرين .

« مستقبل السكان فى أوروبا والاتحاد السوفيتى » (عصبة الأمم — جنيف ١٩٤٤ — ص ٧٥ .

و . س . تومبسون : « المشاكل السكانية » (ماك جروهيل — نيويورك ١٩٥٣) . ص ٦٦ — ٦٧ .

و . و . أيزون — مجلة الشئون الخارجية (عدد يوليو ١٩٥٩) .

١٧ — أ . ف . ك . أرجانسكى « مجلة التاريخ المعاصر » (عدد أبريل ١٩٥٩) .

١٨ — أ . ف ك . أرجانسكى : « السياسة الدولية (نوف — نيويورك ١٩٥٨) .

الباب الثامن .

النمو السكانى فى العالم معضلة دولية *

بقلم : هارولد . ف . دورن

ينقسم العالم أيديولوجيا انقساما عميقا ، كما وأنه يتباين ثقافيا تباينا شديدا ، الا أنه من الناحية العسكرية والسياسية ليس سوى عالم واحد فقط فلا أوروبا ولا الحضارة الغربية بقادرة على الصمود وحدها . وما سبق أن أشرنا اليه أخيرا تحت اسم « الانفجار السكانى » أمر يشغل بال الجميع . وفى المقال التالى يقدم لنا العالم الراحل الدكتور هارولد ف. دورى عرضا رائعا للحقائق البيولوجية ومدلولاتها السياسية . ومن دواعى دواقى الاطمئنان والحــذر أن نكون على علم بجل ما لا يمكن التنبؤ به عن مستقبل الجنس البشرى .

---

* عن مجلة « العلم » ١٣٥ ــ عدد ٣٥٠٠ (١٩٦٢) ٢٨٣ ــ ٢٩٠ مع حذف بعض فقراتها باذن من المؤلف ورئيس تحرير مجلة العلم . نسخة طبق الاصل ــ ١٩٦٢ لدى الجمعية الامريكية لتقدم العلوم .

اضطر الانسان طوال القرون الماضية ، فيما عدا الحقبة الأخيرة من تاريخ وجوده ، الى أن يحيا ويتكاثر ويموت مثله فى ذلك مثل سائر الحيوانات الأخرى . وكان تكاثره يخضع لنفس العوامل الثلاثة الكبرى التى تنظم تكاثر كل انواع النباتات والحيوانات — وهى الافتراس والمرض والموت جوعا — أو حسب مسميات أخرى أكثر تطابقا مع الجنس البشرى — الحرب والأوبئة والمجاعة . ومن أهم التطورات التى حدثت ابان النصف الأول من القرن العشرين وكان لها أثرها على مستقبل الجنس البشرى زيادة قدرة الانسان على التحكم فى الأوبئة والمجاعات . وعلى الرغم من أن الانسان لم يتحرر تماما من بطش هذين العاملين اللذين يتحكمان فى الزيادة السكانية الا أنه اكتسب قدرة كافية تمكنه من قمعهما بحيث لم يصبحا القوة الفعالة التى تحدد تكاثره .

بيد أنه خلال هذه الفترة ذاتها طور الانسان الوسائل التى تزيد من فعالية الحرب كعامل مؤثر على زيادة السكان ، بحيث اصبح فى استطاعته الآن أن يمحو من الوجود وبسرعة جانبا كبيرا من الجنس البشرى ان لم يكن كله . وعرف فى نفس الوقت كذلك كيف يفصل بين الاشباع الجنسى والتناسل باستخدام وسائل منع الحمل (أى أن يكون التناسل عن طريق التلقيح الصناعى ، ويحدث ذلك بوجه خاص باستخدام الحيوانات المنوية التى تحفظ لفترة طويلة نسبيا) . ويستطيع الانسان بذلك أن ينظم التكاثر السكانى عن طريق التنظيم الارادى للاخصاب . ونستطيع الآن أن نقول بصدق أن الانسان

يملك العلم والقدرة اللذين يمكنانه من تحديد مسار تطوره جزئيا على الأقل .

الا أن هذا العلم وتلك القدرة اللذين اكتسبهما الانسان حديثا لم يحرراه من التأثير الراسخ للقوانين البيولوجية التى تحكم كل الكائنات العضوية الحية . اذ أن عملية التطور قد منحت أغلب الأنواع قوة انسالية كامنة تستطيع بها ، لو لم يعقها عائق ، أن تزحم الكرة الأرضية خلال بضعة أجيال . فمن المقدر مثلا أن الدودة الشريطية تستطيع ان تضع ١٢٠٠٠٠ بيضة كل يوم . وتستطيع سمكة البكلاه أن تضع حوالى ٤ مليون بيضة كل عام . وتستطيع الضفدعة أن تحمل ١٠٠٠٠ بيضة فى الذرية الواحدة . ومن المعتقد أن المبيض عند الانسان يحتوى على ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ بويضة فى سن البلوغ بينما تحتوى القذفة الواحدة من المنى البشرى على ما يقرب من ٢٠٠ مليون حيوان منوى .

وقد أعيقت هذه القوة الانسالية المفرطة لدى الأنواع الحية من غير الانسان نتيجة التنافس بين الكائنات الحية خلال التناحر من أجل البقاء ، وبسبب المرض ونقص الغذاء الميسر لها . واذا كان الانسان قد تعلم كيف يتحكم الى حد كبير فى تأثير هذه الموانع البيولوجية التى تحد من الزيادة الجامحة فى عدد البشر ، الا أن ذلك لم يعفه من ضرورة استبدالها بموانع أخرى أقل غلظة ولكنها تعادلها من حيث أثرها . ويصعب على

الانسان أن يرجىء لفترة طويلة الاستفادة من قدرته هــذه . اذ ان الفترة اللازمة لكى يتضاعف فيها عدد سكان العـــالم قد نقصت بصورة حادة خلال القرون الثلاثة الأخيرة وتقدر الآن بحوالى ٣٥ عاما .

ولا يسعنا أن نتصور ، الا على نحو تقريبى تماما ، الفترة اللازمة لكى يبلغ فيها تعداد سكان العـالم ربـع بليون نسمة وهو العدد التقـديرى لسكان العالم فى مطلع العصر المسـيحى · وربما كانت السلالات الحالية للانسان العاقل Homo sapiens موجودة على قيد الحياة منذ ١٠٠٫٠٠٠ عام خلت . وقد لا يلزمنا تحديد التـــاريخ بدقة حيث يفى بالغرض الآن أن نشـير الى أن الانسان العاقل احتاج الى ما يقرب من ٥٠٫٠٠٠ الى ١٠٠٫٠٠٠ عام يتكاثر فيها الى أن بلغ جملة تعداده حوالى ربع بليون نسـمة. وقد بلغ هذا العدد منذ ٢٠٠٠ عام على وجه التقريب ·

وحتى عام ١٦٢٠ وهو العام الذى وطئت فيه أقـــدام الحجاج أرض بلايموث روك كان قد تضاعف عدد سكان العالم . وبعد ذلك بمائتى عام وقبل الحـــرب الأهلية بفترة وجيزة ، أضيف اليهم ٥٠٠ مليون نسمة أخرى . ومنذ ذلك التـــاريخ بدأت تضاف الى السكان أنصاف أخرى من البلايين خـــلال فترة زمنية تتناقص باطراد . فقد احتاج نصف البليـــون السادس ، وهو آخر ما أضيف الى تعداد السكان ، فترة زمنية تقـــل قليـــلا عن أحد عشر عاما ، قيـاسا بنصف البليون الثانى الذى احتاج الى مائتى عام · ويشير معدل النمو الحالى الى أننـا بحاجة الى ٦ أو ٧ أعوام فقط لكى يضاف منها الى سكان العالم نصف البليون الثامن . وحدث هذا التغير فى معدل النمو الذى أسلفنا وصفه توا منذ أن وفد الى نيو انجلند اول مستوطنيها ·

جـــدول (١)

عدد الأعوام اللازمة لكى يتضاعف فيها سكان العالم

عن بيانات هيئة الامم (٩ ـ ١٤)

السنة بعد الميلاد	عدد السكان مقدرا بالمليون	عدد السنوات اللازمة لبلوغ ضعف العدد
١	٢٥ر٠ (؟)	١٦٥٠ (؟)
١٦٥٠	٥٠ر٠	٢٠٠
١٨٥٠	١ر١	٨٠
١٩٣٠	٢ر٠	٤٥
١٩٧٥	٤ر٠	٣٥
٢٠١٠	٨ر٠ ×	؟

× تحديد افتراضى لتقديرات هيئة الأمم ٠

احتمالات المستقبل : ـ

أطردت سرعة معدل الزيادة فى النمو السكانى فى العالم فى غير جلبة تثير الأنظار حتى أن أكثر النـاس غافلون عن النتائج المترتبة عليها مستقبلا ٠ وثمة فئة قليلة من الناس استثارتهم هذه اللامبـالاة ، مثل بول ريفير ، ونستصرخ الجماهير بصيحاتها عن « القنبلة السكانية » أو « **الانفجار السكانى** » ٠

ويسمى هؤلاء بمثيرى الرعب وأطلق عليهم هذا الاسم أولئك الذين يناوئون التأكيد بأن هذه التحذيرات مثل « فسحة من المكان فقط » و « البشرية فى مفترق الطرق » بدأت تذاع بشكل دورى

بعد أن كتب مالتوس مقاله عن السكان ، أى منذ ما يقرب من مائتى عام خلت • وتزعم هذه الفئة أن مستوى المعيشة والصحة للانسان العادى قد تحسن باطراد رغم هذا كله وليس ثمة ما يبرر الاعتقاد بأن التقدم التكنولوجى سيعجز عن أن يحقق ارتفاعا تدريجيا فى مستوى المعيشة لهذا العدد المتزايد من سكان العالم فى المستقبل البعيد غير المحدد • بل وفضلا عن ذلك فانهم يكادون يؤكدون أن نسبة الزيادة فى السكان ستنخفض تدريجيا مع ارتفاع مستوى التعليم والمعيشة ومع ازدياد التحضر •

وحاولت مجموعة ثالثة أن تقدر الحد الاقصى من السكان ممن يمكنهم أن يعيشوا على الموارد الطبيعية للعالم مع افتراض الاستفادة الكاملة بالعلوم التكنولوجية القائمة •

وكما هو متوقع فقد تباينت تباينا واضحا التقديرات المختلفة لهذا الحد الأقصى من السكان الذى يمكن الوفاء باحتياجاته دون أن يترتب على ذلك أى نقص فى مستوى المعيشة الحالى • ومن بين أدنى هذه التقديرات التقدير الذى وضعه بيرسون وهاربر عام ١٩٤٥ وهو ٢ر٨ بليونا على فرض أن نكون قد تجاوزنا مستوى الاستهلاك فى آسيا • وثمة كثيرون آخرون تتراوح تقديراتهم ما بين ٥ الى ٧ بليون وهو ما قد نتجاوزه يقينا مع نهاية هذا القرن • وربما كان أضخم هذه التقديرات والتى أعدت بعناية أكثر التقدير الذى وضعه هاريسون براون وهو ٥٠ بليونا • وقد نبلغ هذا العدد خلال مائة وخمسين عاما تقريبا ، اذا ما ظل معدل النمو على ما هو عليه الآن •

وفى اعتقادى أن من الامور الجديرة بالاهتمام اعداد تقدير للحد الأقصى من السكان ممن يمكن اعالتهم وأن نراجع هذه التقديرات كلما تيسرت لنا معلومات جديدة • وعلى الرغم من أن أكثر

التقديرات التى وضعت فى الماضى ثبت الآن ، أو سيثبت عاجلا ، أنها تقديرات غير صحيحة (فهى تقــــديرات ضئيلة فى أغلب الأحيان) الا أن ذلك يمثل جهدا رشيدا من أجل فهم احتمـــالات المستقبل المترتبة على الزيادة فى السكان • ويجب علينا أن نسلم فى نفس الوقت بأن تقديراتنا عن طاقة العالم الانتاجية هى تقديرات غير واقعية الى حد ما ، وتفيدنا فقط من حيث أنها خطوط عامة جدا ترشدنا فى طريقنا •

وافترضت هذه الحسابات فى بادىء الامر أن موارد العـالم ومهاراته بمثابة مستودع واحد ميسر للجميع • وهذا زعم خاطىء فى واقع الامر • فحكومة الولايات المتحدة تسعى من أجل تقييـــد انتاج بعض المحاصيل الزراعية عن طريق دفع ثمنها للفلاحين نظير عدم زراعتها ، وفى نفس الوقت توجد فى افريقيا وآسيا أعداد غفيرة لا تجد كفايتها من الغذاء والملبس • فليس ثمة مشكلة سكانية عالمية الا بمعناها الأعم • وانمـا هنـاك مشاكل سكانية تتباين من حيث طبيعتها ودرجتها بين شعوب العالم المختلفة • وبالتالى فليس هناك حل واحد يصلح لها جميعا •

حساب النمو السكانى :ـ

ان المنهج المتبع فى تقدير أو حساب النمو الســكانى والذى يستخدمه كثيرا علماء الديموجرافيا كلما تيسرت لهم البيانات اللازمة هو منهج « المكونات » أو المنهج « التحليلى » • وثمة تقـــديرات متفرقة تم اعدادها عن الاتجاه الذى ستسير فيه مستقبلا الخصوبة والوفيات والهجرة • فمن المجموع الكلى للسكان حسب توزيعه على أساس العمر والجنس طبقا لبيانات محددة يمكن حساب عدد السكان

فى المستقبل الذى ينتج عن عملية التوفيق الافتراضية بين الخصوبة والوفيات والهجرة • ومن المألوف عادة أن يضع الباحثون تقديراتهم المختلفة لعدد السكان فى المستقبل بحيث تتضمن ما يعتقدون أنه يمثل أكثر الاتجاهات احتمالا لتحقيق تقييماتهم •

ويزعم أصحاب هذه التقديرات بوجه عام أن تقديراتهم ليست نبوءات عما هو محتمل حدوثه أكثر من غيره بالنسبة للسكان مستقبلا ، وانما هى مجرد علامات تشير الى عدد السكان الذى يحتمل وجوده بناء على الدعاوى الافتراضية الخاصة باتجاه الخصوبة والوفيات والهجرة مستقبلا ، ومع ذلك فان التقديرات الافتراضية للخصوبة والوفيات والهجرة انما يتم اختيارها عادة بحيث تتضمن ما يعتقد أصحابها فى مدى ما سيكون عليه اتجاه الاحتمالات الممكنة • ويحققون غرضهم هذا بوضع تقديرات « عالية » و « متوسطة » و « دنيا » فيما يتعلق بالاتجاه المتوقع مستقبلا للنمو السكانى • وسوف أشير الى هذه الأرقام باسم التقديرات التصورية للسكان مقتديا فى ذلك بالغالبية من أصحاب هذه التقديرات •

وأقوى هذه التقديرات التصورية لتعداد سكان العالم هى تلك التقديرات التى وضعتها الامم المتحدة (٩ و ١٠) (جدول ٢) • وحتى على الرغم من أن أحدث هذه التقديرات التصورية قد صدر عام ١٩٥٨ الا أنه يبدو لنا الآن أن عدد سكان العالم سيتجاوز أعلى تقدير له قبل عام ٢٠٠٠ • فقد أصبح عدد السكان فى العالم حتى نهاية عام ١٩٦١ معادلا ، على الأقل ، لأعلى تقدير كان من المتوقع أن يبلغه حتى هذا التاريخ •

(جـــدول ٢)

تقديرات تعداد السكان فى العالم

فى أعوام ١٩٠٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٧٥ ، ٢٠٠٠

ـ عن بيانات هيئة الامم المتحدة (٩) مقربة الى ثلاثة أرقام صحيحة ـ

المنطقة	تعداد السكان بالمليون		التقدير التصورى للسكان (بالمليون)			
			الحد الأدنى		الحد الأعلى	
	١٩٠٠	١٩٥٠	١٩٧٥	٢٠٠٠	١٩٧٥	٢٠٠٠
العالم	١٥٥٠	٢٥٠٠	٣٩٥٠	٤٨٨٠	٣٨٦٠	٦٩٠٠
إفريقيا	١٢٠	١٩٩	٢٩٥	٤٢٠	٣٣١	٦٦٣
أمريكا الشمالية	٨١	١٦٨	٢٣٢	٢٧٤	٢٤٠	٣٢٦
أمريكا اللاتينية	٦٣	١٦٣	٢٨٢	٤٤٥	٣٠٤	٦٥١
آسيا	٨٥٧	١٣٨٠	٢٠٤٠	٢٨٩٠	٢٢١٠	٤٢٥٠
أوروبا بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى)	٤٢٣	٥٧٤	٧٢٤	٨٢٤	٧٥١	٩٨٧
جزر المحيط الهادى	٦	١٣	٢٠	٢٧	٢١	٣٠

على الرغم من أن التقديرات التصورية للأمم المتحدة تبدو لنا تقديرات متحفظة للغاية بحيث أن أعلى تقدير لها سيكون أقل من تعداد السكان لمدة أربعين عاما فقط من الآن ، فان الزيادة العددية للسكان والتى تشير اليها هذه التقديرات ستخلق مشاكل قد تفوق طاقة الامم المعنية على حلها • مثال ذلك الزيادة المحتملة فى تعداد سكان آسيا ابتداء من عام ١٩٥٠ الى ٢٠٠٠ فانها ستعادل تقريبا جملة سكان العالم كله فى عام ١٩٥٨ • ومن المحتمل أن يصبح عدد سكان أمريكا اللاتينية خلال أربعين عاما من الآن أربعة أمثال عددها ١٩٥٠ • وربما تعادل الزيادة المطلقة للسكان فى أمريكا اللاتينية ابان النصف الاخير من القرن الحالى عدد الزيادة الكلية فى السكان للانسان العاقل طوال العصر الألفى منذ بدايته حتى ١٦٥٠ وقتما استوطن الاستعماريون الأول نيو انجلند •

ان تزايد السكان بهذه الضخامة العددية شيء يدير الرءوس • وتشير الاتجاهات الحالية بأن هذه الزيادة قد تتلوها زيادة أضخم خلال فترات مماثلة • فلا تزال الزيادة مستمرة باطراد فى نسبة النمو للسكان فى العالم ، وهى الزيادة الموضحة فى جدول (١) • وتقدر هذه الزيادة الآن بحوالى ٢٪ كل عام ، وهى نسبة كافية لمضاعفة سكان العالم كل ٣٥ عاما • ويتضح لنا بعملية حسابية غاية فى البساطة أن استمرار هذه النسبة فى النمو لمدة مائة عام أو مائة وخمسين عاما أخرى ستؤدى الى زيادة فى السكان تصبح معها الكرة الارضية أشبه بقرية النمل •

ولكن العالم ، كما أشرنا سابقا ، ليس وحدة اقتصادية أو سياسية أو ديموجرافية واحدة • فقبل أن يبلغ سكان العالم هذا الحجم الذى لا يمكن معه اعالة الناس بنفس مستوى المعيشة الحالى ستؤدى الزيادة السكانية فى بلدان ومناطق معينة الى ظهور مشاكل ستؤثر على صحة الأجزاء الاخرى من العالم ورفاهيتها •

ولقد أوضحت أحداث الاعوام القليلة الماضية بجـــلاء أن المشاكل السـياسية والاقتصـــادية فى بعض البلدان مهـــما كانت صغيرة وضعيفة الا أنها تؤثر بسرعة وبشكل مباشر على رفاهية أكبر الدول وأقواها • وأولى بنا • بدلا من أن نفكر فى الحد الاقصى للسكان ممن يمكن أن يعولهم العالم والفترة اللازمة قبل أن نصـل الى هذا الغد ، أن نعنى بما هو أجدى وندرس التغيرات الديموجرافية التى تحدث فى المناطق المختلفة من العالم ونوجز فى تعليقنا على احتمالات المستقبل لها •

انخفاض نسبة الوفيات :

ان أهم أسباب الطفرة الأخيرة فى الزيادة السكانية هو انخفاض نسبة الوفيات على نطاق العالم • فعلى الرغم من ارتفاع نســـبة المواليد فى بعض البلدان ـ مثل الولايات المتحدة ـ أثنـــاء الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، الا أن هذه الزيادة لم تحدث على نطـاق واسع بحيث لا يمكننا أن نرجع اليها سبب الزيادة التى طرأت على المجموع الكلى لسكان العالم الا فى جزء ضئيل فقط • وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك زيادة فى السكان قبل الحرب العالمية الثانية رغم انخفاض نسبة المواليد على نطاق واسع بين السكان ممن هم من أصل أوروبى •

ولا توجد لدينا احصائيات دقيقة ، الا أن أفضل التقديرات التى بين أيدينا تشير الى أن الامل فى الحياة بعد الميلاد فى اليونان وروما ومصر ومنطقة شرق البحر المتوسط لم يكن يتعد ثلاثين عاما فى بدء العصر المسيحى • وزاد هذا الأمل عام ١٩٠٠ الى ما يقرب من ٤٠ و ٥٠ عاما فى شمال أمريكا وغالبية بلدان أوروبا الغربية • وبلغ الآن من ٦٨ الى ٧٠ عاما فى كثير من هذه البلدان •

وقلة ضئيلة من سكان العالم حتى عام ١٩٤٠ هى التى تحقق لها أمل فى الحياة عند الميلاد مناظر لذلك الأمل الذى تحقق لسكان أمريكا الشمالية وشمال غرب أوروبا • ولم يأمل أغلب سكان العالم فى حياة أطول من تلك الحياة التى كانت سائدة فى غرب أوروبا ابان العصور الوسطى • وخلال العشرين عاما الاخيرة تهيأت لجموع سكان العالم امكانية بلوغ نسبة وفيات القرن العشرين •

وكانت نسبة الوفيات فى المكسيك عام ١٩٤٠ مماثلة لنسبة الوفيات فى انجلترا وويلز منذ مائة عام مضت على وجه التقريب • وانخفضت كثيرا خلال الاعوام العشرة التالية ، مثلما انخفضت نسبة الوفيات فى انجلترا وويلز خلال الخمسين عاما التى تخللت ١٨٥٠ و ١٩٠٠ •

وفى عام ١٩٤٦ ــ ١٩٤٧ كانت نسبة الوفيات بين سكان الجزائر الاصليين أعلى منها بين سكان السويد خلال الفترة الواقعة بين عامى ١٧٧١ ــ ١٧٨٠ ، وهو أقدم تاريخ تيسر لنا فيه الحصول على احصائيات للوفاة يمكن الاعتماد عليها لأمة بأسرها • وخلال الاعوام الثمانية التالية تجاوز النقص فى نسبة الوفيات فى الجزائر بدرجة كبيرة نسبة الوفيات فى السويد خلال قرن من الزمان ابتداء من ١٧٧١ الى ١٨٧١ •

والانخفاض السريع فى نسبة الوفيات فى المكسيك وشعب الجزائر يصور لنا بوضوح ما حدث خلال الخمسة عشر عاما فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا حيث يعيش الآن ثلاثة أشخاص تقريبا من بين كل أربعة أشخاص من سكان العالم • وطرأ تغير طفيف جدا على نسبة المواليد فى هذه المنطقة بطولها وظل مقاربا لمستوى واحد وهو ٤٠ فى الألف كل عام •

بل وفى بعض البلدان مثـــــل بورتوريكو واليابان حيث انخفضت نسبة المواليد انخفاضا ملموسا لم تتغير نســـبة الزيادة الطبيعية الا تغيرا طفيفا جدا بسبب النقص الحاد فى نسبة الوفيات • وثمة موقف مماثل الى حد كبير فى سنغافورة وسيلان وجواتيمالا وشيلى حيث ارتفعت النسبة الاجمالية للزيادة الطبيعية • فقد كان هناك اتجاه عام نحو انخفاض نســبة الوفيات بصورة شاملة وبقاء نسبة المواليد المرتفعة على ارتفاعها • وترتب على ذلك أن هذه البلدان التى تتميز بأعلى مستوى فى الزيادة تعانى من اطراد سرعة معدلات النمو فيها •

المستويات الاقليمية : ــ

اننا لا نستطيع الا أن نشير على وجه التقريب فقط للمستوى المطلق للخصوبة والوفيات وأثر التغيرات التى طرأت على كل منهما على الزيادة السكانية فى المناطق المختلفة من العالم • وتشــير تقديرات الأمم المتحدة الى أنه لا يتم تسجيل ســوى ما يقرب من ٣٣٪ من الوفيات و ٤٢٪ من المواليد فى العالم (١٢) • وتتراوح النســبة المئــوية المسجلة ما بين ٨ الى ١٠٪ تقريبــا فى افريقيا الاستوائية وجنوب افريقيا وشرق آسيا ، ومن ٩٨ الى ١٠٠ ٪ فى أمريكا الشمالية وأوروبا • ومع ذلك فقد قامت هيئـــة الاحصاء التابعة للأمم ببذل جهود تتسم بالحكمة والتروى لتجميع البيانات المتناثرة التى تيسرت لها واستطاعت بذلك أن تخرج بتقديرات عن الخصوبة فى مناطق مختلفة من العالم أمكن قبولها بوجه عام كصورة صحيحة ومعقولة للأرقام الفعلية والتى لا تزال مجهولة لنا •

وتصل معدلات نسبة المواليد فى بلدان افريقيا وآســيا وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبيــة الى ما يقرب من ٤٠ فى الألف

وربما كانت على نفس المستوى المرتفع الذى كانت عليه منذ ٥٠٠ الى ١٠٠٠ عام خلت · وبالنسبة لبقية بلدان العالم الاخرى ـ أوروبا وأمريكا الشمالية وجزر المحيط الهادى والاتحاد السوفيتي ـ فان نسبة المواليد فيها تتجاوز نصف تلك النسبة بدرجة طفيفة أو مايقرب من ٢٠ الى ٢٥ فى الألف · أما نسبة الوفيات فى المناطق الاولى فعلى الرغم من أنها لا تزال مرتفعة الا أنها تقترب بسرعة من نسبة الوفيات فى الشعوب التى هى من أصل أوروبى · وترتب على ذلك أننا نجد أعلى نسبة فى الزيادة الطبيعية موجودة فى المناطق التى بها أعلى نسبة للمواليد · وتوجد أسرع نسبة فى النمو السكانى الآن فى أمريكا الوسطى والجنوبية حيث سيتضاعف عدد السكان كل ٢٦ عاما تقريبا اذا ما ظلت النسبة الحالية كما هى · ومن شأن هذه الفوارق فى نسبة الخصوبة والوفيات أن تزيد من حدة عدم التوازن القائم الآن بين نسبة السكان ومساحة اليابس والموارد الطبيعية ·

وثمة أثر خطير ينتج عن انخفاض نسبة الوفيات وكثيرا ما نغفله ـ وأعنى به زيادة الخصوبة الفعلية · اذ أن حوالى ٩٧ من بين كل ١٠٠ من الاناث البيض ممن تنطبق عليهن نسبة الوفيات التى كانت سائدة فى الولايات المتحدة عام ١٩٥٠ يبقين على قيد الحياة حتى العشرين من عمرهن أى بعد بداية سن الحمل بقليل ، ويبقى ٩١ منهن حتى نهاية فترة الحمل · وهذه التقديرات أعلى من مثيلاتها الخاصة بنسب الاناث البيض اللائى كن يبقين على قيد الحياة حتى هذه الأعمار منذ أربعة قرون مضت تقريبا ، وهى أعلى منها ثلاث مرات واحدى عشرة مرة على الترتيب ·

وفى مقابل ذلك اذا ما طبقت نسبة الوفيات التى كانت سائدة فى جواتيمالا عام ١٩٥٠ فان ٧٠٪ تقريبا من الاناث الاطفال يبقين

على قيد الحياة حتى سن العشرين ويبقى النصف فقط حتى نهاية فترة الحمل • واذا حدث أن نقصت نسبة المواليد فى جواتيمالا الى نفس المستوى الذى كان سائدا فى الولايات المتحدة عام ١٩٥٠ ـ وهو احتمال معقول ـ فان عدد الاناث الاطفال اللائى يبقين على قيد الحياة حتى بداية فترة الحمل سيزداد بنسبة ٣٦٪ ، وسيرتفع عدد من يبقى منهن حتى نهاية فترة الحمل بنسبة ٨٥٪ • ويلزم هنا أن يحدث مقابل ذلك نقص فى نسبة المواليد ليحول ذلك دون أن تؤدى هذه الزيادة فى نسبة من يبقين على قيد الحياة الى زيادة سريعة فى نسبة النمو السكانى الحالية والتى هى زيادة مفرطة أصلا• وبعبارة أخرى فان هذا النقص فى نسبة الوفيات سيتطلب نقصا مقابلا له فى نسبة المواليد يزيد على ٤٠٪ حتى يبقى الوضع على ما هو عليه •

ولكن نسبة المواليد فى البلدان التى تتمتع بخصوبة عالية لم تتجه نحو الانخفاض أو أنها انخفضت بنسبة ضئيلة خلال الأعوام الأخيرة • وتعد اليابان الاستثناء الوحيد لذلك • فقد انخفضت نسبة المواليد فيها خلال عامى ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٨ حوالى ٤٦٪ • وتزيد هذه النسبة كثيرا عما تحتاج اليه لتوازن النقص فى نسبة الوفيات مما ترتب عليه نقص فى العدد المطلق للمواليد • ولا يوجد حتى الآن سوى شواهد ضعيفة جدا تدل على أن البلدان الاخرى التى توجد بها نسبة عالية من المواليد تنوى أن تحذو حذوها فى المستقبل القريب •

الطراز التاريخى فى أوروبا الغربية : ـ

يسلم معنا البعض بأن نسبة الزيادة الحالية لغالبية سكان العالم لا يمكن لها أن تستمر بغير حدود دون أن يثير ذلك مشاكل

سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة • الا أنهم رغم ذلك يشيرون الى أن موقفا مماثلا سبق له أن كان موجودا فى وسط أوروبا وشمال غربها ابان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • ويرون أن زيادة حركة التصنيع والتحضر مقترنة بارتفاع فى مستوى المعيشة أدت الى خفض فى نسبة المواليد ، وترتب عليها كذلك انخفـاض فى معدل الزيادة السكانية • اذن لماذا لا نتوقع أن تقتفى بقية دول العالم اثر هذا الطراز نفسه ؟ •

ثمة احتمال ضئيل فى أن نجد ثلثى سكان العالم ممن لم يمروا بعد بالثورة السكانية وينتقلوا من النسبة العالية فى الخصوبة والوفيات الى النسبة المنخفضة فى الخصوبة والوفيات ، يمكنهم أن يعيدوا تاريخ الشعوب الاوروبيـة السابق على ظهور المشاكل السياسية والاقتصادية الخطيرة • ونظرة سريعة على الظروف التى أدت الى السيطرة المزعومة على العالم والتى تحققت فى نهاية القرن التاسع عشر على يد أناس من أصل أوروبى ستكشف لنا عن بعض الأسباب التى حدت بنا الى هذا الرأى •

من المحتمل أن سكان أوروبا حوالى عام ١٥٠٠ ميلادية لم يتجاوزوا مائة مليون نسمة (ربما كان تعدادهم يقرب من ١٥ الى ٢٠٪ من سكان العالم) • وكان هؤلاء السكان يشغلون حوالى ٧٪ من مساحة اليابس وبعد اربعمائة عام ، أى حوالى عام ١٩٠٠ بلغ تعداد نسل هؤلاء السكان قرابة ٥٥٠ مليونا ، وهو ما يمثـل ثلث سكان العالم آنذاك • وكان هؤلاء يشغلون أو يسوسون خمسة أسداس مساحة اليابس فى المعمورة • اذ تم لهم الاستيلاء على قارتين عظيمتين هى أمريكا الشمالية والجنوبية وقارة أخرى أصغر حجما هى استراليا والجزر المتاحة لها ، واستوطنوا هـذه الأماكن كلها • وسيطروا كذلك على قارة ثالثـة كبيرة وهى افريقيـا

واستوطنوا جزءا منها • وأخضعوا جنوب آسيا والجزر المجاورة لهـا •

وكانت الشعوب المتحدثة باللغة الانجليزية والفرنسية والاسبانية هى رائدة هذا التوسع ، ولعب البرتغاليون والهولنديون دورا أقل شأنا • ولم يسهم البلجيكيون والالمان فى ذلك الا فى نهاية فترة التوسع هذه • واحتلت الشعوب المتحدثة باللغة الانجليزية مكان الصدارة بين هؤلاء جميعا فى نهاية هذه الحقبة ، أى حوالى عام ١٩٠٠ •

ونحن لا نعرف عدد المتحدثين باللغة الانجليزية حتى عام ١٥٠٠ تقريبا ، أى مع بداية فترة التوسع ، ولكن من المحتمل أنه لم يتجاوز ٤ أو ٥ ملايين • وبلغ تعداد هؤلاء حتى عام ١٩٠٠ حوالى ١٢٩ مليونا ، وكانوا يحتلون ويسوسون ثلث المعمورة ، وكان تعدادهم هم والسكان من غير المتحدثين بالانجليزية حوالى ٣٠٪ من سكان العالم •

وتميزت هذه الفترة بزيادة لم يسبق لها مثيل فى تعداد السكان ، كما تميزت بالتوسع فى اتجاهات متعددة بحثا عن مستقر لهؤلاء السكان ، ومن ثم زيادة فى رأس المال فاقت كل الأحلام وكانت على شكل معادن ثمينة وبضائع وسلع • ولكن ما هو أهم من ذلك كله أن الزيادة فى رأس المال والأراضى الصالحة كانت أسرع بكثير من الزيادة فى النمو السكانى •

وليس من المحتمل على ما يبدو أن يصادف الشعوب التى تسكن الآن أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا موقف موات كهذا حيث يتحسن مستوى المعيشة فيها بخطوات سريعة مقرونا بزيادة حادة فى السكان • لقد سدت آخر الحدود العظيمة فى العالم • وعلى الرغم من أن هناك بعض المناطق فى العالم تتميز بقلة سكانها،

الا أن وجودها على هذا النحو لا يزال حتى الآن شاهدا على أن الناس ينظرون اليها كمناطق غير مرغوب العيش فيهـــا • كما أن التوسع السكانى فى المناطق الباقية المفتـــوحة يتطلب نفقات باهظة لرءوس الاموال للقيـــام بأعمال الرى والصرف وتســـهيلات عملية الانتقال والقضـــاء على الحشرات والطفيليات وغير ذلك من أغراض • ورأس مال كهذا لا تملكه الشعوب التى تتزايد الآن بسرعة وســوف تكون بحاجة الى هذه الاراضى •

وعلاوة على ذلك فان استيطان هـــــذه الاراضى ليس أمرا ميسورا • فالحدود القومية تقسم الآن كل ســـــطح المعمورة • والاعتبارات السياسية تحكم الآن الهـجرة العـالمية • وقد فرضت القيود على الهجرة بالنسبة لغالبية سكان العالم سواء الهجرة الى داخل البلاد أو الى خارجها •

لقد فرغ قرن الوفرة الذى كانت تثريه قبلا الموارد الطبيعية الحرة • ولم يعد ممكنا الآن بالنسبة لشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أن تحقق تراكما سريعا فى رأس المال فى شكل معـادن ثمينة وبضـائع وســـلع ، وهى الخصائص التى تميزت بها فترة الاربعمائة عام العظيمة والتى تمتعت بها شعوب أوروبا الغربية •

وأخيرا وليس آخرا تلك العملية الحسابية البسيطة للزيادة الراهنة فى تعداد السكان • لقد أصبح عدد الناس الآن فى العالم عددا هائلا للغاية بحيث سينجم عنها زيادة خيالية خلال فترة وجيزة جدا قياسا بالفترات السابقة فى تاريخ الجنس البشرى • وكما سبق لنا أن أشرنا فان استمرار نفس معدل الزيادة الموجود الآن سيترتب عليه وجود ٥٠ بليون نسمة بعد ١٥٠ عاما أخرى • وتعداد بهذه الضخامة الهائلة يفوق كل خبراتنا بحيث يشق علينـــا أن ندرك احتمالاته مستقبلا •

فكما أن توماس مالتوس لم يستطع فى نهاية القرن الثامن عشر أن يتنبأ بأثر اكتشاف الاطراف البعيدة للكرة الارضية على شعوب أوروبا الغربية ، كذلك نحن اليوم لا نستطيع أن نتنبأ بوضوح بالأثر النهائى لهذه الزيادة السكانية السريعة التى لم يسبق لها مثيل داخل الحدود المغلقة . ان مايبدو لنا الآن أقل الامور يقينا بالنسبة لمستقبل يحفه الغموض هو أن التاريخ الديموجرافى خلال الاربعمائة عام التالية لن يماثل كثيرا التاريخ الديموجرافى خلال الاربعمائة عام الماضية .

مشكلة عالمية :

لم تعد نتائج التكاثر البشرى تخص فقط الشخصين اللذين تتكون منهما الأسرة وحدها أو الأسرة الكبيرة بل ولا حتى الأمة التى تضمهما كمواطنين فيها . لقد بلغ التطور الديموجرافى فى العالم الآن مرحلة أصبح فيها معدل التكاثر البشرى فى أى بقعة من بقاع العالم يؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على صحة ورفاهية بقية الجنس البشرى . وبهذا المعنى نقول ان ثمة مشكلة عالمية فى السكان .

وثمة مثال أو مثالان قد يلقيان مزيدا من الضوء على هذه النقطة . ففى خلال العقد الماضى كان من بين كل عشرة أشخاص من المواليد الجدد من سكان العالم يعيش ستة فى آسيا ، واثنان آخران من بين كل عشرة يعيشان فى أمريكا اللاتينية وافريقيا . ولا مناص الآن على ما يبدو من أن يستمر انهيار سيطرة سكان شمال غرب أوروبا وسلالتهم على العالم الذى أصبح الآن على مستوى طيب من التقدم ، ولابد بالتالى أن ينتقل مركز القوى والنفوذ ناحية المركز الديموجرافى للعالم .

ان التوزيع الحالى للزيادة فى السكان يضاعف من عدم التوازن القائم الآن بين توزيع السكان فى العالم وتوزيع الثروة والمـوارد المستغلة وتلك التى يتيسر استغلالها واسـتخدام الطـاقة غير البشرية • ويتطلع العالم الآن ، وربما لأول مرة فى تاريخ البشرية، نحو تحقيق تحسن سريع فى مستوى المعيشة ، كما أن هناك حالة عامة من الاستياء المتزايد بسبب الظروف التى تبدو أنها تقف حجر عثرة فى طريق تحقيق هذا الامل • ان الملايين من شعوب آسـيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية على علم الآن بمستوى المعيشة الذى يتمتع به سكان أوروبا وأمريكا الشمالية • ويطالبون بأن تتاح لهم فرصة بلوغ نفس هذا المستوى ، ويقاومون الفكرة التى تدعوهم الى أن يقنعوا دائما والى الأبد بالقليل •

واذا استمر نفس المعدل المرتفع للتكاثر السكانى كما هـو موجود الآن فانه سيكون بمثابة « فرملة » توقف هذا التحسن الذى طرأ تدريجيا وبشق الأنفس على مستوى المعيشة • ومن ثم يزيد من حالة الاضطراب السياسى وربما يؤدى بالتالى الى تغيير فى النظم الحاكمة • وربما تؤثر هذه التغيرات السياسية تأثيرا عميقا ، كما أوضـحت بجـلاء الاحداث السياسية الاخيرة ، على رفاهية الامم الرأسمالية بما فيها أكثرها ثراء •

ان رءوس الأموال والمهـارات التكنولوجية التى تحتاج اليها كثير من شعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لتنتج من الطعام ما يفى بحاجة هذا العدد من السكان الذى يتزايد بسرعة ، وترفع فى نفس الوقت دخل الفرد ارتفاعا ملموسا ، يفوق قدرتها ومواردها القومية الحـالية • والدول الغنية هى المورد الوحيد الذى يمكن أن يزود هذه الشعوب مباشرة بما تحتاج اليه من رءوس الأموال • وأصبح مبدأ المساندة الشعبية لانجاز خطط الرفاهية الاجتماعيـة

من الامور المسلم بها الآن على نطاق واسع فى السياسة القومية • الا أن أكثر الدول الغنية والمتقدمة لم تسلم حتى الآن بوجه عام بالرغبة فى توسيع نطاق هذا المبدأ على المستوى العالمى بحيث يكون الهدف الاول منه تدعيم التطور الاقتصادى فى البلدان المتخلفة • وحتى لو سلمت الدول الغنية بهـذا المبدأ فليس من الواضح حتى الآن الى أى مدى ترغب هذه الدول طواعية فى تدعيم اقتصاد الشعوب التى تتلقى المعونة وهى لا تنظم النسل لسكانها • ولكن التسليم ببرنامج المعونات الخارجية الى المدى الذى يفى باحتياجات البلدان التى ينمو فيها السكان بمعدل سريع لن يكون له أثر سوى ارجاء النتيجـــة الحتمية لبضع عشرات من السنين بسبب عدم التحـــكم فى الزيادة السكانية •

وربما يشهد المستقبل زيادة دراميـــة فى قدرة الانسان على التحكم فى بيئته بشرط أن ينجز بسرعة البديل الحضارى لتلك العوامل القاسية والفعالة ـ المرض والمجاعة ـ التى تحد من قدرته الانسالية العالية والتى عرف أخيرا كيف يتحـكم فيها • لقد أصبح الانسان قادرا على أن يعدل وينظم كثيرا من الظواهر الطبيعية الا أنه لم يكتشف بعد وسيلة تجنبـــه النتائج المترتبـــة على القوانين البيولوجية • فلم يسبق أن وجـــد على الاطلاق أى نوع من أنواع الكائنات الحية استطاع أن يتكاثر بغير حـــدود • فثمة عائقان يعوقان الزيادة العددية السريعة ـ نسبة الوفيات العالية ونسـبة الخصوبة المنخفضة • الا أن الانســان على خلاف الكائنـــات الحيـة الاخرى يمكنه أن يختار أيا من هذين العائقين ليطبقه ، ولكن لابد وأن يبقى أحدهما • والمســـتقبل وحده هو الذى سيكشف لنا اذا ما كان الانسان سيتمكن من الاستفادة من معارفه العلمية ليوجه تطوره فى المستقبل بطريقة أكثر حكمة وتبصرا من قوى الطبيعـة العمياء • والاجابة على ذلك لن ترجأ لوقت طويل •

المراجع والملاحظات

١ – الكتاب السنوى الديموجرافى فى (الامم المتحـــدة – نيويورك – ١٩٥٥) ص ١ ٠

٢ – ف٠أ٠ بيرسون و ف٠أ٠ هاربر : « الجوع فى العالم » (مطبعة جامعة كورنيل – ايتاكا – نيويورك – ١٩٤٥) ٠

٣ – هـ – براون ٠ « التحدى لمستقبل الانسان » (فيكنج – نيويورك – ١٩٥٤) ٠

٤ – أ ٠ أ بيكار : « الاتجاهات السكانية وعلاقتها باستغلال الارض » – المؤتمر الدولى لعلماء الاقتصاد الزراعى ٠ المؤتمر الثانى ١٩٣٠ – ص ٢٨٤ ٠

٥ – ح ٠ س ٠ دافيز « مجلة الاقتصاد الزراعى » عـــدد نوفمبر ١٩٤٩ ٠

٦ – هـ ٠ ت ٠ دورن « مجلة جمعية الاحصاء الامريكية » ٤٥ – ٣١١ (١٩٥٠) ٠

٧ – ر٠ بيرل و ل ٠ جـ٠ ريد : « نشرة أكاديمية العـلوم الطبيعية للولايات المتحدة الامريكية » ٠ ٦ – ٢٧٥ (١٩٢٠) ٠

٨ – هـ٠و٠فورستر ، ب٠م٠مورا ، ل٠و٠أميوت « العلم» ١٣٢ – ١٢٩١ (١٩٦٠) ٠

٩ ـ « نمو سكان العالم فى المستقبل » نشرة هيئة الامم المتحدة عدد أ/٢٨ (١٩٥٨) .

١٠ ـ « النمو السكانى فى العالم ـ ماضيه ومستقبله ـ نظرة على المدى الطويل » . (نشرة السكان لهيئة الامم المتحدة ـ عـدد ١ ـ ١٩٥١ ـ ص ١ ـ ١٢)

١١ ـ رغم قصور تسجيل الوفيات بين سكان الجزائر الأصليين الا أنه من المعتقد أن الانطباع العام للرقم الثانى انطباع صحيح ، فى أساسه .

١٢ ـ الكتاب السنوى الديموجرافى (الامم المتحـــــدة ـ نيويورك ـ ١٩٥٦ ص ١٤) .

١٣ ـ نيويورك تايمز (٥ أغسطس ١٩٦١) .

١٤ ـ « محددات الاتجاهات السكانية وعواقبها » . نشرة هيئة الأمم المتحدد عدد أ/١٧ (١٩٥٣) .

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٢٣٩٧